

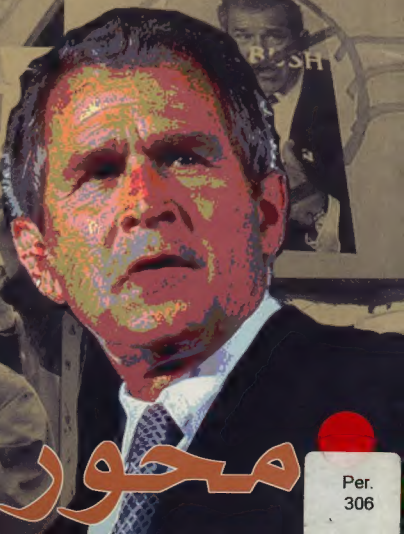
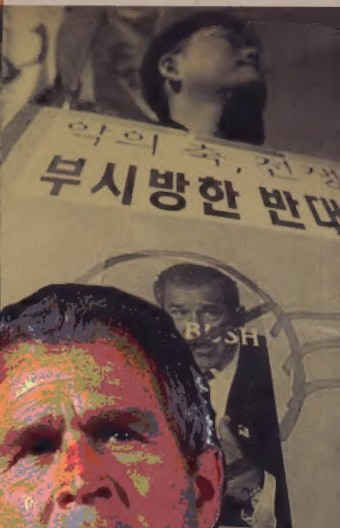
الاداب

50
YEARS

AL ADAB 2002

العدد ٤/٣ آذار (مارس) - نيسان (أبريل) ٢٠٠٢ - السنة ٥٠

Al-Adab vol.50# 3-4/2002



محور الشر

Per.
306

ياسمينه صالح



رواية

بحر الصمت



دار الآداب



الزهريس ٢٠٠٢

المعد ٤/٣ آذار (مارس) - نيسان (أبريل) ٢٠٠٢ - السنة ٥٠
Al - Adab vol. 50 # 3-4/2002

الافتتاحية

١ من يكاتب على من؟ سماح إدريس

المقالات

٤ المملكة المضطربة..... أسعد أبو خليل
١٣ المشرق العربي القومي في مواجهة الصهيونية..... عبد الله عبد الدائم
٢١ الصومال بين الهنثاهين وهويوود..... كريستيان شايد
٢٨ العقل العربي وإشكالاته..... رضوان جودت زكادة

القصاصد

٣٤ فزاعة الأقدام والورق..... محمد الهادي بوقرة
٣٦ لتوعية الطفل القتل..... محمد منذر العاني
٥٤ أحزان السبايل..... ياسر هيس الياسري

رحلة

٣٨ كذا في العراق - رحلة إلى بلاد التاريخ والجغرافيا المعركة..... محمد إبراهيم الحاج صالح

القصص

٤٦ دور الليل..... عاطف علوي
٩٩ كتاب الخبز والنسي..... عبد الإله عبد الوفاق
١٠١ فلسفة التنازل..... الأزهر الصحراوي
١٠٣ الحفلة..... منار إدريس

المظف وصحور الشر..... إهداء سماح إدريس، أحمد الخميسي،

ماجد السامرائي، عبد الحق الجيوش

٥٥ تقديم..... من:
٥٦ النص التحتي في محور الشر..... أحمد الخميسي
٦٠ حوار مع محمد تاج الدين الحسيني حول محور الشر..... محمد تاج الدين الحسيني
٦٩ كوريا الشمالية: بين مطرقة محور الشر
وستاند العلاقات الأميركية - الصينية..... ريمون ماهر كامل
٧٣ أبعد من إيران، محور الشر صنعته أميركية بشكها الفوعة..... أحمد منيسي
٧٨ السياسة الأميركية حول محور الشر في ضوء القانون الدولي..... ياسين يوسف
٨٢ الاستراتيجية الأميركية تجاه محور الشر مثال العراق..... أحمد التهامي
٨٦ جريمة بحق الإنسانية، تدمير مجلس الأمن للعراق مستمر منذ ١٩٩١..... عمر كشابة
٩١ هوس الشر في بسوق الجحيم الأميركية..... لطيفة الدايبي
٩٧ أرقام الآداب..... إسماعيل فهدش

قرات الخلق الماضي من الآداب

١٠٩ لم نقرأ مثله منذ اندلاع الانتفاضة الثانية..... صفير ابو فخر

أبواب متفرقة

١١٠ فسحة قصيرة قبل أن تنكسر الأحلام..... عربي حر
١١٢ بريد الآداب



المملكة المضطربة

التعاطف والجهود في تحالف آل سعود

• اسعد أبو خليل •

الالتزام السياسي في السعودية، فكانت لنا نظرة عنصرية إلى أهل الخليج، حتى ظننا أنهم كلهم على شاكلة بعض امراء النفط ... في حين كانت للجيتمعات الخليجية دائماً تفلي تحت السطّح، وكانت حركات المعارضة السعودية اليسارية والقومية والإسلامية ناشطة منذ الستينيات^(١) بل وجريئة إلى حدّ التهور. وناصر السعيد (مؤلف كتاب تاريخ آل سعود، وهو كتاب من دون دار نشر إذ قلّة من دور النشر تجرؤ على نشر نقد لآل سعود) انتهى سجيناً في أقبية رعا عصابة أبو الزعيم في بيروت، الذي سلّمه إلى المخابرات السعودية. لكن ياسر عرفات قد يكون استفاد من هذا التسليم، فلننظر: فهو مصابٌ بضعف شديد تجاه أنظمة الخليج، ولا يضافه أحدٌ في مماله حكام تلك الأنظمة وتأمّلهم.

العلاقات السعودية الأميركية: خلفية تاريخية

بدأت العلاقات السعودية - الأميركية في التطور السريع بعد الحرب العالمية الثانية. فالولايات المتحدة بدأت حينها عملية تسلّم إرث الإمبراطورية البريطانية.

الصحافة الأميركية عن نشر مقالات تتلذذ الحكم السعودي، الذي كان - ولأشهر خلت - نموذجاً يُحتذى للاعتدال والأكران. إنّ الخلافات بين أجنحة العائلة المالكة الذكرية مستعرة، وقد سارع وليّ العهد إلى إرضاء من عيّر عن غضبه على نظامه؛ وهذا ما يفسّر مبادرة الأمير عبد الله (الاتسحاب مقابل التطبيع) في عز استخدام القمع والقتل الإسرائيليّ. فهل يصبح الأمير عبد الله خير منظر لآريل شارون وللحكومة الأميركية في أن؟ ولكنّ تطيل مبادرة الأمير عبد الله في الإعلام العربيّ مصابٍ بثلاث أموال النفط السعودي، التي أحكمت سيطرتها على معظم مصائد هذا الإعلام منذ حرب العراق، باستثناءات قليلة أبرزها جريدة القدس العربيّ ومحطة الجزيرة التي تتعرّض لضغوط أميركية لا تتوقف.

لقد تغيّرت العلاقات الأميركية - السعودية منذ أحداث أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١. فمن كان يتوقّع أن تتصوّر قوائم «الإرهابية» الأميركية (أسماء سعودية) في العام ٢٠٠٢ بل نحن يدورنا، في المشرق العربي، لم نأخذ على محمل الجدّ عمق

محتى متى لا نرى عدلاً نُسر به ولا نرى لولا الحقّ أعوانا مستمسكين بحقّ قاتنين به إذا لئّن أهل الجور الوانا يا لرجالٍ لدام لا دواء له وقائدي عى يفتاد عميانا مسلم بن يزيد العدوي

تقديم: ماذا يحدث لآل سعود؟

ماذا حلّ بال سعود؟ ماذا ألقى راحة العائلة المالكة السعودية وقض مضاجعها؟ ماذا تعترى أوصال العائلة أشجاراً وهوامس لم تعرّفها من قبل؟ وماذا حدث لعلاقة الصّ والهيّام بين الحكومة الأميركية والحكومة السعودية؟ يبدو أن بياراً ما كان يُعرف بالتحالف الوثيق بين الطرفين، والذي دعا الولايات المتحدة إلى التفاوض عن خروقات حقوق الإنسان في المملكة، يتداعى باستمرار. ووفقاً لاستطلاع أجرته شركة غالوب ونُشر في شهر شباط (فبراير)، يحتفظ الرأي العامّ الأميركيّ بصورة سلبية جداً عن السعودية (بنسبة ٥٣٪). ولا تتوقف

٤ - أستاذ العلوم السياسية في جامعة ولاية كاليفورنيا - ستانفورد، وباحث في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. مؤلف كتاب **بين الأمن والإسلام والحرب الأميركية ضدّ «الإرهاب» الصادر حديثاً عن دار نشر سقر كورنيز.**
١ - انظر كتاب **Fr Arabia Without Sultans**، الصادر عن دار نغوين عام ١٩٧٥.

كما أنَّ الحرب الباردة عزَّزت من مكانة المملكة، التي اعتنقت ولائزال تستنق العقيدة الرجعية بكلِّ عناصرها، ولاسيَّما في ما يختصُّ بمقتل كلِّ ما هو تقدُّميٌّ ومتنقِّزٌ، وكلِّ ما هو شيوعيٌّ طبيعيٌّ. صمَّح أنَّ تقارير المخابرات الأميركية تشير باستمرار إلى ضعف بعض أفراد العائلة الحاكمة أمام المُلذَّات^(١)، ولكنَّ الملك فهد هو «خادم الحرمين»، وهو نفسه الذي صنَّع في بداية الثمانينيات مشروع أول احتفال عربيٍّ رسميٍّ بإسرائيل - وفي هذا ما يسرُّ الحكومة الأميركية.

كان عاملُ النفط هاماً جداً في سيروزة هذه العلاقات، فالخزير السعدي يوق أيَّ مخزون نفطيٍّ آخر، كما أنَّ نوعيَّة الغام السعدي لا يضاهاها خامٌ آخر^(٢). وتحوَّلت شركة أرامكو إلى هيمنة استعمارية داخل المملكة تسبَّب اموراُ تُعنى بالنفط وغير النفط؛ ولم تُشكَّ عائلة سعود من هيمنة تلك الشركة إلَّا بعد عقود، حين تحوَّلت سيطرة أرامكو إلى مسألة سياسيةٍ مرجحة. وارتاح الحُكام في المملكة إلى الإدارة الأميركية لشؤونهم ماداموا قادرين على الإنفاق للبُئر في شئني أمور الحياة.

إثناء الحرب الباردة استطاع الحُكم في السعودية إدراج المملكة في الأخطبوط الأميركي على أساس معاملةٍ حسابيَّة بسيطة، حصلت العائلة المالكة بموجبها على تمهُّد بحماية أميركا لأمنها (لا لأمن المملكة) مقابل خدمات اقتصادية وسياسيَّة جيمة. واستطاعت الحكومة السعودية أن تُخْطِط في معركة أميركا ضدَّ الأنظمة الشيوعيَّة، مخافة أن تطول الثورات أرض المملكة. واستعانت الولايات المتحدة بـ «إسلام» للملكة القابل للتصنيف كي تُكرِّز بديلاً محلياً «اصلياً»، مقابل الإيديولوجيَّات السياسيَّة السائدة آنذاك. واستطاعت حكومة المملكة أن تشكِّل تنظيمات ومقررات وهيئات تروِّج إسلامها رسمياً، كي تُجَهِّض تصاعد الحركات اليسارية والقوميَّة التي شكَّلت تهديداً مباشراً لحكم الملوك والأمراء في منطقة الخليج. فقد كان تنامي المدِّ القوميِّ واليساريِّ كبيراً إلى درجة أنَّ الأمير طلال بن عبد العزيز (وهو والد الأمير الوليد بن طلال) انشقَّ عن عائلته وانضمَّ إلى الحكم الناصريِّ في القاهرة، مع أنَّ هذا الأمير يحاول اليوم

أن يتناسى تلك المرحلة أو أن يُزعم أنَّه كان مسيئراً ضدَّ إرادته من قبل نظام عبد الناصر^(٣).

واستمرَّ التعاون السعدي - الأميركي طيلة الرحلة الحرجة إثناء المدِّ القوميِّ الناصريِّ الذي زعزع غير عرش عربيٍّ، لكنَّ عبد الناصر كان مُتخففاً بالهزاج بعد حرب ١٩٦٧ (التي سمَّاها خطَّة «الكسة»)، فعلا النظام السعدي ويطلب بمساعدات ماليةٍ مقابل تولُّف الحملات المصريَّة الإعلاميّة ضدَّ «الرجعيَّة» ورموز الاستعمار الغربيِّ. «كما أنَّ الشعان السعدي - المصري كان مرجحاً أيضاً ضدَّ المقاومة الفلسطينية الصاعدة التي نظَّرت لنمط «التوسط» أيَّ لجرِّ الأنظمة العربيَّة إلى حرب لا تريدها مع إسرائيل، بغية تعبئة الشعوب العربيَّة وتجييشها. وهذا المنطق يعارض لانسحاق الأنظمة التي تصرُّ منذ عقود على «اختيار زمان ومكان» الحركة - والشعوب منتظرة؛ ولا ندري لماذا يصبح مكانُ الحركة موضعَ تساؤلٍ، إلَّا إذا كانت الأنظمة الموهوبة تحضُّر لحرب ضدَّ إسرائيل...»^(٤) الصينا

استفادت العلاقات السعديَّة - الأميركية من وفاة عبد الناصر، التي انتهت ما سمَّاه

١ - Bob Woodward, Veil : The Secret Wars of the CIA, 1981 - 1987 (New York : Simon & Schuster, 1993).

٢ - Daniel Yergin, The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power (New York: Simon and Schuster, 1991).

٣ - انظر حديثه إلى محطة الجزيرة، وهو منزعج على موقع الإنترنت التابع لها.

صديق جلال العظم «الحقبة السعودية»^(١) وتعاونت للخبايا السعديّة التيّام كمال ادمع مع النظام المصريّ. ولا تزال جاهلين (وجاهلات) بحقيقة الدور السعوديّ في التحضير لزيارة السادات إلى إسرائيل، وهي الزيارة التي لم نقتد من معاناة ويلائها إلى اليوم.

تركي ويندر والدور السعوديّ المتجدد

في عهد رونالد ريغان تغيّرت العلاقات الأميركية - السعودية، خصوصاً بعد الاجتياح السوفياتي لأفغانستان. فالحكومة السعودية أرتأت يومها - بعد أن تخلّست (إلى غير رجعة) من إزعاج الحركات اليسارية والانظمة المسماة زوراً بالثفميّة - أن تتجاوز الخلاف العابر مع الولايات المتحدة بعد حرب ١٩٧٢، وما تخلّطها من قطع سعوديّ رمزيّ للنفط لتهدئة أصحاب الجمهور العربيّ الغاضب. وتمكّن منري كيسنجر، بعد زيارة واحدة إلى الملكة، من الحصول على إعادة ضخّ النفط السعوديّ الخام، مذكراً العائلة بألقاها مع الرئيس فرانكلين روزفلت.

وهو اتفاقٌ تقديم الحماية الأميركية مقابل النفط والولاء السعوديين - بل الكثير من الاثنين الآخرين.

وجاء حكم الرئيس ريغان في وقته، من منظور العائلة المالكة. فكلام سلفه جيمي كارتر (الفارغ) عن حقوق الإنسان، وهو الذي لم يَسعَ إلى حمايتها إلا في الأنظمة التي يَسْهَلُ التهجّم عليها مثل نظام كوبا، لم يثير الارتياح في قلوب آل سعود. ذلك أنّ عبارة «حقوق الإنسان» تتناقض مع البنيان الإيديولوجي للنظام السعوديّ.

وكيف يمكن الحديث عن حقوق الإنسان في مكان لا يُسمح فيه للنساء بحريّات دنيا؟ هذا مع العلم أنّ رجال السعودية هم أيضاً محرومون من أبسط الحقوق - واسألوا ناصر السعيد عن ذلك، هذا لو كان حيّاً يُنذَق.

كان رونالد ريغان مصاباً بهوس الخطر السوفياتي وإمبراطوريّة الشرّ (ما الذي يُفسّر هوس أكثر من رئيس أميركيّ بـ «الشرّ»؟). وكانت السعودية يومها في طور إنشاء جهاز مخابرات متطور بعد أن كان الرئيس السابق لجهاز المخابرات يتعامل معه كرفيد لشخصه الكريم. أما

خليفته الأمير تركي الفيصل (حامل شهادة العلاقات الدوليّة وسياسة الشرق الأوسط من جامعة جورجتاون) فكان جديّاً في بنائه جهازاً مخابراتياً حديثاً يُعتمد على التحليل والتجسس، على غرار أنظمة الاستخبارات الغربيّة.^(٢) وبموازاة الأمير تركي وإصلاحاته، كان للسعودية يومها سفيرٌ جديّ في الولايات المتحدة هو الأمير بندر بن سلطان. والأمير بندر خريج المعاهد العسكريّة الأميركيّة، حامل شهادة في العلاقات الدوليّة من جامعة جونز هوبكنز.

وسرعان ما عيّن رونالد ريغان شخصاً غريب الأطوار هو ويليام كاييسي، الذي كان سبأاً في إعلانه حرباً عالميّة ضدّ الإرهاب، مديرّاً لوكالة الاستخبارات الأميركيّة. وويليام كاييسي، هذا اليميني المتطرف، لم يُعزّ حقوق الإنسان أيّ اهتمام: على العكس، كان مثله مثل صديقته السفيرة المسابقة جين كيركباتريك، التي قالت إنّ الديكتاتوريات اليمينيّة مؤاتية جداً للمصالح الأميركيّة، وإنّ علينا التعامل معها من موقع الحليف.^(٣)

١ - صادق جلال العظم، سياسة كارتر ومتطوّر الحقبة السعودية (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٧).

٢ - من الغاذ أحداث ١١ أيلول التي لم تُحلّ، والتي مستزدة من خصب نظريّات المؤامرة، إنّ الأمير المذكور استقال، أو أُقيل، من منصبه قبل أيام فقط من الأحداث.

٣ - Jeanne J. Kirkpatrick, Dictatorships and Double Standards: Rationalism and Reason in Politics (New York: Simon and Schuster, 1982).

في هذه الحقبة بالذات كانت السعودية عبر الأمير بندر تخوض غماراً معارك طاحنة في الكونغرس من أجل الحصول على كميات هائلة من الأسلحة، ويميل إلى طائلة لم يُستَشرَّ الشعب السعودي في شأنها، وقاد الحملة السعودية الدبلوماسية في أروقة الكونغرس الأمير بندر، الذي اضطرَّ إلى مواجهة معارضة عنيفة من اللوبي الصهيوني، ومن إعلام موالٍ لإسرائيل لم يتورَّع عن الصديح للسهب عما اعتبره فساداً في أوساط آل سعود. وتُشَرِّف كاتبٌ كان مجهولاً يومها ويُدعى ستيفن أمرسون كتاباً عنوانه *The American House of Saud* فصل فيه الحملة النفطية الإعلامية الموالية للنظام السعودي في الولايات المتحدة بالتعاون مع شركات النفط العملاقة^(١).

وفي مواجهة حملة معارضةٍ للسعودية ركزت يومها على حالة عدم الاستقرار في الخليج، وعلى ديمومة الاعتماد الأمريكي على إسرائيل قوةً استراتيجيّة في منطقة الشرق الأوسط، بدأ الأمير بندر بالترويج

للدور السعودي حليفاً استراتيجياً للولايات المتحدة، لا يأنَّ نَظْمُها فحسب. وشارك في هذا الترويج الأمير تركي بن فيصل الذي أنشأ وتولَّ وجنَّد ما نسميه اليوم «الأفغان العرب». وكان حليفه آنذاك ثريٌّ سعوديٌّ شابٌ اسمه أسامة بن لادن. وقد التقى الأمير تركي الشاب بن لادن مرارعةً، بشهادة تركي نفسه.

أقام الأمير بندر علاقاتٍ خاصةً بالتحفة السياسية الأميركية، وألَّحَّ عَمَهُ الملكُ فهذا (الموالي) دوماً للولايات المتحدة بضائده تمويل المغامرات والمشاريع الأميركية السريّة.. الأمر الذي أنخل السعودية في عمليّة تمويل عصابات «الكونترا» البيديّة في نيكاراغوا^(٢) بالإضافة إلى مشاريع مشتركة في الشرق الأوسط. وهذا لا يعني أنَّ الولايات المتحدة غيّرت من نظرتها إلى مصالحها في الشرق الأوسط، التي على أساسها تقال إسرائيل خطورةً لا مثيل لها. وما إنَّ بيع الأسلحة الأميركية إلى السعودية تآني مشروطاً بوثاق، بل هي - في عرف الأميركيين على الأقل - ضماناً لإسرائيل لأنها رسمياً مبتغاة ضدَّ أعداء

عرب ومسلمين فقط. كما أنَّ «المستشارين» العسكريين الأميركيين يأتون مع شحنات الأسلحة بهدف إمارة الخيرات وإعطاء «المشورة»...

السعودية بعد حرب الخليج الثانية
عادت حرب الخليج الثانية على الولايات المتحدة بفوائد جمة. فبالإضافة إلى نشر قوات أميركية في طول منطقة الخليج وعرضها، وبالإضافة إلى فرض حوَّز باهظة على أنظمة الخليج التي اضطرت تحت طائلة التهديد والوعيد إلى تحمّل كلّ نفقات الحرب الأميركية، حولت الولايات المتحدة علاقاتها بدول الخليج إلى علاقةٍ بمحميات، على غرار الوضع الذي كان سائداً قبل فترة «الاستقلال» الشكلي.

ومرضت الحكومة الأميركية على الحكومة السعودية عقب غزو العراق للكويت إصداراً دعوى رسميّة للقوات الأميركية لتقديم إلى الملكة بعد عمليّة تخويف أوعدت مفاصل العائلة باللكة^(٣) ثمَّ شباب العلاقات بين البلدين التوتُّر،

١ - عاد الكاتب أمرسون نفسه إلى الظهور في التضييقات خبيراً مرموقاً لـ «الإرهاب» نافذاً سمومه ضدَّ الإسلام والمسلمين والمسلمات في كتاب صدر مؤخراً تحت عنوان *American Jihad*.

٢ - أقيم السفير السعودي في الولايات المتحدة مستشاراً الأمن القومي الأميركي للسيد ماكفران أنَّ الملكة ستخصص مليون دولار شهرياً لدعم الكونترا. وهذا ما حصل. راجع: <http://www.webcam.com/pinknoiz/convert/stip.html>

٣ - Bob Woodward, *The Commanders* (New York: Simon and Schuster, 1991).



الأمير بندر بن سلطان (باليمني والعربي): علاقات خاصة بالخدمة السياسية الأميركية

التي تتعامل معها السعودية في تحقيقها الأمنية، خصوصاً إزاء انفجار الخبر في السعودية عام ١٩٩٦، الذي تصرّ الولايات المتحدة على أنه من صنع إيراني، ويتوقع من حزب الله السعودي، ويبدو أن المملكة كانت خائفةً آنذاك من الغوص بعيداً (في العلن على الأقل) في التحقيقات الأمنية خشية التصريح بمشاكل أمنية واجتماعية وسياسية في البلاد. لكن الإدارة الأميركية كانت قلقة من تنامي القدرة العسكرية لبن لادن، ولم تجد تعاريفاً «كافية» من طرف السلطات السعودية، والتعاون الكافي في الهجوم الأميركي لا يأخذ في الاعتبار مقاييس السيادة الوطنية، فقد أرادت الحكومة الأميركية، مثلاً، التحقيق بنفسها مع معتقلين سعوديين، غير مكتفية بالتقارير الوافية التي كانت تقدمها بها السلطات الأمنية في المملكة.

العلاقات بين البلدين بعد أحداث ١١ أيلول

وجاءت تفجيرات ١١ أيلول (سبتمبر) لتُقلب الأمور رأساً على عقب. وتكرت الصحافة أن مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت توصل إلى جنسية خاطئي الطائرات الأميركية الأربع في ١١ أيلول بعد ساعات فقط من حدوث هذه

العلاقات السعودية - الأميركية قبل أحداث ١١ أيلول

لم يكن اسماهما بن لادن غريباً عن حكام المملكة. فهو بنى علاقةً خاصةً ورسميةً بالكثير من أفرادها. وكانت علاقته بالأمير تركي تحديداً علاقةً للحدّ أثناء محاربة السوفييات. كما أن مسئلة بالعائلة المالكة قوية، حتى إن الأمير عبدالله أقرّ بأنه التقى بن لادن مرّة على الأقل^(١) وكانت من اللشمة بحيث استطاع الاجتماع بوزير الدفاع الأمير سلطان إثر الاجتياح العراقي للكويت. وفي هذا اللقاء، عرض بن لادن على سلطان تشكيل جيش من المتطوعين المسلمين لدمر الجيش العراقي، من دون الاستعانة بقوات «الكفرة الأجنبية». طبعاً لم يكن هذا اللقاء مشمراً، لكنه أزعج لبدء الشرح في علاقة بن لادن بال سعود، ولبده حرب جديدة يشنها بن لادن ضدّ الولايات المتحدة وضدّ آل سعود أنفسهم في داخل المملكة. وهناك في السعودية أوصالاً لحركات معارضة متعدّدة، لكن يبدو أن اسماهما بن لادن استطاع تشكيل عناصر سرّية تمكّنت من ضرب مواقع عسكرية أميركية وسعودية هناك.

لقد كانت العلاقات السعودية - الأميركية في الظاهر حسنة قبل تفجيرات نيويورك وواشنطن. لكن قيادات أمنية وعسكرية أميركية لم تُظهر امتعاضها من السرية

وذلك بعد ظهور خلاف في أوساط الأميركية في شؤون البلاد والعباد. ووجدت العائلة المالكة نفسها في ورطة زادت، بدلاً من أن تقلّل، من مشاكلها الداخلية. فقد أصبح الملك فهد موضع انتقادات وتهجم لإباحته أرض الجزيرة لقوات تُعتبر من منظور المذهب الرسمي للبلاد قواش كاسرةً وجائرةً. وازدادت حدة المعارضة الشعبية (وهي إسلامية في منحائها) بعد أن تدهور الاقتصاد السعودي، وازداد العجز في الموازنة، وتفشّت البطالة، في الوقت الذي لم يتقلص فيه حجم الفساد. ووجدت العائلة المالكة أن العائدين من أفغانستان (وهم خريجو «معهد» الأمير تركي لخدمة مصالح الولايات المتحدة في الحرب الباردة) اكتشفوا عدواً جديداً لهم كامناً بين ظهرانيهم. والعدو الأميركي هذا وقع معهم: فهو لا يتكفي بالتعامل مع أرض المملكة كأنها غطاءً مباح، بل يقرّض على ضيفه شروفاً سياسياً، ويحاول دفع حكام المملكة إلى سلام مع إسرائيل. وبالطبع وجدت العائلة المالكة نفسها في مأزق: فهي تحاول إرضاء الولايات المتحدة من دون إغضاب الجمهور السعودي.

التفجيرات، وأنه اكتمل بسفير السعودية الأمير بندر دلف، الفيل، طبعاً، هناك في العالم العربي والإسلامي من لا يزال يشكك في الرواية الأميركية حول هوية الضافقين. كما أن وزير الداخلية في المملكة، الأمير نايف، أصدر طوالت أسابيع على أن ليس ثمة دليل إطلافاً على تورط من زعم أن هويتهم إسلامية.

ولم تمض أيام على أحداث ١١ أيلول حتى ابلى الاصلاح الأميركي ببلوه، وبدأت حملة إعلامية وسياسية أميركية لا مثيل لها ضد السعودية. صحيح أن الإدارة الأميركية تنصت رسمياً من الحملة السليبية ضد آل سعود، لكن مصادر رسمية لم تتوقف عن تسريب ما اعتبرته معلومات شخصية عن الحياة الخاصة لأفراد في العائلة الحاكمة. ونشرت مجلة ذا نيويوركركر في اعدادها في شهري ايلول (سبتمبر) وتشرين الاول (أكتوبر) مقالات لسيمنون هيرش الوثيق الصلة بمصادر داخل وكالة الاستخبارات المركزية. وكانت المجلة نفسها قد نشرت قبل أكثر من سنة مقالة تضمنت هجوماً شديداً من قبل مصممين في مكتب التحقيقات الفيدرالي على سببه إدارة الحكومة السعودية للتحقيقات في انفجار الخبر.

والحق أن الحملات الإعلامية ضد السعودية لا يمكن فصلها (ويصرف النظر عن موقفنا من الحكومة السعودية) عن موجة البغض والعداء لكل ما هو عربي وإسلامي. وتناغمت أيدوا اللوي الصهيوني مع الحملات الإعلامية لتقتل أعضاء نافذين (ونافذات) في مجلسي الشيوخ والنواب في أميركا. وشملت الحملة في ما شملت تخطاً سافراً في شقون تعتبر خاصة بكل دين وكل دولة. حتى أن رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ السناتور جو باينز تحدث ويدين حرج عن ضرورة تغيير مناهج التدريس في المدارس الإسلامية مع أنه لا يمكن تصوّر يوم يتحدث فيه أعضاء في الكونغرس عن تغيير مناهج التدريس في مدارس يهودية أو مسيحية. والحال أن هناك صلة وثيقة بين العداء العنصري للإسلام من جهة، والأصوات التي ترفع إلى تغيير المناهج من جهة ثانية. وهذا بالطبع لا يتناقض من صوابية الطلعة في المجتمعات العربية والإسلامية. لا العلة الانتقائية التي ترى ضرراً وتخطأ في الإسلام في الوقت الذي تصول فيه وتجوّل الأصوات المسيحية واليهودية في العالم

باسره من دون أن تصدر أصوات العلة للزعومة^(١) لكن أصحاب الصلة الأميركية، كعادتهم، يقيسون بمقياسين وبمعايير الانحياز الطائفي والسياسي الصارخ.

خسيت الحكومة السعودية من تنامي هذه الأصوات، خصوصاً وأن صحيفتي نيويورك تايمز والسنطن بوست أفردتا صفحات وافية للتهجم على النظام السعودي - وهو نظام يستحق النقد طبعاً، لكن كلام الغرب هذه الأيام يتخلل في خاتمة ما قاله علي بن أبي طالب عن شعاع الخوارج: «كلام حق يرد به باطل». ونحن نؤسس فريدمان، وهو معلّق سطحي حظه بشعبية كبيرة في كتابه عن الشرق الأوسط والعلة لأن كليهما سطحي وبسط ويلي بالشعارات التي تدغدغ المشاعر، حملة شعواء ضد السعودية، لا بل ضد العرب والإسلام أيضاً^(٢). ودعا فريدمان إلى حربٍ ولا ضد الإسلام بل داخل الإسلام، على حدّ قوله غير مبرر. وهو يتكلم الله مقروء من قبل الساسة العامة على حدّ سواء.

استفترت أجهزة الاعلام الدعائي التابعة للملكة. حتى أن الأمير بندر، وهو بعيد عن

١ - إن دور المؤسسات الرسمية المسيحية، بل والسنة البابوية نفسها، موثق ومعروف إزاء أحداث وحروب عبر التاريخ. وقد وثق كتاب بابا هنر تعاليف البابا بيوس الثاني عشر مع التاريخ. انظر: John Cornwell, *Hider's Pope: The Secret History of Pius XII* (New York: Viking, 1999).

٢ - إشارة إلى أن مجلة «الهرى بالغرب» LBC تستضيف هذا الرجل مراراً، للاستفادة من شخص حكي!

الأضواء عادةً، تحدث إلى وسائل الإعلام للتعبير عن الاستنكار السعودي الرسمي للإرهاب ضد أميركا والتأكيد على الغضب السعودي على بن لادن. ويعد الأمير عبد الله بمستشاره للأمن القومي، عادل الجبير ذي النجم المصاعد، الذي لم يتوَلَّفَ يوماً عن الدفاع المستمر عن مصالح العائلة المالكة منذ أيام دراسته الجامعية في واشنطن (وقد كان زميلاً لي)، ويملك الجبير الجناح الأكثر مناصرة للولايات المتحدة في المؤسسات السياسية السعودية، وهو ما يساعد على تجميل صورة الأمير عبد الله الذي يُصور على أنه قومي عربي ومعار للولايات المتحدة (وكان معارضة الولايات المتحدة مسموح بها في داخل العائلة المالكة). وقد رخصت السعودية، في محاولة لتلميع صورتها، للضغوط الأميركية أو لنصائح اللوامر الأميركية - لا فرق. وبقدرة قادر، انقلبت المواقف السعودية الرسمية: فالأمير سلطان، مثلاً، وهو زعيم الدفاع في المملكة، كان قد صرَّح في شهر أكتوبر (تشرين الأول) بأن أراضي المملكة وقواعدها لن تُستعمل لضرب أي دولة. وكانت الولايات

المتحدة الأميركية قد سرَّبت إلى وسائل الإعلام الأميركية خبر معارضة الحكومة السعودية للاستخدام الأميركي للقاعدة الأمير سلطان الجوية في حربه ضد أفغانستان. وسارعت الصحافة الأميركية إلى اتهام العائلة المالكة بالجهود والتحذير وإهانة للمشاعر الأميركية. وهو ما أدَّى إلى الاستخدام الأميركي للقاعدة المذكورة... هكذا، من دون إعلان، ومن دون طلبة ورثة! في مواجهة الصلعة الأميركية لم تدبر الحكومة السعودية ما تفعل سوى استخدام شركات العلاقات العامة العملاقة التي تُفلق عليها السفارات السعودية في واشنطن مبالغ طائلة. فابتناسعت هذه الشركات مساحات واسعة من الصحف الأميركية، الشعبية والنضوبية، وكلفة باهظة تقدر بعشرات الآلاف من الدولارات. وأُنزجت إحصاءات عن تطور المملكة الاقتصادية، وعن متانة تحالفها مع الولايات المتحدة، وعن اعتدالها، وعن حكمة الملك فهد. وكان قد سبق للأمير خالد بن سلطان قبل أكثر من عشر سنوات أن جال على الدول العربية والغربية عند التحضير للحرب ضد العراق، حتى تسمى للسعودية

السيطرة على معظم الدوريات العربية^(١) ومن الصعوبة بمكان الحصول على صحيفة عربية تتضمن انتقادات ضد السعودية أو مجرد معلومات عنها. ولكن الحكومة السعودية لم تستطع، بالطبع، ابتياغ الصحف الأميركية.

واستمرت الحكومة السعودية في محاولة إرضاء الولايات المتحدة عبر عدم السماح لأي انتقاد للحرب الأميركية ضد أفغانستان، وإسكات من نجحوا على انتقاد الدور الأميركي، وحاولت في مسألة المناهج نفسها إرضاء الحكومة الأميركية، إذ فجأة أعلن وزير المعارف السعودي محمد بن أحمد الرشيد أن حكومته قرَّرت تغيير المناهج الدراسية، كنه جزم أن هذا التغيير غير مرتبط بالثبته بالضغط الأميركي^(٢)

مبادرة الأمير عبد الله: نحو مزيد من الانبطاح

ولم تكفّر السعودية بهذا القدر من الانبطاح بل دعت - هكذا ومن دون مقدمات - الصحافي توماس فريدمان، وفريدمان هذا قد يكون أكثر الكتاب صفاقةً وقاحةً في الحديث عن الحرب والإسلام، وهو

١ - تشمل السيطرة على معظم الدوريات الصادرة في المهجر، بل إن إحدى الجلات التي تصدر في باريس، وكانت ثابتة في ولاتها المدبر لحكم صدام حسين في العراق، تحوَّلت بسحر اللال إلى بوق سعودي. يتم استنجان بعض الجرائد من مالكيها لكي تعبر عن وجهة النظر السعودية. وبقيت جريدة القدس العربي اللندنية - بين قلة قليلة من الدوريات - في مثنى عن سيطرة مال النفط السعودي.

٢ - جريدة الحياة، ٥ آذار (مارس) ٢٠٠٢.

معروفٌ بإلفائه اللوم على الفلسطينيين (وعدمهم) لما يجري في أرض فلسطين من قتل ونمار، وحظي السيد فريدمان بضياء خاص مع الأمير عبد الله. وبعد العشاء، وفي لقاء خاصٍ أيضًا مع وائى المعهد، اقترح السيد فريدمان - فهو أكبر من أن يوجه أسئلة كسائر الصحفيين - أن يبادر العرب إلى تقديم عرضٍ بالسلام والتطبيع الكاملين مقابل انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. وحوالاً على هذا الاقتراح ذكر وائى العهد السعودي أن فريدمان يبدو وكأنه يقرأ ما في ذهنه فقد كان الأمير قد وضع في «نرجسه» اقتراحاً مطابفاً لاقتراح فريدمان، وبما للمعجب! وأضاف الأمير أنه كان يُزعم التقدم بالاقتراح السعودي إلى القمة العربية في بيروت، قبل مجيء شارون إلى الحكم.

ونجحت هذه الخطة السعودية إلى حد ما؛ ذلك لأن الكونغرس الأميركي يقوم علاقاته بالأنظمة العربية على أساس استعدادها لإرضاء التبعات الإسرائيلية. ولم يكن غريباً، نتيجةً للنفوذ السعودي في العالم العربي، ونتيجةً للسلطة السعودية بين الأنظمة العربية، أن راحت الاسئلة العربية الرسمية والإعلامية على حد سواء تلوح بالثناء على الأمير عبد الله وحكمته

غير أن أي تقويم موضوعي لهذه المبادرة يجب أن يأخذ في الحسبان توقيتها، الذي جاء ليقدّم - كما ذكرنا - خدمةً جليلةً إلى الحكومة الإسرائيلية التي تواجه اليوم أكبر مأزق أخلاقي وسياسي منذ احتلالها الضفة والقطاع عام ٦٧. ذلك أن المبادرة السعودية أتت لتكرس اللامقلاق الإسرائيلي الذي يُلقى باللوم على العرب لما يجري من عنف في المنطقة. أي أن خطة الأمير عبد الله تتماشى مع الزعم الإسرائيلي بأن الحكومات الإسرائيلية فعلت كل ما في وسعها من أجل السلام والاستقرار، وأن الوقت قد حان ليقدم العرب مبادرة ما من أجل هذا «السلام». وهذا بالفعل ما أقدم عليه سموه، بالاتفاق مع السيد فريدمان الذي لا يريد للعرب والمسلمين إلا كل خير.

لكن هناك امرٌ مهمٌ في هذه المبادرة تتفاحس منه أجهزة الإعلام، الأميركيّة والعربية على حدّ سواء. فمن حقّ الحكومات العربية (قانونياً لا أخلاقياً) أن تجرّ إسرائيل باتفاقيات سلام، بل وأن توقع على هذه الاتفاقيات كما فعل عدد من الدول العربية. وكما يتحمى أن يفعل عدد آخر. فاتفاقيات السلام تُشكّل بين دول، ونحن في العالم العربي لا بدّ لنا في ما نُفعله حكوماتنا لأننا لا نختارها،

بل هي تختار نفسها بنفسها - ما شاء الله - وتبائع لنفسها ايضاً في استفتاءات باتت مضحكة عالمياً.

لكن مسألة التطبيع شيء آخر تماماً. فالتطبيع يقتني مرحلة ما بعد السلام، وهي مرتبة أعلى من مرتبة السلام؛ لأنها تُعني الهيماء والحب والغرام بإسرائيل. ومن حقّ حكوماتنا أن تقع في غرام إسرائيل، لكن لا حقّ (ولا قدرة لها) (أصلاً) على تقرير عواطفنا ومشاعرنا. فالشعب الأردني يغلي ويتظاهر ويؤفض للتطبيع، والحكومة المصرية فعلت ففشلت نريشاً في إحداث صالة تطبيع مع إسرائيل، بالرغم من الضغوطات الأميركية والمحالوات الصهيونية التي لا تتوقف، والنفقات والأجسادات والشخصيات المصرية عبّرت عن تضامن باهر مع الشعب الفلسطيني (والعربي عموماً) في رفضها القاطع للتطبيع^(١)

أماك من يعتقد أن الأمير عبد الله وأمواله تستطيع فعلاً أن تغرّر من مواقفنا الراضية للتطبيع، أماك من يعتقد فعلاً أن أموالنا النقط قادرة على تغيير المواقف اللبنيّة لنوريّات مثل الأرباب أو السفهين أو المستعجلين العربيين، يتكلمون وأن يتروّضوا، لكن رجال مخابراتنا وزبانية

١ - هناك كاتبٌ مسرحي واحد (هو علي سالم) يجاهر بسلامه وتطبيع مع إسرائيل، وهو شبيهٌ نموذجي للجمعية المصريّة، وإن كان يحظى بثناء وتأييد في الطبعوعات الإسرائيلية والأميريكية. انظر مجلة Middle East Quarterly، شتاء ٢٠٠٢.



الشيخ توماس فريدمان على الأمير عبد الله أن يبادر العرب إلى تقديم عرض بالسلام والتطبيع مقابل الانسحاب

بغية شراء الولاء والطاعة. وقد سخرت أجهزة الدولة السعودية كثيرًا من رجال الدين لخدمتها وخدمة مصالح العائلة (الم) يحل جعفر الصانع من أن: «لا دين إن دان بولايه إسم جائز»، فكافأت العلماء الجالين لها، واقتضت العلماء المعارضين لها أو رجت بهم في غياهب السجون. ومعركته تحرير المرأة تفوضها نساء السعودية ومناصروهن بصمت من دون اهتمام العالم الذي ينسب نفسه حرًا».

قد تكون سياسات هذه الملكة مضرة بمصالحنا نحن العرب، وبمصالح من يؤيد تحرير الرجل العربي والمرأة العربية من قيود التقليد والحكومة والأهوال الشخصية. ولحق أن شيئًا لم يضر بمصالح الملعة في عالمنا العربي مثلما أضرت بها إيديولوجية الدولة المصدرة والمطلبة، والتي أسقطتها فعل الإرادة لدى المراجع الدينية في غير دولة عربيّة... حتى إن هذه المراجع لا ترى هلال شهر رمضان إلا عندما تراه حقة السلطة في السعودية لكن الانتفاضة إن تنوَّفت، والتطبيع مستحيل. وسيبقى تحذير أمل دنقل ضدّ التصالح مع العدو أفعال في نفوسنا من مبادئ أحر جارات لتصالح على عروش من ذهب.

كاثي فورنيا

العائلة المالكة على تجلب الصعاب في المستقبل^(١) فالضغوط على الحكم السعودي تأتي في هذه الأيام من كل حدب وصوب. والعائلة في حيرة من أمرها: فكيف تحافظ على شرعيتها السياسية (وهي دينية مذهبية) من دون أن تصقّ الشرخ في علاقاتها بالولايات المتحدة؟ وكيف يُمكن أن تُمنع الفضائل والاضطرابات السياسي والاقتصادي في الوقت الذي يستمر فيه العجز في الميزانيّة، وتندلّ عائدات النفط (وجلبها لا يزال ممبئيًا في فساد أو صفقات أسلحة)؟ وكيف يمكن أن يستمر حكم الوراثة، وأوامر الأوامر مفككة؟ وهل تستطيع العائلة أن تستمر في قبول الشروط الأميركية من دون أن تُزعزع التحالف بين تلك العائلة والعلماء الوهابيين، وهو التحالف الذي أنشأه المؤسس مملكته على أساسه؟

كلّ هذه الأسئلة مطروحة بفعل الصدمة التي نتجت عن تفجيرات أيلول، التي أضرت بالمصالح السعودية مثلما أضرت بالمصالح الأميركية (ولأن كانت الولايات المتحدة نجحت أخيرًا في الاستفادة من المفاسد المروجة عبر نشر سيطرتها العسكرية حول العالم). ذلك أن النظام السعودي نظام يعتمد على نفقات حكومية مفرطة في كرمها

حكوماتنا يجسّسون واقع السيطرة السيكلوجية، صحيح أن لديهم القدرة على اقتحام منازلنا، وعلى إجهاد حقوقنا، وعلى استخدام التعذيب ضمتنا. لكن كل وسائل القتل والتعذيب الحديثة لا تستطيع أن تحتل مكانًا في قلوبنا؛ فهذه دائمًا حيث حُرّ لا تُدخله أجهزة المضاربات ولا تؤثر فيه. ولقد أثبتت السجون العربية فشلها في تغيير ميادين المعتقلين ومواقفهم، وإن نجحت في خلق حالة خوف شاملة وراثة. من المتوقع أن تلجأ أجهزة الإعلام الموالية للسعودية للدفاع عن مبادرة الأمير عبد الله وتصويرها قاب قوسين أو أدنى من فلسطين. وسيُسال حين غزير الحديث عن حكمه القيادات النفطية والخليجية. والاقلام الصحافية اللبنانية ستأق في هذا المضمار: فلا يموت أمير من أمراء النفط إلا وتُسمع ألقام الصحافة اللبنانية على عبقريه المرحوم، وعلى إعداده خطة مُفككة لتحرير فلسطين لو لم توافر اللبنة... هذا يصرف النظر عن أسباب الوفاة.

خاتمة: مستقبل آل سعود

ليس من المصادفة أن تُسرّب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تقريرًا غاية في السرية تشكك فيه في قدرة

المشروع القومي العربي في مواجهة الصهيونية

«الموقف» الذي يجب أن لا يُفْهَم

عبد الله عبد الدائم *

١ - مدخل

عندما يُقبل المرء على التصدي للصراع بين القومية العربية والقومية الصهيونية، تزدحم الماني في صدره، فلا يدري أيها يختار. ومع ذلك ففي بسعنا أن نُوجِز الموقف بالقول إن على القومية العربية أن تنطلق في صراعها مع القومية الصهيونية من حقيقة أساسية هي الآتية: القومية الصهيونية منذ نشأت، وعبر مراحل تطورها جميعها، قوميةٌ أسطورية خرافية، وقوميةٌ مصطنعة زائفة، وقوميةٌ عنصرية إثنية، وقوميةٌ عدوانية.

ومن هنا كان من الصعب أن نتوقع من إسرائيل، ربيبة الصهيونية، أن تتخطى ولو عن جانب من مطامعها العدوانية المرسومة... إلا إذا استطاعت القومية العربية أن تُشكل من القوة والوحدة والتأثير ما يُحمل إسرائيل على إعادة النظر في منطلقات الصهيونية، وما يجعلها تُترك من خلال المعاناة الواقعية أن هذه المنطلقات مستحيلة التطبيق، وأنها سوف تعاني جرأت هذه الخطيئة الأولية إذا هي لم تتخل عنها نهائياً.

غير أن تقري الأحداث يُكفّف عن أن سلوك إسرائيل كان وما يزال عكس ذلك. فكما عصفقت بها الأزمات ازدادت خرقاً على مصيرها، وازدادت من ثم عدواناً.

وإن يأتي اليوم الذي تتخطى فيه عن عدوانها، وتعيد الحق لأصحابه، إلا إذا أدركت إدراكاً عملياً أن السرب لن يستسلموا وإن غلبوا على امرهم إلى حين، وأن الزخم القومي العربي في تصاعد.

ولعل من البديهي أن نقول إن الذي أوصل القضية الفلسطينية إلى هذا المصير الذي نشهده، كما أوصل الأمة العربية إلى الصيرة والاضطراب، هو أن الحركة القومية العربية لم تكن في شئ من مراحل نموها وعملها في المستوى الذي تستلزمه مواجهة رزق الصهيونية وطامعها، ومن المؤلم أن نقول إن الصهيونية استطاعت، بدأها وعملها المنظم، أن تكلب خرافتها، خرافة الكيان الصهيوني، إلى حقيقة، ولاسيما في نظر العالم، وإن الأمة العربية، بسبب عجزها وقومها وتشتت أبنائها، هبطت بحقيقتها إلى مستوى للخرافة. وإذا استمرت الدول العربية خلال فترتها الطويلة، وإذا عجزت القومية العربية عن إعادة صياغة أهدافها ووسائلها - وعلى رأسها بناء الإنسان العربي المصمم على التضامن، والمالك لوسائله، والقادح على الارتقاء ببنية الأمة العربية إلى مستوى العصر - فإن تُلجج محارلات السلام نفسها مع إسرائيل، ولا أدل على ذلك من أن عقبة العدوان،

الراسخة في نفوس أبناء إسرائيل، قد فرضت نفسها على عملية السلام، بل تُكثف مفارقات السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين كلما تقدم الزمن عن عبوة مطردة إلى منطلقات اليمين الصهيوني المنطوق به ومن يبرز جدير لأكثر اتجاهات الصهيونية عدوانية منذ نشأتها - نغني الأتجاه الذي منه منذ البداية الزعيم الصهيوني جابوتنسكي، وعاد فمسه من بعده ورثته من أمثال بيغن وشامير وبنتانياهو وأخيراً لا آخرًا شارون، بل إن الجناح الإسرائيلي الذي ينهي أنه جناح السلام، وعلى رأسه شيمون بيرس فضلاً عن باراك، يزداد مع الأيام جنوحاً إلى المواقف العدوانية والتصفاً بقولات اليمين المنطوق. ولكي ندرك هذا كله، لا بد من العودة إلى منطلقات الصهيونية الأولى منذ نشأتها.

II - معالم السياسة الإسرائيلية من خلال منطلقاتها الصهيونية

١ - القومية الصهيونية قوميةٌ أسطورية خرافية. قامت الصهيونية على جملة من الأساطير التي حاولت من خلالها تزوير التاريخ اليهودي، وعلى رأسها أسطورة «الأرض الموعودة». وهنا نحصر على الإشارة إلى الحقيقتين اللتين كشفت عنهما أحدث الدراسات التاريخية

* مرثية ومفكر قومي، ووزير سابق، والبحث أعماله نصراً للحاضرة التي التفتها في المركز الثقافي بحلب.

بهذا الشأن. الأولى تؤكد أن التوراة - على نحو ما صاغها اليهود بعد حوالي خمسمائة عام من نزولها على موسى - لا يمكن أن تُعدّ كتاباً ذا قيمة تاريخية، وأنّ ما جاء فيها لا يعدو أن يكون أساطير الأولىين. والثانية تؤكد تهاوّت ما ورد في التوراة المزعّبة عن دولة أسسها إسرائيل وضّعها المؤرخون الصهاينة في مرحلة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخّر والعصر الحديدي (أي حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد). ويظهر كيف وإتلام إلى أنّ اورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن أكثر من مرتفعات صغيرة، وكانت أبعد ما تكون عن عاصمةٍ لمملكةٍ موحّدة شاسعة على نحو ما ورد في النصوص التوراتية المزعّبة. وهذا يعني «أنّ ما كان يُعتبر تقليدياً أروع التطوّر السياسي في المنطقة، وتُعدّ دولة داود وسلیمان القويّة، يختفي من الوجود نهائياً»^(١). ويبيّن الكاتب أيضاً كيف أدّى هذا التزييف إلى إقصاء تاريخ فلسطين القديمة وسكانها الأصليين، وكيف تقدّم المخططات الأثرية معلومات قيّمة حول الوضع السكاني والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي لدى السكان الأصليين لتلك

البلاد (أي الفلسطينيين)، بالإضافة إلى أنّ هذه اللطومات لا تُذكر شيئاً عن كيان اسمه «إسرائيل». ومن هنا يرى الكاتب أنّ الفلسطينيين اليوم قد تَناسوا التاريخ الفلسطيني القديم وتركوه لإسرائيل والغرب، وأنّ من اللازم استرداد ذلك التاريخ بعد أن تمّ إقصائه خلال القرنين الماضيين «نتيجةً للقبضة الضانقة التي أظهرها المتخصصون والمؤرخون والآثريون الكتائبيون، والتي تتحكّم في دراسة فلسطين والمشرق الأدنى القديم»^(٢). فقد بحث الباحثون الكتائبيون (التوراتيون) دائبين عن وجود إسرائيل للنادي بين خرائب الأرض وانهارها، ولكنّ ما عثروا عليه هو ما كانوا قد قرّروا مسبقاً أن يمشروا عليه، فعني إسرائيل شبيهة بالدول القويّة اليوم، وهكذا تمّ تقديم إسرائيل إلى العالم بوصفها دولة قويّةً بديعةً تُبحث عن وطن تعبر فيه عن وعيها القوميّ التليد والجديد.^(٣)

٢ - القومية الصهيونيّة قوميّة قسريّة مصطنعة زائفة. لعلّ أبرز ما تُكسّف به القوميّة الصهيونيّة أنّها وُلدت ولادةً قيصريّة، بل أكرهت الشعب اليهوديّ نفسه على غير ما كانت تريده

أكثره الساحة. وإنّ المرء ليجب ما الذي دعا الفئة الصهيونيّة القليلة العدد إلى ركوب هذا المركب الذي لم يكن يهود الشتات في حاجة إليه، ولا يُشمل لهم سوى الآلام والصراعات والمروء.

١ - اليهوديّة والصهيونيّة. ولا شك أنّ أول تساؤل يُطرح على البال في هذا السياق هو عن دور الدين اليهوديّ في تفسير هذه المهنة. وحسبنا أن نقول إنّ رجال الدين اليهوديّ (بإستثناء فئة نادرة) قد أكرّوا الحركة الصهيونيّة إنكاراً حاسماً يوم ظهرت على يد مرتزل عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧؛ واعتبروا الدعوة إلى عودة اليهود إلى أرض الميعاد، بإزادة بشرية لا إلهيّة، كفراً وفرطقة؛ وأروا في الصهيونيّة ثورة ضدّ الإله ونفيّاً لليهوديّة واستعجالاً «مسيحانيّاً» أو مسيحيانياً قبل أن تظهر الإشارات الإلهيّة الدالّة على ذلك.^(٤) ومن هنا الموقف السلبيّ الحاسم الذي واجه به اليهود وحاضاماتهم في ألمانيا رغبة مرتزل في أن يُقدّم المؤنّس الصهيونيّ الأوّل في مدينة ميونيخ الألمانيّة، فاضطرّ إلى عهده في مدينة بازل في سويسرا. يضاف إلى هذا كلّ أنّ الصهيونيّة كانت حركةً علمانيّة لا تتحدّث من الدين اليهوديّ

١ - ٢ - ٣ - كيث وإيتلام، تطبيق إسرائيل التوراتيّة: طلّس التاريخ الفلسطيني، ترجمة مدوح عدوان (دمشق: دار قدس)، ص ١٧، ٢٠، ٢٠٢.

٤ - أراجع كتابات توماس طومسون الذي أُرِد من الجامعة الأميركيّة التي يُعمل فيها بسبب كتابه التاريخ المجسّر للشعب الإسرائيليّ.

٥ - من أجل مزيد من التفصيل، انظر كتابنا: إسرائيل وهويّتها المزعّبة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٩٦).

مقوِّماً لها ومنطقاً، وإنَّ زعماءها البارزين - من أمثال مرتزل وجابوتنسكي ووايزمان وبن غوريون - كانوا مثّلين ولم يُخفوا إحاذهم. فمما نقرأه في مذكرات مرتزل: «لقد قلتُ للماخام الأكبر في لندن، كما قلتُ للماخام الأكبر في باريس، إنِّي لا أخضع في مشروعي الصهيوني لأيّ دافع ديني»^(١)، ومما يقوله في مكان آخر من تلك المذكرات: «لقد سألني آشر مايز: ما هي علاقتك بالتوراة؟ فاجبت: إنَّني مفكر حرٌّ، على أنَّه ناضُّ نفسه بعد ذلك وتبنَّى مواقف مزبوجة وملتبسة لأسباب عمليّة. هكذا نجد في خطابه الذي ألقاه في المؤتمر الصهيونيّ الأوّل في بازل عام ١٨٩٧ يقول بصريح العبارة: «إنَّ الصهيونيّة تعني العودة إلى الديانة اليهوديّة حتى قبل العودة إلى أرض اليهود». ومثله وأكثر منه فله بن غوريون، مؤسّس دولة إسرائيل، والقول الفصل في هذا هو أنَّ الدين أصبح على يد الحركة الصهيونيّة مجرد أداة للحركة القوميّة، تتلاعب بها وفقاً للظروف والأحداث. ولا شك أنَّ هذه اللّفة المربوطة قد ساعدت تدريجيّاً على تكاثُر أعداد المؤيِّدين للصهيونيّة لدى المتديّنين من اليهود.

غير أنَّ علينا أن نضيف إلى هذا العامل الذي ساعد على المزج بين الصهيونيّة

والديانة اليهوديّة عاملاً آخر، وهو ظهور محاولات فكريّة حاولت أن تخلّص الصلّة بينهما. وحسبنا الإشارة إلى المحاولة التي قام بها أبراهام إسحق غوك (١٨٦٥ - ١٩٢٥). ونحن إذ نتولّف قليلاً عند افكار هذا الماخام اليهوديّ الشهير فإنّنا نعمل ذلك لهيفئتين متكاملتين: الأوّل أن نبين كيف أتت افكاره وافكار أمثاله من رجال الدين إلى تخفيف العداء الذي نشب في البداية بين دعاة الصهيونيّة وممثلي المذاهب اليهوديّة الكبرى؛ والثاني أن تبين للتزييف الذي مارسته الصهيونيّة على اليهود أنفسهم.

ب - **كوك وتزييف الصلّة بين الصهيونيّة واليهوديّة.** لقد قام كوك، الذي أصبح أول حاخام اشكنازي في فلسطين، بتقديم تفسير جديد جزريّ وشامل للتاريخ اليهوديّ من أجل تحويل الأمل المسيحيّ السلبّي إلى أداة فعّالة لتحقيق التعاون بين هذه النزعة الدينيّة من جهة، والحركة السياسيّة المناهضة والمطامنة التي تمكّنها الصهيونيّة من جهة ثانية. وكان منطقاً في ذلك هو للتوحيد بين الديانة اليهوديّة وأرض إسرائيل، وتلكيّة أنَّ أرض إسرائيل جزء جوهريّ من كيان اليهود القوميّ ومن رسالتهم الروحيّة إلى العالم. على أنَّ أهمّ ما جاء به هو هجمته الحاسمة على صلّة التقاليد الدينيّة

اليهوديّة الذين استمروا الحياة في المنفى؛ ذلك أنَّ شعب إسرائيل والثورة وأرض إسرائيل كلّ لا يتجزّأ، فيما يرى، وقطع الصلّة بين اليهوديّة وإسرائيل يعني قطع جذور اليهوديّة. بل إنّه يُجِبُّ ممن يُهمّون ويكتفرون اليهود الذين يُفسّسون بحياتهم من أجل العيش في فلسطين لأشياء، إلّا لأنهم لا يمارسون الطقوس الدينيّة.

وهنا يلجأ كوك إلى حيلة من الحيل الدينيّة التي يمج بها تاريخ اليهوديّة، وقوامها قوله إنَّ الدافع الحقيقيّ لأفعال الإنسان قد يخفى من فاعلها. وهذا الأمر ينطبق في نظره على الرّواد الأوائل للصهيونيّة، فقد يظنّون أنّهم مدفوعون بدوافع سياسيّة علمانيّة، في حين أنّهم في حقيقة الأمر يُشكّلون من خلال الإطار الكونيّ للإرادة الإلهيّة لكن أعمالهم جزءاً من حركة الخلاص الإلهيّ. وعنده أنَّ هؤلاء الأشخاص يُمكن أن يُستَعمروا في ظهور المسيح، حتى ولو لم يكونوا يؤمنون به.

وهكذا يُضحي كوك في هذا التزييف، على الرّغم من أنّه يُربط بينه وبين بعض افكار هيجل حول «حيث العقل»، كي يُخصّص إلى أنَّ معارضة القويّة الصهيونيّة والحدّ من قبحها أمران غير جازئيّين لأنّ روح الله وروح إسرائيل (يعني القويّة الصهيونيّة) شيء واحد، وجملة القول عنده أنَّ



أصبح لعين على يد الصهيونية وممكيتها - أمثال هرتزل وجابوتنسكي - مجرد أداة للحركة القومية

ولاستيما بعد الثورة الفرنسية، وبوجه خاص بعد نابليون وقوانينه الجديدة التي منحت فيها لليهود امتيازات خاصة. وهو تطوّر فتّح الباب واسعا أمام اليهود للحياة حياة كريمة في المجتمعات الغربية التي كانوا فيها. وهذا شاهد آخر على ما في الصهيونية من عنصرية تجعلها عاجزة عن التعايش مع سواها، بل تجعلها تبحث عن السيطرة على سواها وعلى العالم.

ولا حاجة إلى القول إن ما آل إليه وضِع اليهود بعد خلق دولة إسرائيل يبيّن أن الصهيونية - نتيجة لطموها هذا - جعلت الشعب اليهودي اليوم في ملزق، سواء في داخل إسرائيل أو خارجها، وأن حلما لم يتحقّق وأن يتحقّق، وحلّت محله الكوابيس للنخبة لحياة اليهود آنى كانوا.

٣ - القومية الصهيونية قومية عنصرية إثنية متعالية. وهذا ما نجده واضحا في الآداب الصهيونية منذ تباشيرها الأولى. وقد رافق هذا الشعور الحركة الصهيونية في شتى مراحلها ومايزال ذاكها حتى اليوم. وحسبنا أن نشير إلى أفكار زعيمين صهيونيين شهيرين: أوهامو جابوتنسكي وتالنيهم أوري تزييف غرينبرغ (١٨٨٧ - ١٩٨١)، الذي أقام في فلسطين منذ عام ١٩٢٤، وأسّسهم في صحيفة دافار التي تمثّل أتحاد المستعمرات العنكائي.

يسكنون المدن والعواصم الكبرى في أوروبا، بل أصبحوا إلى حد كبير سادتها وأصحاب السيطرة فيها. ومن هنا يسأل المرء: ما الذي دفع إلى ولادة الصهيونية في هذه الفترة بالذات؟

لا شك أن تحليل هذه المارقة يحتاج إلى صفحات. وأهم ما في هذا التحليل هو أن اليهود انفسهم، وقد فُحِت لهم أبواب الاندماج الكامل بالقوميات الوطنية التي كانت سائدة في أوروبا، ظلوا يشعرون أنهم لا ينتمون إليها حقاً، وأن عليهم أن تكون لهم قوميّتهم الخاصة. وهكذا نستطيع أن نقول إن حركة التحرير والتطوير في أوروبا ولدت لدى اليهود في تلك الفترة البذور الأولى لوعي جديد لا يصح أن نعتبره دينياً، وإنّما هو وعي مقابل لصعود القوميات الحديثة العلمانية في أوروبا. من هنا نستخلص أن الصهيونية تمثل ظاهرة أعقبت حركة التحرير في أوروبا، وأنّها - حين أكتت على الصلة التاريخية بينها وبين بلد الاجداد في إسرائيل - جوتت مضامير اليهود التي ظلت نائمة طوال قرون إلى طاقة معركة. وجعلت من القومية اليهودية انكساراً للأفكار التي وأنتها الثورة الفرنسية والحداثة والنزعة القومية.

وبعينا من هذا كلّ أن ندرك كيف كانت الصهيونية حركة مفعلّة تسمير في عكس اتجاه التطور الذي حدث في العصر -

الصهيونية العلمانية اللادينية هي جزء لا يتجزأ من النديانة اليهودية (وإن جهلت ذلك)؛ كما أن أرض إسرائيل تعبر عن المعنى الكوني المركزي للوجود اليهودي؛ وأن الخلاص اليهودي جزء من عملية عالمية شاملة؛ وأن العالم كلّ يعاني ما يعاني من القوضى لأنّ الشعب اليهودي لا يتشغل المكان الذي منحه إياه البليّة الغائبة للكون.

ج - الصهيونية المفعلّة. أضد ما يُفصح ما في الصهيونية من الفعّال أن الدعوة إليها جات في غير أوقاتها، أي بعد أن زالت البرزات المتصلة بالمشاعر اللاسامية ضدّ اليهود في أوروبا وسواها. ومن هنا حقّ للكثير من الباحثين - ومنهم يهود - أن يقولوا إن الصهيونية بُنيت من خلال مفارقة عجيب: فالحركة الصهيونية التي تُهدف إلى عودة اليهود إلى فلسطين لم تُفكر قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت أوروبا قبل ذلك قد شهدت بعد الثورة الفرنسية بشكل خاص (عام ١٧٨٩) حركة تحرّرت إلى معاملة اليهود فيها على قدم المساواة مع سائر المواطنين. وإذا نحن قارنا بوجه خاص بداية القرن التاسع عشر مع بداية القرن العشرين وجدنا أن حياة اليهود لم تُشهد من قبل مثل ما شهدت هذه الفترة من انطلاقة إيجابية في ميدان الاقتصاد أو السياسة أو الفكر. ومنذ ذلك الحين أصبح اليهود

أما جابوتنسكي، رأس الفريق الصهيوني اليميني المتطرف وأكبر الدعاة إلى اللجوء إلى القسوة من أجل توليد الكيان الصهيوني، فقد وضع نظرية متكاملة حول دور العرق في تاريخ الإنسانية. وصنّف له أول تحليل مفصّل في هذا المجال في مقال كتبه عام ١٩١٣، عنوانه «حول العرق». وفيه يقول إنه ليس من المهم أن يوجد عرق صافٍ أو ألا يوجد، والأهم هو الفرق القائم بين مختلف الجماعات الإثنية التي يميّزها سنّتها العرقية. وبهذا المعنى وحده يفسد مفهوم الأمة ومفهوم العرق متكاملين. وهكذا يريد جابوتنسكي في مقاله هذا أن يضع مكان الصهيونية الماركسيّة حتميّة وجودها العرقي ويستخلص من ذلك أن جوهر الأمة ومفهوم وحدتها يكتنفان في الصفات الجسدية المميّزة لها، وفي العناصر الخفية لتكوينها العرقي. وهذا يؤدّي به إلى القول بتفوق الأمة اليهودية على سواها من الأمم.

أما الشاعر الروسي غرينغر فقد كان ينظم القصائد المتهبة ضدّ الآخر، كآثام المسيحيين بمعادة السامية، وآثام العرب بتعطّشهم للحقد، ولآثام اليسار الصهيونيّ تقسيمه بالاضطراب الخلفي، والنساء بالفجور. أما جوهر الانتداب إلى اليهود عنده فتحدّه صفتان: الدم والأرض. والوحدة البيولوجيّة الكاملة والثابتة لدى الشعب اليهوديّ تقيم بينه

وبين الشعوب غير اليهوديّة اختلافاً وفارقاً مطلقاً. ومن هنا فالحوار مع غير اليهود هو قفّة السلاح، وعن طريق الدم - كما يقول - سوف يكون البعث. واليهود سوف يصفّقون وجودهم في أرض إسرائيل باللجوء إلى حرب لا تبقي ولا تترك ضدّ أولئك الذين يقفون في وجه تحقيق مشروعيهم. ويبيكي شاعرنا بكاءً مرّاً على ما أصاب القدس، مدينة داود التي جهرها الأنبياء، والتي ملأها أبناء العمومة العرب بنهب الحمير، ونسوها بروح الاقتحام والبسر. ويدعو في خاتمة المطاف إلى تحرير إسرائيل بحدّ السيف، وإلى بناء ملكوت إسرائيل بالقوة. وإلى إقامة مكتاتورية إيديولوجيّة مهمتها تحقيق الرؤية المسيحانيّة للكرت إسرائيل.

٤ - **القوميّة الصهيونيّة القوميّة عرانيّة.** وأسنا في حاجة إلى البراهين: فنحن نعيش مأساة هذا العنف الإسرائيليّ اليوم، كما عشناه منذ نشأة الصهيونيّة.

ونغمي نداءً إلى أفكار جابوتنسكي (١٨٨٠ - ١٩٤٠) الذي كان له وما يزال النور الأول في مجرى الحياة السياسيّة قبل ولادة إسرائيل وبعدها، وقبل طرح مشروع السلام مع العرب وبعده. وقد هزّ منذ البداية بمبادئ الحرية والعدالة، بل تهكّم على ما ورد في بعض المواضع في التوراة نفسها من دعوى إلى عدم اضطهاد الآخرين. ومن أقواله في معاداة

الإنسان والإنسانيّة: «لا تأمنز لأحد، وكُنّ يوماً فطناً حذراً وسقيّ الظنّ. واحمل يوماً عصاك معك. وبذلك فقط تستطيع أن تعيش في قلب هذه الصرب التي لا هودة فيها، حرب الإنسان للإنسان أُنّي كان.»

وليس المجال مجال الحديث عن دوره العمليّ في الحركة الصهيونيّة، وفي تكوين حزبه المتطرف، وفي تكوينه للفريّة اليهوديّة في فلسطين أيّام الانتداب البريطانيّ، ثمّ لحركة إرغون الإرهابيّة. وإنّما نمضي إلى أفكاره العدوانيّة المؤمّنة بالقوّة، التي نكاد نجدها مجتمعة في مقالين هامّين: لا نشرهما عام ١٩٢٢ والعرب. في هذا المقال ينتهي به تطبيع الموقف العرب إلى إصدار حكم قاطع يقول فيه: «الاتفاق الطوعيّ بيننا وبين عرب فلسطين أمر لا يمكن أن تنصّره اليوم أو في المستقبل المنظور.» فكما بين معظم الصهيونيّين، ليس هناك ولو حظّ يسير للحصول على موافقة العرب الفلسطينيين على قلب فلسطين إلى دولة أكثر ثباتاً من اليهود. وبعد أن يتّضح المنطق الذي يدفع العرب الفلسطينيين إلى كراهية الصهيونيّة، يحدث الموقف السياسيّ الذي يكرسه هذا المنطق، وخلاصته أنّه ليس ثمة إلاّ أحد أمرين: أن نوقف حركة الانسحجان، أو أن نستمرّ فيها دون أن نأبه لمزاج أهل

III - خاتمة

استطاعت القومية الصهيونية أن تحقق بعض أهدافها، على الرغم من هذه العلل والعورات جميعها، بل بفضل هذه العلل والعورات. فلقد لجأت ومازالت إلى تزييف الحقائق أمام العالم، ولم تترك أي أسلوب من أساليب الكذب والضغط والعدوان من أجل إنفاذ ماريها. وقد يستمر لها مهمتها هذه إيراكها الواضح منذ البداية أن كسب تأييد الدول الكبرى بشتى الوسائل هو السبيل الجدد لبلوغ ما تريد، ولو بدا ما تريده أمراً معجزاً في البداية. ومع ذلك هيئات أن تكون قادرة على الوصول إلى نهاية الدرب. ومعاً يجعلنا نستشير بداية نهاية الصهيونية حقيقتان: **أولاهما** أن ما تم من لجهو الصهيونية إلى الكذب والخداع والترغيب والترهيب بدأ يتكثف جلياً أمام الرأي العام العالمي. وسوف يتبدى أوضح فوارضح بسبب وسائل الإعلام والاتصال الحديثة بوجه خاص. ولا أقل على ذلك من أن كثيراً من يهود العالم – ولاسيما في الشقات – أخذوا ينفضون عن الصهيونية وأفانيتها ومجانبتها للمبادئ الخلقية والإنسانية. فعلى سبيل المثال نشر جاك اتالي، الكاتب الفرنسي اليهودي الشهير والمستشار السابق للرئيس ميثران، على

يحاول شارون اليوم، أن يزيك الحقائق وأن يقول إن الجدار الحديدي ليس غاية في حد ذاته بل وسيلة لكسر مقاومة العرب لمسيرة الحركة الصهيونية، وأنه عندما تتحطم هذه المقاومة فمن الممكن أن تأتي قيادة فلسطينية معتدلة، وعند ذلك فقط يمكن أن تبدأ المفاوضات الجادة مع الفلسطينيين – وهي مفاوضات يقدم الإسرائيليون خلالها للفلسطينيين حقوقاً مدنية وقومية. ولم يحدث جابوتنسكي في هذا المجال ما يتصده بعبارة «المحقق الفلسطيني»، ولكنه بين في كتابات أخرى أنه يقصد بذلك منح الفلسطينيين بعض الاستقلال السياسي داخل دولة يهودية.

ومن الجدير بالذكر أن ناتانياهو قد تكلم بمقالة جابوتنسكي وجداره الصهيوني تأكراً كبيراً. وكتابه مكان تحت الشمس فيه أوجه شبه كثيرة مع أفكار ذلك الزعيم – الذي هو من أتباعه بل من أقرانه – لاسيما فيما يتصل بالموقف من العرب. وهكذا نجد في كتاب ناتانياهو هذا «تلكيداً على أن فرص السلام مع العرب تشدد وتقوى كلما بدت إسرائيل أقوى». كما نقرأ فيه أن «السلام الحق والياقي هو السلام المبني على الردع الإسرائيلي»^(١).

البلاد. وليس أمامنا إذن إلا أن نتابع حركة الاستيطان عن طريق القوة، وأن نقيم بيننا وبين أهل البلاد جسداً حديدياً لا يستطيعون أن يهزموه. وعندما انتقد بعض من يسمون المعتدلين من الصهاينة موقفه هذا لأسباب إنسانية وأخلاقية، كتب مقالاً آخر عنوانه «الأخلاق والجدار الحديدي»، وخلصه أن شة أمرين ممكنين: أحدهما أن تكون الصهيونية ظاهرة إيجابية، والثاني أن تكون ظاهرة سلبية. والجواب على هذا السؤال كان يتبهي أن يتم قبل ولادة الصهيونية. أما وقد ولدت الصهيونية وأقر معانها كلهم بأنها ظاهرة إيجابية وحركة خلقية وإنسانية، فلم يعد شة مجال لترح هذا السؤال. بل علينا الآن أن نقول: «ما دامت القضية عادلة، فلا بد أن تقتصر العدالة، سواء وافق الآخرين على ذلك أو لم يوافقوا. فالحقيقة المقدسة التي يستلزم تحقيقها استخدام القوة تظل حقيقة مقدسة». أصبح «الجدار الحديدي» ترواة الحركة الصهيونية التي سُميت باسم «الصهيونية التصحيحية» وترواة متطرفة الصهاينة من اليمين وسواه، وعلى رأسهم اليوم شارون. وقد حاول جابوتنسكي أمام الرأي العالمي، كما

١ - بنيامين نتانياهو، مكان تحت الشمس، ترجمة محمد عونة للديوري (عمان: دار الجيل للنشر، ١٩٩٥).

أثر أحداث القدس بعد زيارة شارون، مقالاً أثار ضجةً كبرى عنوانه: «إلى أين تمضي إسرائيل؟» ومما جاء في مطلعها: «لم تكن إسرائيل معزولة كما هي اليوم. ولم تكن يوماً مهددةً بالزوال كما هي اليوم.» وفيه يقول: «وفي الجملة، إنَّ إسرائيل مهددةٌ بالزوال عن طريق العرب، ومهددةٌ بالزوال عن طريق السلم، أو عن طريق هجرة النخبة منها خوفاً من الحرب والسلم.»^(١)

أما الحقيقة الثانية التي تثير بنهاية الصهيونية فإضافة في بنية المجتمع الإسرائيلي المتدهية إلى حدٍّ كبير. فالإضرابات في إسرائيل قائمة على قدم وساق بين العرب والإسرائيليين، وبين المتدينين والعلمانيين، وبين السوفاريديم، وبين الصير وغيرهم، وبين الفلاشا وسواهم، وبين اليهود الروس ومن عداهم، وبين الأحزاب الدينية المتنافرة، وسوى ذلك كثير. وقد كشفت الانتخابات الكثيثة الخامسة عشرة في ١٧ أيار ١٩٩٩ بوجه خاص عن تفككت المجتمع الإسرائيلي، الذي بدأ خلال تلك الانتخابات مجموعة من القبائل تبحث كل قبيلة منها عن مصالحها الخاصة غير أبهى بسواها. وقد بدأ هذا التشتت واضعاً حين حاول باراك جاهداً أن يؤكّد

وزارته، ولم يصل إلى ذلك إلا بشقّ النفس، ومن خلال صيغة تظلّ الحياة السياسية. وهذا التشتت الذي وصلت إليه هوى إسرائيل، وهذا الدرك الذي انحدرت إليه الطبقة البرلمانية فيها، لا يمكن أن يُفسّر إلا بكونهما نتيجة من نتائج فشل الإيديولوجيا الصهيونية بعد أربعة أجيال وست حروب مع العرب، وبعثران عن عجز اللغة العبرية وأساطير التوراة والخروج والسبي والاضطهاد للسبيح الأوربي والغيتو والمحرق. ويؤكد على هذا العجز بوضوح سقوط باراك نفسه، ونتائج الانتخابات الأخيرة التي كشفت عن زعر سكان إسرائيل أمام زخم الانتفاضة الفلسطينية. وهو زعر حملهم على أن يعودوا إلى أقصى أشكال سياسة العنف على الرغم مما جرّه عليهم منيلات.

وإلى جانب التمرق الإسرائيلي الذي يعبر عن فشل المشروع الصهيوني، ثمة بعض الظواهر الفكرية الجديدة التي تدل على أن الفكرة الصهيونية تواجه اليوم مواقف جديدة تدعو إلى إعادة النظر فيها بل إلى التكريس عنها. وهذا ما نجده لدى أصحاب التيار الذي يُعرف بتيار ما بعد الصهيونية، والذي يرى ناتانياهو أنه أشدّ خطراً على إسرائيل من إسرائيل نفسها. وهذا ما نجده على نحو أوضح لدى

«المؤرخين اليهود الجدد» من أمثال إيلان بابي وبني موريس وبسحا فلاپان والتي شلايم. وقد ذاع صيت هؤلاء المؤرخين منذ منتصف الثمانينيات، بعد أن أكلوا على وثائق وزارة الخارجية ووزارة الدفاع في إسرائيل، التي تمّ الكشف عنها بعد ثلاثين عاماً من ولادة دولة إسرائيل. ولقد بين هؤلاء المؤرخون بوجه خاص أن الفلسطينيين لم يُهجروا فلسطين طوعاً عام ١٩٤٨، كما تقول المصادر الإسرائيلية الرسمية، بل طُردوا منها أبشع طرد، وتعرّفوا أثناء ذلك لأذبح منظمة مقصودة (في دير ياسين وسواها) من أجل إكراههم على ترك ديارهم. وقد لقيت أفكار المؤرخين الجدد هدى واسعاً في إسرائيل، كما لقيت تجاوباً كبيراً في الأوساط العالمية. وليس المجال مجال الحديث عن هؤلاء المؤرخين، وجل قصدي أن تشير إلى أن صورة إسرائيل الصهيونية بدأت تهتز أمام أمين ابنائها وأمام أمين العالم، وأنها مُتعبة لا محالة - بحكم بنيتها الزائفة المصطنعة - على مشكلات داخلية وخارجية جمّة تضع الصهيونية نفسها ومطلقاتها موضع التساؤل.

ويلخص محمد حسين هيكل أزمة إسرائيل اليوم وبالأخص وصولها إلى طريق مسدود بسبب الصهيونية، فيقول:



تكشف مفاوضات السلام كلما تقدّم الزمن عن عودة مطوّدة إلى منطلقات اليمين الصهيوني كما يمشيها نذانيهاو وشارون

وبعد، فإنّ نظام الأپارتايد العنصريّ لن يدوم طويلاً، إلّا إذا وافق العربُ على بقائه على حساب وجودهم ووحدةهم القوميّة ومستقبلهم. ومن هنا يُلجئ أن يكون مفتاح الموقف العربيّ اليوم ترك الباب مفتوحاً وعدم إغلاق «الملف» مهما تكن التسيّسات المؤقّنة. فالأيام حبلى بالأحداث، وإرادة الشعوب لا بدّ أن تلتصّر في عالمتها على الرُّغم ممّا يتخيّل فيه اليوم من بحران وفوضى وابتعاد عن القيم الخلفيّة والإنسانيّة.

ومعركة العرب ضدّ الصهيونيّة لها، بالإضافة إلى أهدافها القوميّة، أهداف إنسانيّةٌ وخلقيّةٌ طالما أوقدت شملتها الحصارُ العربيّ الإسلاميّ في شتى مراحل تاريخها. ومن هنا فمقارعة الصهيونيّة مقارعةٌ للشّر في هذا العصر الذي كان يُطلَق عليه اسمُ العصر الصهيونيّ. أنّيست مثلاً هذه المهمة الكبرى جديدهً بأن يعبأ لها الوجود العربيّ كلّهُ ونَحْنُ كملتنا بقول الشاعر القرويّ: «أما السّلام فإنّنا أعداؤه/حتى يدين بحبّه أقوانا». ونذكر بالبيت الذي تحدّث فيه عن الاستعمار الفرنسيّ آنذاك: «أتيناهام بإنجيل المسيح / فاجابونا بآجار الفتى»^١

باريس

وموف يُقدّم بريقه وشكّه يوماً بعد يوم في أعين الإسرائيليّين أنفسهم، لاسيّما عندما يُثقل إلى جيش حقير يربط في المدن العربيّة المطّنة، ويُسّهر على منع التجوّل في مناطق السّلطة وفي المستوطنات، ويلاحق أطفال الحجارة، ويُثقل الأبرياء من الكبار والصغار والأطفال الرضّع. وما نحن نرى الكثير من الجنود الإسرائيليّين يزلّضون الالتصاق بوحداثهم المسكّرة أثناء الانتفاضة الأخيرة، كما رفض الترابّ عديدون لهم من فُئّل الخنفة في صفوف الجيش الإسرائيليّ أيام معركة لبنان.

وجملة القول إنّ إسرائيل، التي تمكّ القوة العسكريّة وسواها، لا تُملك القوة المعنويّة والبواعث الإيديولوجيّة التي تشدّ أنّ تلك القوة. وما دامت حربها مع الفلسطينيّين والعرب حرباً للتخريب المتعدي، فمن تستطيع أن تفلّ العزيمة العربيّة، وسوف يفلّ جيشها المدجج بأحدث الأسلحة مضطرباً قلداً. والأشّدّ العربيّة، وإلى جانبها الأُمّة الإسلاميّة، تُملك الإمكانيات البشريّة والماديّة والجغرافيّة الهائلة. وإذا هي استطاعت أن تجتمع أمرها، وأن تُقرّر على أن تمارس بغتة الوسائل حصّها في استرداد ما اغتصبت منها، فسوف تكون المنتصرة لا محالة، طال الزمن أو قصر.

«أزمتُ للشروع اليهوديّ أنّه حاول اختراع ذاكرة من الأوهام يؤسّس عليها مشروع دولة أو مشروع إمبراطوريّة مستعملة التحقيق وإن كانت باهظة التكاليف بسبب المحاولة»^(١)

ولكن حذار إن قدّمتنا هذه الصوّة المهترّة للكيان الإسرائيليّ إلى الاضمتان إلى المستقبل، فجلّ هفنا من وراء الإشارة إلى بعض معالم العجز الإسرائيليّ والقصور الصهيونيّ أن نبين أنّ أمام العرب فرصة نادرة لتضييق الخناق على إسرائيل بوضع أهدافها الصهيونيّة للتتيّد والجديدة. وما ينبغي أن نعيه هو أنّ إسرائيل تستطيع أن تبقى مهما تكاثرّت أزماتها الداخليّة، وأنّ ثمة بلداناً كثيرة في العالم استمرّت في البقاء على الرُّغم من مشكلاتها الداخليّة العميقة مادامت لم تتعرّض لخطر خارجيّ. ولا ييسّر الفجاء إسرائيل من داخلها إلّا نوازل فوّخ خارجيّة معاديّة. ولا شك أنّ تصميم الأُمّة العربيّة، ومعها الأُمّة الإسلاميّة، على تطويق إسرائيل والتضييق عليها ومنعها من أن تُخرّج من زنازلها إلى رحاب الوطن العربيّ المسيح يأتي على رأس العوامل التي تمجّل في تداعبها وانهايارها. بل إنّ جيش إسرائيل الذي هو درعها ورمز بقاها لن يستطيع أن يقوم بمهمّته في حماية إسرائيل من جيرانها،

١ - جريدة السفير، ١ آذار (مارس) ٢٠٠١.

الصومال بين الينتاغون وهوليوود

ومتى يكذبون بصبراً عن بيروت؟

كيرستن شايد *

وضع الأمور في نصابها؟

فيلم سقوط الصقر الأسود حلٌ مثقراً في بيروت. لم تحط الصومال بشرف الدخول إلى «محور الشر» ولكن هناك كلاً من كثيرًا على خطى أميركية لتصنفها لنوع أخرى. ويبدو أن هذا الفيلم، الذي يتحدث عن التحلل الأميركي في الصومال، هو الشجرة الأولى للقمام مشغوم عقد في تشرين الثاني من العام الماضي بين ٤٧ مدبراً مهماً في هوليوود من جهة وكارل بوف وهو المستشار الرفيع للرئيس بوش من جهة ثانية. وجاءت للمعنة لإنتاج الفيلم من طرف الينتاغون، الذي انتهت الفرصة من أجل وضع الأمور في نصابها. (١) ولهذا تستحق هذه الأمور أن تتألفها ههنا بعض الشيء.

كان أحد المخاوف التي واجهتها أميركا استعداداً لحربها الأخيرة على أفغانستان هو ما يسمى «أعراض الصومال» التي شنت القدرة الهجومية لإدارة كلينتون آنذاك. فقد تفتشت هذه الأعراض كالحصى في أوساط الشعب الأميركي بعد أن قُتل ١٨ جندياً من أفراد القوات الأميركية الخاصة في مقديشو،

ويُنت في كافة أنحاء العالم صُوَرٌ جنديتين أميركيتين قَتيلتين «تسجلهما» في الشوارع صوماليين متهاًلون. وكان أن أَمَرَ كلينتون بانسحاب القوات الأميركية من الصومال فوراً. فقد مُنيت بهزيمة مدلّة بل بهزيمة مؤلّقة في وضوحها للعيان.

هنا شكّل على الخطّ المنتبج الأميركي جيري براكهايمر (منتج بيرل هاربور)، والمخرج البريطاني ريدلي سكوت (مفسر هنيبل)، وبحسب الإعلان الذي سبق عرض الفيلم، فإنّ الهدف المعلن لـ سقوط الصقر الأسود هو إظهار أن العملية العسكرية الأميركية في الصومال لم تكن أحلّت لحظات أميركا، بل أبهرتها. (٢) في الدقائق الخمس الأولى من الفيلم، وهو الوقت الوحيد المخصص لسرد الأحداث التاريخية، ثمة جثث أفريقية رمادية مبعثرة على امتداد رمال مُفترقة، وليس من يُكفيها إلا لحنٌ عربيّ صاعِدٌ من ناي حزين. وعلى هذه الخلفيّة القاسية تُظهر على الشاشة مقاطع تُشرّح للمشاهدين أن المجاعة خلّقت ثلاثمائة ألف قتيل في الصومال، وأنّ أمراء الحرب الصوماليين سرقوا شحنات المعونات الغذائية، وأنّ رجال البحرية

الأميركية قد أرسلوا إلى هناك - منتدبين من العالم بأسره - لإتاحة الفرصة لعودة هذه المعونات. ولكنّ معونات الغذاء التي قُدمها الأميركيون هنا، كذلك التي سيُقدمونها إلى أفغانستان (وجاءت في رُزْم لا يُمكن تمييزها - لوّاً وحجماً - من القنبيلات المخدوفة من عل)، احتوت الصالح والطالح معاً. فقد أورد الصحافيّ مارك بازاين الذي يُعمل لحساب جريدة فيلادلفيا إنكوايرر في تقريره (المؤكّر للتدخل) ما يلي:

«لم يكن هدف حملة الرابنجرز في مقديشو إعطام الجائعين. فطوال ستة أسابيع، من آخر آب إلى ٣ تشرين الأول، قامت بست عملياتٍ مُكبّرة على أماكن تُزُن أن [محمد فرح] عبيد أو سبّاهة فيها... وأتى هجوم واحد... إلى مقتل ما يتراوح بين الخمسين والسيبعين من سُكّان العشيرة ومُثقفها، وكثيرٌ منهم معتقلون يحاولون الوصول إلى تسوية سلمية مع الأمم المتحدة. بعد ذلك الهجوم الصاروخي في ١٢ تموز باتت عشيرة عبيد في حربٍ رسمية مع أميركا - وهذه حقيقة لم يدرها أميركيون كثيرون قط» (٣)

♦ أميركية مقبنة في بيروت. تال بعد شهر قليلة شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة برنستون عن دور الفنّ التشكيلي في المجتمع اللبناني. وهذا المقال هو تطويرٌ لمسخةٍ صدرت في جريدة النهار في ٢٠٠٢/٢/١٨.

١ - Quoted by Larry Chin, "Black Hawk Down - Hollywood Drags Bloody Corps of Truth Across Movie Screens..." - Online Journal, January 8, 2002, <http://www.onlinejournal.com>.

٢ - من الإعلان الذي سبق العرض.

٣ - Quoted by Chin, ibid.

«دعاية سياسية مدفوعة»

غير أنَّ الصحف لم تتحدث عن الحرب بين الجنرال عبيد والولايات المتحدة لأنَّ ذلك سيُنتفع إلى الحديث عن كيف أنَّه صار قوياً بفضل الدعم الأميركي السابق له. ولأنَّ بدا عبيد في هذا شيئاً بأسامة بن لادن، فلن يكون مستغرباً أن تفوح رائحة النفط من الرواية الأميركية الرسمية عن أحداث الصومال مثلما ستفوح من الرواية الأميركية الرسمية عن أحداث أفغانستان... علماً أنَّ الولايات المتحدة حذت قبل أيام من وصول رجال البحرية مؤقَّتاً لسفارتها في مجمع شركة كرنوك، وهي إحدى أربع شركات أميركية كان عبيد قد أُنجل امتيازاتها للفترة بملابن الدولارات في استخراج النفط الصومالي. وكان كولير بول نفسه، بصفتة آنذاك رئيساً لهيئة الأركان المشتركة التابعة للبيتاغون، قد وصف الغزو الأميركي بـ «الدعاية السياسية المدفوعة»^(١) لصالح البيتاغون، في وقتٍ نكَّس فيه نهاية الحرب الباردة بعض الأميركيين إلى الضغط على الكونغرس من أجل تقليص الميزانية المخصصة للحرب. هنا برز دور جديد /

قديم لمؤسسة البيتاغون الحربية: هي «حماية رجال النفط الأميركيين ونزع سلاح الشعب [الصومالي] الجامع»^(٢). هذا وقد وثق نوم تشومسكي الحصة النهائية للفتى كالتالي: «كان التقرير الرسمي [الأميركي] هو سقوط ما بين ستة آلاف إلى عشرة آلاف صومالي في صيف ١٩٩٣ وحده، وثُلثا هذا الرقم من النساء والأطفال». أمَّا الجنرال الطوني زيني (ويا للمفاجأة)، وكان قائد الحملة آنذاك، فقد أقيم الصحافة: «إننا لا أعدّ الجثث... هذا لا يهمني»^(٣).

والصال أن تصريح زيني الروائي قد انعكس في سيناريو سقوط الصقر الأسود في جملة اشتهرت بفضل الإعلان عن الفيلم، وتأتي من أسعد الجنود الأميركيين الذين حُجرت الحرب قلوبهم: «معين نمر الطلعة الأولى قرب راسك، تطير السياسة وكلُّ ذلك الهراء من النافذة». أو كما اكتشف باونين لاحقاً من مقابلات مع جنود شاركوا في الحرب: فإنَّ معظم الجنود «قالوا إنهم خلال أكثر فترات القتال كانوا يُلْقون النار على الناس، بل عملياً على أيِّ كان أو أيِّ شيء رآه»^(٤).

وكانت عدوانية الرايبرز من الانفلات بحيث قال قائد الحملة اللواء ويليام ف. غاريسون في شهادته قسماً إلى مجلس الشيوخ: «لو زاد رجالي أيُّ قسراً ولو ضنيلر من الضخيرة في المدينة لكنا أغرقناها»^(٥). وهكذا يبدو أنَّ الأخلاق قد خرجت هي أيضاً من النافذة، أو أنها - كما هو واضح من عبارة زيني - لم تكن هناك أصلاً. ولكن اختارت هوليود أن تُزعج الكلمات من فم اللواء لتضعها في فم جندي شاب، جاعلاً من إطلاق النار على المدنيين يوماً اعتباراً للخدمات مصابغة بحجة لا جزءاً أساسياً من السياسة الأميركية.

إعادة كتابة ما حدث... بصرياً

يضع سيناريو الفيلم «الأمور في نصابها» من خلال أشكال متوقَّعة أخرى، فالتاريخ يُذكر أنَّ بحشية الصوماليين تجاه الجنود الأميركيين وتجاه جثثهم جاءت ردّاً على الوحشية التي أنزلها الجنود الأميركيون بهم من قبل. وفي هذا المصعد أورد ريتشارد داويز في إل إنديبننت بعض للشاهد من بدء الحملة الأميركية: «في

Quoted by Noam Chomsky, *The New Military Humanism* (Monroe, ME: Common Courage, 1999), p.69. - ١

Alexander Cox, "Black Hawk Down: Shoot First, Don't Ask Questions Afterwards," <http://www.flora.org>. - ٢

John Balzar, "Marines Fling as UN Leaves Somalia," in *Boston Globe*, March 4, 1995. - ٣

Quoted by Chin, op. cit. - ٤

Ibid. - ٥

إحدى الحوادث أخذ الجنود عائلة (صومالية) رهينة. حين بدأت امرأة بالصراخ على الأميركيين أطلق عليها النار فقتلت. وفي حادثة أخرى ذكر أن سجيناً صومالياً قُتل بالرصاص حين رفض أن يكف عن الصلاة في الخارج. بثمة سجين آخر قُتل ضرباً بالهراوات، ولم يُشفر القاتل^(١). غير أن هذه الحوادث ليست موجبة في الفيلم، وما يراه المشاهدون هو عكس ذلك تماماً. بل إن احتجاز الجندي الأميركي للرهائن الصومالية، بهدف استخدامهم دويماً بشرياً كما يبدو^(٢)، تُترك المشاهدون أمام لحظة من لحظات الصمت والقداسة في الفيلم: فالموسيقى الصاخبة تخفت حين يُغير جندي أميركي مدعوى على رئيس قسّمه أمام أمّ جائمة مع سرب من الأطفال الجاهلي الميزن، ثم يلوح طفل للجندي (وللمشاهدين الذين لا شك أن يتماقوا معه). وما قد تعرّضت إنسانيتنا، نحن الأميركيين لاحقاً، قرب

نهاية الفيلم، نشاهد امرأة مدنيّة ترى من كثب برصاص أميركيّ منسحقين من أرض المعركة. ولكنها كانت قد خدمتهم بالنظائر بأنّها تكتب زيجتها القتل في حين أنّها كانت تنحني لتلقط سلاحه: إذن، موتها مير^(٣) وأخيراً، ليس هناك ضرب بالهراوات في الفيلم إلا في مشهد واحد وهو مشهد صوماليين يُشربون جديداً أميركياً جريماً يتألم صورة زوجته وولده. حقاً: لقد وُضعت الأمور في نصابها! وبهذا، لم يعد التاريخ الحقيقيّ أمراً مهماً بالنسبة إلى عدد كبير من الملقين في الصحافة الأميركية المائتة، واقتصر همهم على تطوّر الشخصيات السينمائية. فقد اعتزلوا بأن الجنود لا يُقتلون أن يكونوا «كليسياهاتر من أفلام حربيه لجون وورن» لم يوضع فيهم إلا «القليل جداً من اللوحة الماطفة»، فعدوا «تتميمات ردائيه بدلاً من بشر»^(٤). ولكن برغم الاعترافات فإنّ هذه الكليسيات نابضة بالحياة إذا

قارناها بالصوماليين في هذا الفيلم. فمقابل كلّ سرب من الصوماليين أميركيّان رائدان: يتوقّان بين الطلقات ليتأكد أحدهما من سلامة الآخر، بل يتصافحان قبل أن يُشرعا بعمليات الإنقاذ. ومقابل كل وجه أميركيّ تحول لوحه معوّدة بفضل تولّف الكاميرا طويلاً امامه، ثمة مئات من الصوماليين الغرغاء للمتجهرين، لا يُمكن تمييزهم - بل يُمكن إبدال واحد منهم من الآخر! وفي حين أن في الفيلم حوالي أربعين أميركياً لكلّ منهم صورتٌ ممسّقة، فإنّ معظم الصوماليين يُشربون أو يطربسون شعاراً فارغة. إن الصوماليين كتلة من «الوحوش السمرّاء المزجرة» الذين «لا يُبدون أي عاطفة سوى عاطفة المشع والتعشّش إلى النساء»^(٥). وهم لا منطق لديهم فيهد أن آخرتهم الكاميرا لم يعد في مقدورهم أن يُشرحوا سبب صولاتهم ويات كل ما يفعلونه هو

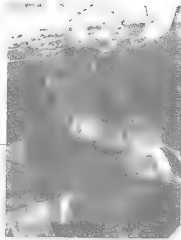
١ - Richard Dowden, *Independent*, Dec 13, 1998.

٢ - George Monbiot, "Both Savior & Victim," *The Guardian*, January 29, 2002.

٣ - جدير بالذكر أنّ على رغم أن الفيلم أوضح الصلة بين الحارِب الصوماليّ والقتيل والمرأة المدكوكة، فإنّ بعض الكتاب تجاهلوا عامل اللثا الذي دفعها إلى إطلاق النار على الأميركيين. وهكذا كتب اندرو ماننغ أنّ ردة فعل الجمهور على المشهد: «نعم. هذا ما تستحقونه حين ترفعن سلاحاً في وجه أميركا، يا كلبة». <http://www.movies.radiofree.com>, Andrew Manning, January 2002.

٤ - Quotes from Jeffrey Anderson, "Black Hawk Down," *The San Francisco Examiner*, January 18, 2002, <http://www.sfoxaminer.com>; J. Hoberman, "Black Hawk Down," *The Village Voice*, Dec. 26, 2001 - January 1, 2002, <http://www.villagevoice.com>; Andrew Manning, op. cit.

٥ - Elvis Mitchell, "Mission of Mercy Goes Bad," *The New York Times*, Dec. 28, 2001; Monbiot, op. cit.



الجنود الأميركيون: بين اللوحات العنصرية والمظاهرات المعارضة

يُسلِّطه المرءُ في صراع الحضارات الواضح كعين الشمس، حيث كلُّ ما يُخسُّ ويُلتمَسُ يواجِه نقيضه، هو أن يحمي نفسه ويحمي أصدقائه، ولكنَّ الملقَّين عادةً نُظِّروا إلى الجوانب التقنيَّة والجماليَّة من الفيلم على مبعده من الجوانب السريَّة، فنُصِّدُ الأولى بأمره وللثانية غير مُثبِّعة ولا مركَّزة، وهكذا اعتُبرت المشكَّة الأصليَّة في النهج الأميركي في الصموال مسألة تتعلَّق بنقص في هويَّة كاتب السيناريو فقط. غير أنَّ هذا تطيُّلٌ في غير محله، ذلك أنَّ سقوط الصقور الأسود ليس فيلمًا رديًّا من الناحية السينمائيَّة، بل هو مشهدية مقشَّرة، إنَّه شأنُ المصارعة في تحليل رولان بارت، يُفسَّحُ - بالمعنى الخُرَفي - كلَّ عنصرٍ واضعًا إياه إلى جانب الآخر على نحوٍ متناغمٍ بما يُضبطُ رُغمه، ويصل في النهاية إلى «الصورة الماثورة عن الواقع بوصفه شيئًا قابلاً للفهم تمامًا»^(١)

والسوقُ «مُزَنٌّ مائلٌ للأسلحة الأوتوماتيكيَّة»^(٢) والأمرُ الوحيد الذي يُثبِّتونه هو أن يَسْتَقْبِلُوا أموالًا، وفي المقابل فإنَّ الدقَّة الخطيَّة لكلِّ حركة أميركيَّة (الجنود يتحركون مثل الآلات حين يتناوبون عتائمهم، ومثل الساعات حين يُطلقون النار) تُخَفِّش عن منهجيَّة وانضباط مدلَّين - والنتيجة: أنَّ الوجود للصموالي لا يتماضى والوجود الأميركي، وأخيرًا، فإنَّ التوزيع الموسيقي نفسه يؤكِّد التباين بين مديَّين الوجوديَّتين، فالصمواليُّون يمشون على إبطاع الطفاطيق العربيَّة الهوجاء المعتمد على الطبل اعتمادًا ملنلاً، وأما الأميركيُّون فنُفَازهم مختلف أنوع الموسيقى الأميركيَّة من البروك أند رول زمنَ الضمسينيَّات إلى الرباب والبيانو الشعبيَّة. والصمعة الوحيد الذي يُضلع للموسيقي التصويريَّة هو حين يُقتل جنديٌّ أميركيٌّ، فهذه لحظة صمتر إنزائيَّة للمشاهدين.

غير هذه التناقضات الجماليَّة يصل الفيلم إلى عيِّرته المحتومة، وهي أنَّ أفضل ما

الهجوم والهجوم والهجوم^(٣) ومن هنا كان ملاتمًا أن يُورِد الفيلم في نهايته لائحة بأسماء الأميركيِّين القتلى الثمانية عشر، من غير أن يُذكر سوى جملة واحدة فقط عن الضحايا الصمواليِّين تقول إنَّ ألف صمواليٍّ (لا أسماء لهم) قُتِلوا أيضًا.

بين مئات الجثث التي تُلْتَمَس الفيلم، والقطي الحُكَل الذين يُحْتَمونه، هناك مجموعة من العناصر الجماليَّة التي لا يُمكن أن تتهي في نشرات الأخبار المسائيَّة - وهي التنسيق اللوني، والتلطيْف التصويري، والتوزيع الموسيقي. أوَّلًا، الأميركيُّون في الفيلم بيضٌ كُلُّهم (والاستثناء الوحيد لا يعدو أن يُذكر للمشاهدين بأنَّ هناك أيضًا بشرًا غير بيضاء في أمريكا) في حين أنَّ الصمواليِّين سودٌ كالآبنوس، ولهذا يبدو صبراغ الطريقين أشبه بصرب بين الأعراق،^(٤) فأنفُسا، يُشير التقسيم الهندسي للمدينة الأفريقيَّة في هذا الفيلم إلى الغرضي (إذ البيوت المختلطة تتداخل،

١ - إنَّ إنعدام التمييز بين الصمواليِّين يَدْعُم الفكرة التي رسَّخها الفيلم وكثيرٌ من الملقَّين، وهي أنَّ «الدنية بكاملها اصطَلت وراء عبيدٍ وراحت تقايل الأميركيِّين، لكني تفسر ضخامة حشود المقاتلين الصمواليِّين للأمرأة وهكذا تضعيف المارقة اللاذعة البهية الملائة في أنَّ هذه الصنود الهائلة إمَّا جات من خارج الدنية بين صفوف عشائر وَجَدَتْ جميعها الفرصة سانحةً للثار للصمواليِّين الذين كان الأميركيُّون قد قتلوهو زمن دم الولايات المتحدة لميديا (الطُر: Monbiot, op.cit.)

٢ - Danny Schecter, "Review of Black Hawk Down," Z Magazine (Jan. 8, 2002) <http://www.zmag.org>.

٣ - Robin Clifford, "Black Hawk Down," at Reeling Reviews, <http://www.reelingreviews.com>.

٤ - Roland Barthes, "The World of Wrestling," in Mythologies, Trans. Annette Lavers (New York: Hill & Wang, 1972), p.25.

سقوط الصقر الأسود في اميركا

كيف عملت أحداث ١١ ايلول، والمعركة التي قُسمها الهنتاغون، على خلق هذه المشهدة الفخالة؟ يؤكد للممثل برنتن سكستون ان الاسئلة التي أُثيرت في السيناريو الاصلي، الذي عُرض عليه منذ سنتين، حول الليات عمل القوات للسلة الاميركية واسباب تدخلها في العالم، شطب معظمها في فترة لاحقة (١) وأعيد توجيه التركيز إلى ما سمته كالتين روس، وهي الناطقة الرئيسية باسم دائرة الشؤون العامة في الجيش، «رؤية إلى ما يصاحبه الجنود في الحرب الحديثة، سواء في الصومال أو أفغانستان» (٢) وما يعنيه كلاهما هو أنه مادام الجنود يمسكون فضائل حضارتنا فإن ما يملون في تلك المواجهة العسكرية يخرج من نافذة الاعتبار.

هذا يشير إلى أنه بعد التحميل في إطلاق سقوط الصقر الأسود في اثر اجتماع البيت الأبيض بهوايود، تمت جميعه «موشن بكشره في اميركا لستشاري البيت الأبيض الرفيمن عرضاً خاصاً للفيلم، واتحد لهم أن يخلوا تعديلات

عليه! وقد حُضر وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وأوليفر نورث (وهو العقل المدبر لغضبة إيران - كوترا)، من بين آخرين، العرض الأول للفيلم في العاصمة واشنطن دي سي. والحال أن الفيلم لا بد أن يؤدي إلى نتائج واضحة بالنسبة إلى جمهور اميركي يشهد، عقب أحداث ١١ ايلول، مشاهد مثيرة كهذه، ويكّن الإنتان المشاهد التكنووجي الذي يُمكن الهنتاغون أن يفهمه. وقد عثر عن هذه النتائج لاري شن بالقول:

«في المناخ السياسي الحالي، حيث يُعتبر الغضب المتمردون» [الدكرى]، وعقلي الغوغاء، وحب الحرب، تصرفات طبيعية (في حين يُعتبر العقل، والتفكير النقدي، والتسامح، أموراً خائفاً)، سيروق هذا الفيلم أكثر عناصر للجمع الاميركي غداً. فقد أورد عدد كبير ممن شاهدوا الفيلم أنهم غادروا القاعة وهم يشعرون بالغضب، ويتحفظون لـ «نكز اقية اناس ما» ويأخذون، فإن هذا الفيلم خطير. وأولئك الذين «يحبونه» خطرون هم أيضاً» (٣)

واكي لا يفلن المرء أن شن كان مبالغاً في وصفه، تلمّ كيف شجعت أندرو ماننغ

قرأه على مشاهد الفيلم. فقد وصف إيجابياته بالقول إنه «وحشي» عنف واكثرت مواصلان: الوطني تتصاعد فيما تُركل اميركا الاقية ببسالة؛ ليس ثمة استنة ناجحة للعدو (١)» (٢)

متى يُغذبون - بصرياً - عن المارينز في بيروت؟

ولكن ماذا عن الجمهور في لبنان أو في أي بلد مازال يُلحق جراحاً خلفتها زعنة التدخل الاميركي؟ الواقع أن هذا الفيلم يصور مشاهد وحيكة قصصية تذكر بالتدخل الاميركي في لبنان، فتجسّد تتسار: متى سيُلغ فيلم عن الجنود الاميركيين حين كانوا في بيروت، ويمثل هذا التشويه للتاريخ؟

قد يكون اجدي بنا أن نُنتعن عن الذهاب إلى السينما لرؤية هذا الفيلم، فحزب ان نكع هوايود إلى أن تُشعر أن ليس في إمكاننا أن تحقّق الأرباخ في دول العالم الثالث من افلام تُشعر إلى قتل شعوب هذه الدول. ولكن إذا قرّرت أن تشاعروا هذا الفيلم فطمة امران قد تجدون أنهم جديران بالتأمل.

١. Brendan Sexton, "An Actor Speaks Out: What's Wrong with *Black Hawk Down*," Counterpunch, <http://www.counterpunch.org>.

٢. Quoted by Elizabeth Sneed, "The Special Operation of *Black Hawk Down*," *The Washington Post*, Jan. 13, 2002, p. G01.

٣. Chin, op. cit.

٤. Manning, op. cit.

الصوماليين من إطفاء أنفسهم. ففي تفسيرين الثاني من العام الماضي، أطلقت الحكومة الأميركية شركة «البركات» الصومالية التي وكّرت السبيل لأوحد لكي يحصل الصوماليون في الخارج أموالهم إلى داخل البلاد. وحوالي ٨٠٪ من الصوماليين يعتمدون على مثل هذه الأموال للبقاء على قيد الحياة.

«الاكشن» والجمهور العربي

أما بالنسبة إلى الجمهور الصومالي فقد ذكرت صحيفة CNN أنهم «ابتهجوا» بنشاهد هزيمة الولايات المتحدة. وكلمًا سقطت طائرة هليكوبتر أميركية في الفيلم كان الجمهور يهّل. وكلمًا قُتل عسكري أميركي كان الجمهور يهّل أيضًا. (٦) لقد تمكّن الصوماليون من ملاحظة فشل الفيلم في وضع الأمور في نصابها، ولكن بالنسبة إلى مشاهدين غُثّ على امتداد العالم قد تكون هذه المشهدية هي السجل الوحيد الباقى والأكثَر مصصويّةً لما حدث في الصومال. إن الواقعة المفرطة في التقنيّة

القتال، لا أحد يسيطر عليهم. (٧) وأما كانت فرقة الراينجرز فيجود تاريخها إلى الحرب التي شاركت في التطهير العرقي ضدّ الأميركيين الأصليين، وإلى ماثرها في الحرب الأهلية لصالح الجنوب؛ وأما كانت أيضًا مؤخرًا قد استُخدمت في مختلف أنواع التدخل - من لبنان إلى غراناوا وبناما، والصومال طبعًا، (٨) فإنه مما تُؤدّر ملاحظته أن حقل افتتاح هذا الفيلم عُقِدَ في يوم ميلاد مارتن لوتر كينغ الابن، وهو اليوم الذي يُكرّس عند مجموعات أخرى للاحتفال بإنجاز خطوات أميركية كبيرة ضدّ العنصرية، في حين أن البتاغون وهابويود يستخدمان لغويّج العنصرية على امتداد العالم بوصفها جزءًا فاصب مما يصابه الجنوب في الحرب الحديثة، إذا اقتبسنا الكلام من روس.

وأما الأمر الثاني فهو إنسانية الإدارة الأميركية. فبينما يتناول الفيلم كيف تمّ إفضال مهمة إنسانية رائعة لإطعام الصوماليين، اتخذت الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت خطوات متعمدة لمح

الأمر الأول هو الناحية العرقية وكيفية اندراج هذا الفيلم في سياق العنصرية الأميركية التي يُدعى للمشاهدين إلى المشاركة فيها. وقد أكد كوكس أن «قوات النخبة الأميركية لم تستطع أن تزدكي نورًا من التركيز في الصومال - وهو حماية شركات النفط - لأنها من العنصريين البيض غير المتمسّين في إيجاد أي صلة بأي مهمة إنسانية في إفريقيا...» (٩) وتُكرّر أن لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس النواب الأميركي أوردت في تقرير صدر عام ١٩٩٤ «أن العنصرية الفاحشة أمر شائع، وأن عدم الوعي بالاختلالات العرقية مشكلة منتشرة في أوساط الجنود.» (١٠) ولكن المخططين العسكريين كانوا يخلصون تلك حين أرسلوا الأفواج المسلحة من الجنود البيض للانحاح إلى الصومال؛ وما هو داييلد هالبرستام يُريد في كتاب عنوانه الحرب في زمن السلام أن وزير الدفاع أُخبر أحد زملائه: «سنرسل قوات الراينجرز إلى الصومال، لن يكون في مقدورنا أن نسيطر عليهم. فهم أشبه بكلاب أقرط في تدريبها على

١ - Cox, op. cit.

٢ - "An Assessment of Racial Discrimination in the Military. A Global Perspective," December 30, 1994, US Government Printing Office.

٣ - Quoted by Cox, op. cit.

٤ - Sexton, op. cit.

٥ - Quoted by Johnnie Stevens, "Black Hawk Down: Pentagon War Propaganda," People's Rights Fund, <http://www.peoplesrightsfund.org>.

لأفلام على شاكلة رابعو مثل الفيلم الذي نُستعرضه هنا لا تُمل في النهاية مكان الذكريات المستندة إلى تقارير الصحفيين فحسب، بل قد تُسرّع أيضاً في موت الصحافة نفسها.^(١)

ولما كان هذا الفيلم العامر بـ «الأكشن» خلواً من حبكة متطورة، فإنه لا يحاول أن يكون محاضرة في الجغرافية السياسية، وإنما يكتبني بإعادة رسم إطار لأساس مناقشة تلك السياسات. وتفتح إحدى الكاتبات عبر جريدة واشنطن بوست أن «يكون الهم غير الصحيح» بصدد حملة الراينجرز عام ١٩٩٣ قد ثار دلائل لم يكن هناك سوى قليل من المشاهد القوية عن المعركة في ذاتها.^(٢) وما هو سقوط الصقر الأسود بقدم آلاف المشاهدين القوية التي تصوّر الأميركيين في دور الضحايا البرينة وإرث الشجاعة بدلاً من أن تصوّرهم في دور المعتدي. «إن ما نشهده في سقوط الصقر الأسود ولي الصرب الحاليّة على

الإرهاب» على نحو ما يكتب موليبوت، «هو خلق أسطورة جديدة عن القومية. فأميركا تُلرح نفسها بوصفها مخلص العالم وضميئة في الوقت ذاته، مسيحا قريانياً في مهنة لتخليص العالم من الشر». وهذه الأسطورة تُطوي على مخاطر لا حصر لها على كل الناس الآخرين في الأرض.^(٣) غير أنّ هذه هي حكاية قديمة بالنسبة إلى الجمهور العربي، تنحّي جانباً يا إسرائيل! ها قد جاءت الضميمة الجديدة!

إذا كان الجمهور العربي يريد بعض «الأكشن»، فالأفضل ربما أن يشاهد الأخبار المسائيّة. فثمة الكثير من الموت الذي ترعاه أميركا ممّا يُمكن أن يشاهده في كل ليلة. ولا شك أنّ الضحايا التي سيُشاهدونها على التلفزيون، بعكس ما في هذا الفيلم، واقعية مئة في المئة.

لقد قوبل إطلاق الفيلم باحتجاجات ومحاولات مقاطعة في طول الولايات المتحدة وعرضها، نذّ قسماً كبيراً منها

مجموعات موالية للعرب أو معارضة للتدخل الأميركي، مثل «مركز العمل الدولي». وربما كانت هذه الاحتجاجات وأعمال المقاطعة من أسباب قلّة إقبال الجمهور على حضور هذا الفيلم. ففي الأسبوع الحادي عشر من عرضه لم يكن قد حصد إلا ثلث ما حصدته ملكة الضواثم ولم يكسب إلا ٢٠٪ ربحاً صافياً.^(٤) ولما كانت هوليوود، شأن المسلمين الأميركيين الآخرين، تُكتد على الأسواق الأجنبية لتأمين القسم الأعظم من أرباحها، فإنّ أمام العالم العربي دوراً حاسماً في جعل هذا الفيلم واللام أخرى في المستقبل ممكنة أو غير ممكنة (دون أن ننسى أنّ المغرب – ويا للأسف – هو الذي استضاف تصوير هذا الفيلم، ولعب البوليس المغربي دور الصوبالين للزنجيرين).^(٥) فلماذا يعترض شعب العالم العربي من خسائر فيلم بريد قتل المسلمين والعرب وشعب فقيرة أخرى؟

بيروت

Schechter, op. cit. – ١

Snead, op.cit. – ٢

Monbiot, op. cit. – ٣

<http://www.rottentomatoes.com> and <http://www.radiofree.com>. – ٤

Stephen Hunter, "The Battle Is Engaged, and So Is the Audience, in *Ferocious Black Hawk Down*," *The Washington Post*, Jan. 18, 2002, p. C01. – ٥

وتنكر Snead أنّ الإدارة الأميركية والپنتاغون أجريا معاهدات مكثفة مع وزارة الخارجية الغربية من أجل تصوير الفيلم في الرباط.

العقل العربي وإشكالاته

مسببات التفكير النظرية

. وضوان جودت زيادة .

كيف فكر العقل العربي في عقله؟

إن تفكر في العقل معناه أن نتفكر في ذاتنا ووجودنا، بما يثنيه هذا الوجود من مساطة الماضي والنظر إلى المستقبل معاً، وهذا هو بالضبط منطق المفكرين العرب المحدثين لدى تعاملهم مع العقل؛ يقول أحدهم: «إن قضية العقل العربي هي قضية ثنائية الحضارة الأولى، لأنها القضية التي تتوقف عليها مواجهتنا لجميع قضايانا الحضارية مواجهة قديمة...» (١) ينس العقل هنا بشباهة الحركة التي إن عرفنا فله رموزها وأسرارها نكتلها من التخلف إلى الحداثة، ومن الرجعية إلى التقدم، ولكن من تراه يثقل هذا السر ويستطيع أن يفكر هذا للفرد؟ هنا تطرح الإيديولوجيا نفسها مائلة للحقيقة، وتقدم أجوبتها الجاهزة والدلجية، فهي ألباسها حلال الأمت، وفي الابتعاد عنها اللغز المريب.

ما نطرح إلى تصحيح الإجابة عنه هو: كيف فكر العقل العربي في عقله؟ وبلفظ لالاند: كيف فكر العقل المتكهن للعربي في العقل المتكهن العربي؟ وما هي الآليات التفكير التي حكمت المفكرين العرب عند تفكيرهم في العقل؟

وهان العقل... سحر التخدير

من الممكن القول إن كل الأسطة التي طرحها المفكرين العرب، وكل الأجوبة التي قسموها، تكمن في الكشف عن السبب للقائم وراء استعصاء العرب على النهوض وعدم قدرتهم على التوافق مع العصر، ونحن راوون يتلمسون أسباب تخلفهم طرّحوا قضية الاستثمار. ولكن بلداناً عربية عدة لم يطأها الاستثمار ما برحت تراوح مكانها القائمة تحت خط التقادم، فاصلوا التفكير في ذاتهم هذه المرة، فوجدوا إرثاً تاريخياً كبيراً لم تقو ظهورهم على حمله، فحزنوا أمرهم وقرروا أن يبدأوا بحل إشكالاتهم مع التراث. ونكتلنا رؤاة الأصالة والمعاصرة والتراث والحداثة، إلى آخر هذه الثنائيات التي لم تكتف بعد.

سئم العرب من ذلك، وداخلهم شك كبير في أن يكون عماد النهضة لدى غيرهم من الأمم عائداً لهم دونها. فنبشأت ظاهرة الانتقال من موقف إرثي ضده لدى عدد من المفكرين العرب كما حدث مع زكي نجيب محمود في تجديد الفكر العربي في ما يخص مشكلة التراث.

ثم حزم المفكرين العرب أمرهم مرة أخرى، وقرروا أن يبدأوا بذاتهم أولاً، لكن الذات لا تتعين إلا بوعي ذاتها، وهذا غير متحقق إلا بعقلها. وإذا وضع المفكرين العقل العربي على الطاولة وبدأوا بتشريحه من جديد.

١ - أصحاب الإيديولوجيا التقدمية. وهكذا راج بعضهم يتساءل: «هل العقل العربي خرافي؟» (٢) دون الوصول ولو للحظة أمام هذه الإطالفة الخفية، مع أنه يعرف نفسه بأنه ينتمي إلى الإيديولوجية العلمية للتقدمية. ويجب بكثير من الثقة «أن المواقف الخرافية الكامنة والمخلفة بقشور رقيقة من التعليم تشكل جوهر العظيمة الاجتماعية لدى المجتمع العربي». لكن ما السبب وراء انتشار الخرافة في هذا العقل؟ هنا تجيبنا الإيديولوجية العلمية، وبكثير من الثقة والسماس أيضاً، بـ «أنها نابعة من صلب الإيديولوجيا الدينية ذاتها، وبسبب انعدام الحرية الفكرية والحرية الاجتماعية بالمفهوم التقدمي» وبسبب استمرار تحكم الفئات المحافظة ذات العقلية العشائرية العربية سواء مباشرة أو عن طريق بيروقراطيات

♦ - باحث سوري.

- ١ - د. حسن صعب: تحديث العقل العربي - دراسات حول الثورة الثقافية اللازمة للتقدم العربي في العصر الحديث (بيروت: دار العلم للطباعة، ٣، ١٩٨٠)، ص ٣.
- ٢ - د. إبراهيم بدران ود. سولي الخماش: دراسات في العقلية العربية: الخرافة (بيروت: دار الحقيقة، ط ٣، ١٩٨٨)، ص ٨.

ويُسميه برجوازيات عسكرية أو متعسكرة»^(١)، فالذين يلقب إذا براء انتصار الخرافة وانعدام الحرية - لا الحرية بإطلاق، بل تلك المشروطة بالمفهوم «التقني» فقط وإدغام السبب قد عُرف، فما السبيل إلى إزالتها لتعود الأمور إلى مجراها الطبيعي وليعود العقل العربي عقلاً بلا خرافة؟ هنا تُسارعُ الإيديولوجيا بالجواب: إنه «الثورة» التي تتحقق من خلال «علمنة وتحديث العلاقات والمفاهيم الإنتاجية والاجتماعية عن طريق التغيير الجذري المتواصل الواعي»^(٢).

قبل أن نُنتقل إلى نموذج آخر من الرمان على العقل وقدرته السحرية على التغيير، لا بد أن نُهَمِس في أذن هذه الإيديولوجيا سؤالاً نراه صعباً على التفسير لديها: فمن يقيم بهذه الثورة مادام العقل العربي سادراً في الخرافة؟

لننتقل إلى نموذج آخر، شقيق للسابق في الإيديولوجيا، ولكنه مختلف عنه في مقاربة الموضوع هذا الآخر لا يأتي العقل العربي من قبيل الخرافة وإنما يُعتبر أن العقل العربي كله في أزمة، ويرى أن الترفيز العربي للقائم الآن لا مخرج له سوى التسلب بالمنهج القائم على الذاتي والموضوعي، فشمة منهجان

رئيسيان، في زعمه، لطريقة صنع العرب حياتهم: للنموذج الراسمالي، والنموذج الاشتراكي. الأول أدى إلى تكوين عقل غير قومي وغير علمي وغير بدائي، ويَجهز تماماً عن تفكلي حالة الخلف الراهنة؛ بينما يؤذي الثاني إلى تكوين عقل قومي علمي بدائي مرتبط، دون مستوى العقل المطلوب للتفكلي المذكور.^(٣) وهكذا تصلف الإيديولوجيا العقل تنازلياً: إذ يفتقر ما يكون العقل وفقاً لها بكون علمياً وقومياً وبنائياً ويحتل المرتبة الأعلى، ويفتقر ما يزداد خصوصية لها بكون غير قومي وغير علمي وغير بدائي، وتترالجم درجاته إلى الحضيض ولكن إذا «كانت الراسمالية في البلاد العربية لم تُعمل على ابتكار قيم جديدة أو وجهة نظر جديدة لا عن العالم ولا عن الحياة وإنما ظلت قانعة بجهلها وراضية بيهيميتها [كذا]... فإن العقل الذي أمّتهت البورجوازية العربية في تكوينه لم ينشأ لا في صراع مع الطبيعة ولا في مواجهة الصناعة المتحضرة. بل يُمكن القول إن شروط تجهيل العقل هي حصدا للشروط المتحصنة»^(٤) وإذا كان هذا هو حال العقل العقل البرجوازي فما هو حال العقل

الاشتراكي في البلاد العربية؟ يقول الكاتب: «لقد خلق النموذج الاشتراكي لدى العقل الأوربي نزوعاً قومياً متنامياً، فيما يُلحِض أنه وجبة لبناء جامعة إنسانية شاملة. إلا أن الراسمالية خزلت عساره ليصبح تعصباً قومياً... أمّا في الاقطار العربية فإن القوى ذات التوجه الاشتراكي لم تنشأ على نحو واحد، بل أدى اختلاف العوامل الموضوعية والذاتية بين قطر عربي وآخر إلى تكوين أكثر من صيغة للتسكّم في تكوين الفكر الاشتراكي... وبالتالي أكثر من عامل لتعديد بنية العقل»^(٥).

وهكذا يُظهِر مدى مهمة الإيديولوجيا على العقل بل أن يكون العقل حاكماً للإيديولوجيا. فالعقل الاشتراكي، بحسب هذه الإيديولوجيا، يتلّ الفرض الوحيد للارزمة التي يعيشها العقل العربي، وكلّ خطأ أو انحراف ليس ناتجاً حتماً عن تركيبة هذا العقل (إذ هو براء من الاضطراب) وإنما تُشكّن إيمانه ويكتسب من اليسر إلى عوامل خارجية وإلى قوى التسكّم الراسمالية والرجعية التي تترسّس بهذا العقل.

يتساءل هذا العقل عن هيمنة التراث في الساحة الثقافية العربية، ويُقدّر أن العقل

١ - ٢ - المصدر السابق، ص ٨، ٩، ٣١٢.

٣ - ٤ - ٥ - د. حامد خليل، أزمة العقل العربي (مشرق: دار كنعان، ط ١، ١٩٩٢)، ص ٦٠، ٦٠، ٢٠.



بنية العقل العربي

دراسة تحليلية بشدة لظلم العروبة
في الثقافة العربية

المؤلف: محمد عبد الجباري



مع محمد عبد الجباري أصبح العقل وثقافته وحليله مدال اشتغال معظم المفكرين العرب

للشعوب العربية... شواهد وأدلة تُستوجب التأمل والتبصر في واقع العقل العربي لأنه هو الأخرى أن يُلام على ما أصاب الأمة^(١)، وهكذا يغيب أي سياق سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي لتفسير الأزمات المعقدة والمتشابكة، ويُفسر فقط «العقل العربي» بوصفه حلقة الأزمة ومعلولها. ومادامت الأزمة اختُصرت إلى هذه الرؤية فسطولها تُختصر أيضاً بالاعتماد على إمادة تشكيل العقل العربي؛ يقول الكاتب الإسلامي: «إن تحليل هذا العقل ومعرفة إيجابياته وسلبياته يُعد منطلقاً سليماً ومخلاً طبيعياً لأي محاولة من شأنها استعادة هذا العقل لرشده وحيويته ومن ثم الانطلاق نحو مستقبله المشرق»^(٢). علينا إذن، بحسب هذا المنطق، أن نُقتصر في مناقشتنا للتخلف العربي الراهن على العقل العربي بوصفه حلقة الداء، ونُشده عن المنهج الإسلامي هو سبب للعلّة، ولذلك فإنّ تنقيسه وفق هذا المنهج كفيلاً بإزالة كلّ هذا التسلط عن الواقع العربي^(٣).

يصبح بأعلى صوته: «إن الاستقراء التاريخي يُلنا على أن الإنسان يواجه حالات تُفرض عليه اختيار العنف طريقاً للحريّة والتقدم»^(٤)، فالثورة مطلوبة لتحديث هذا العقل العربي وجعله عقلاً علمياً اشتراكياً، والعنف مبرّر لتحقيق هذه الثورة طبعياً. بعد ذلك أن تُرفض هذه الإيديولوجيا أيّة قراصة أخرى للعقل، وهكذا يُتخبر أحدهم أن قراءة الجابري للعقل تُفري نزعة مثالية صارخة ولكلّها تحاول أن تُستّر هذه العودة بالقول ماديّة أو شبه ماديّة متناقضة^(٥) - وهذه حيولة إيديولوجيّة رئيسيّة في فكره، وغالباً ما يُجأ إليها في ستر دعواته أطروحتة^(٦).

ب - أصحاب الإيديولوجيا الإسلامية. ليست الإيديولوجيا الماركسيّة بدعاً بين الإيديولوجيات العربيّة التي واهنت على العقل باعتباره محرك التغيير وأداة. بل إن الإيديولوجيا الإسلاميّة اعتبرت أن ما أصاب الأمة من تضلّل، وتشتت في تعدد الأنظمة، واستطاع الحدود، إلى جانب فقر وجهل

العربي أصبح مصاباً بصرى التراث. ويجيب عن سؤال نفسه بنفسه: «إن ما حدث لا يدعو إلى التنازل، بل إن نبأ إن قلنا إن حجم التراجع الذي سجّله ذلك العقل كان أكبر بكثير مما حلّف من تقدم في هذا المجال، فقد وجدت القوى الرجعية الفرصة سانحةً للانقضاض على بقايا الفكر التقدمي التي لم تُسقط بعد، ونجحت إلى حد كبير في زعزعة ثقة الجماهير به، وبخسبه في خاتمة الدفاع القاتلة»^(٧)، لعدم قدرة العقل الاشتراكي على التغيير لا تعود إلى بنيته الداخلية، وإنّما إلى الممارس المفروب عليه من قبل القوى الرأسماليّة والبرجوازيّة والرجعيّة، بل من قبل الجماهير أيضاً التي يُجعل تعليمها وتثقيفها غايةً وهذه هنا تدور الإيديولوجيا على نفسها وتُثبّن أن أي طريق لتحديث العقل العربيّ إنّما يتطلب تغييراً نوعيًّا وكميًّا سريعاً في الفكر والسلوك، وليس هناك من يماري اليوم في ثورية التحديث... ولكن لتساؤل هو حول العلاقة بين الثورة والعنف، ولا يُترك الكاتب نفسه ولغائه نسخة لتقاطع الانفاس بل

١ - المصدر السابق، ص ٢٢.

٢ - د. حسن مصعب، مصدر سابق، ص ٢٢٤.

٣ - د. هشام غصيب، هل هناك عقل عربيّ؟ قراءة نقدية لمشروع محمد عبد الجابري (عمان: دار التنوير العلمي، ١٩٩٢)، ص ٢٦، ٤٣، ٢٢٦.

٤ - د. عبد الرحمن الطريوي، العقل العربي وإعادة التشكيل (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٢)، ص ٢١، ٥٤.

٥ - المرجع نفسه، ص ٩٠، وانظر أيضاً: د. محمد إبراهيم الميمني، تأملات في أزمة العقل العربي (القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠١٦)، ص ١٩٩١.

ولا تكتفي هذه الإيديولوجيا بذلك، بل تحاول أن تُرسِم ملامح للعقل العربي بعد عملية إعادة التشكيل المطلوبة. إذ من ملامح العقل العربي بمسورته الجديدة بعد إعادة تشكيله أن يُمَيِّز بين الحقوق والواجبات، وأن يتحوّل من حياة التّركيز والسكون إلى حياة الجهد والنشاط والحيويّة، وعليه أن يُكتسب خاصيّة العمل الجماعي، وأن يكون دقيقاً في تعامله مع غيره، وألا يكون مُشَيَّباً بوجهونه كما يشاؤون، وكذلك عليه أن يميّز بفصله للبائدة والمادة [1]»^(١)

ولكنّ كيف نُنتقل من المستوى الاجتماعي والتجسّدي إلى المستوى المعرفي؟ دون أن نُدرِك أن القفز غير ممكّن قبل عملية إعادة تعميم نظري للمعطيات المعرفيّة الموجودة ثم العمل على ربطها بالواقع القائم؛ إلّا أن الإيديولوجيا تُؤدّي فائدة على تجاوز كل ذلك رغم أنماطها التي تتبَيّن المنهج العلمي فما وجدناه لدى الإيديولوجيا للماركسيّة أو الإسلاميّة متقارباً من حيث الرهان على العقل عمداً سحريةً فائدةً على إخراجنا ممّا نحن فيه ونقلّنا إلى ما نريد أن نكون عليه، دون تحرُّر معرفي يقول بأنّ العقل

مشروط بطوربه التاريخيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة التي يعيشها ويتشكّل وفقاً وتأثيراته فيها.

ج - الجابري وأصحاب الدراسات المعرفيّة. الخروج من محل الإيديولوجيا وتجاوز المسبّقات النظرية: هذا هو ما كَلَمَت الدراسات المعرفيّة بتحقيقه، وعلى رأسها دراسة الجابري الأشهر في نقد العقل العربي. فالجابري يقرّر أنّ استخداماً لفظاً «عقل» بدلاً من «فكر» هو تجلُّب للإيديولوجيا وإبتعاداً عنها، لأنّ ما يهتمّ به ليس الأفكار بذاتها بل الاداءة المنتجة لهذه الأفكار.^(٢)

لم يُكُنّ الجابري مختلفاً عن غيره من أصحاب الإيديولوجيات في الرهان على العقل لتحقيق سيّحر التغيير. بل إنّه يكاد يكون الأكثر تعلُّقاً بهذا المسعر، إذ إنّه يفتتح مشروعه كالتالي: «إنّ نقد العقل جزءٌ أساسيٌّ وأوّلُ من كل مشروع للنهضة. ولكنّ نهضتنا العربيّة الحديثة جرت فيها الأمور على غير هذا للجرى. ولعلّ ذلك من أهمّ عوامل تعطُّرها المستمرّ إلى الآن. وهل يُمكن بناء نهضة بعقل غير ناضج، عقل لم يُكمّ برمجة شاملة لألياته

ومغاييمه وتصوّراته ورؤاه»^(٣) وهكذا توجّل النهضة بحسب هذا الخطاب، إلى حين حُصِمَ قضية نقد العقل، وإلى حين انتهاء عملية النقد والتفكير والتشريح.

لا أباغ في القول إنّ لحظة الجابري في نقد العقل العربي كانت حاسمة في الفكر العربي المعاصر. فلقد تمكّن من خلق إشكاليّة جديدة حين كان الفكر العربي ما يزال يتعيّش على الإشكاليات التي خلّفها له «صعر النهضة». وما الرهد والتعقيدات المتلاحقة عليه إلّا أكبر دليل على مدى تغلغل إشكاليّة نقد العقل في الخطاب العربي. بل إنّ مشاريع مضائّة تصدّت لمجابهة هذا المشروع^(٤) دون أن تنفي أهميّة هذا المشروع وحصيلته المعرفيّة الهائلة التي خلّفها.

لقد نقل الجابري الفكر العربي إلى حقلٍ جُفّر لم تطاه قديم بالأسفل الذي وطلّته قدامه. فأصبح العقل بقدته وتحليله مدار اشتغال معظم المفكرين العرب. الأمر الذي خلق حالة من السمر على «العقل» وفنّره المجيبة على التغيير. وما إنّ أحد المثقفين يتابعه فيقول: «ستُفتَح الأفاق أمام منظوماتنا المعرفيّة لتتأبّع

١ - المرجع نفسه، ص ٤٢.

٢ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط ٦، ١٩٩٤)، ص ١٢، ٥.

٤ - انظر جورج طرابيشي، نظرية العقل (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٧) وإشكاليات العقل العربي (بيروت: دار الساقي، ١، ١٩٩٨). وانظر أيضاً طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث (الدار البيضاء، وبيروت: المركز الثقافي العربي، ط ٢، ١٩٩٦).

تصاعدها في بذاتها الانثروبولوجي المعرفي المعاصر المؤكّد لهويّتنا... وبالتالي مستنقلاً إمكانات ومقدّمات الإجابة التاريخية عبر إنجاز مشروع نهضويّ عربيّ من خلال دولة وطنية عربيّة واحدة أداؤها الكتلة الوطنيّة الديمقراطية ذات الألق الانشراكيّ وعموم الساحة العربيّة، وتحقّق إمكانية فكّ الارتباط والاستقلال عن مراكز العولة الإمبرياليّة وسُقط أدائه المشروع الصهيونيّ^(١) على العقل العربيّ إذا أن يقدم الإجابة عن المشروع النهضويّ العربيّ وعن الدولة الوطنيّة العربيّة الموحّدة وهن الكتلة الوطنيّة الديمقراطية المشرّطة بالألق الانشراكيّ، وعليه تحقيق الاستقلال عن العولة الإمبرياليّة؛ وعليه - فوق ذلك كلّ - أن يصنّف الانتصار على المشروع الصهيونيّ، العقل العربيّ هنا أشبه بالعلاق الضخم^(٢) الماسور الذي سترحه عمليّة النقد ليحقّق كلّ ما نلّمح إليه، ولا ريب في أنّ هذه الصورة أشبه بقلم الرسوم

للمحرّكة التي تلتظّر لحظة وصول البطل ليحقّق الخير ويهزم الشرّ

إيديولوجيا العقل والصراع مع الذات

إذا كانت الإيديولوجيا العربيّة بكلّ تويناتها قد رامت على العقل بوصفه مفقّاح التغيير، فإنّ رمانها هذا لم يكن على العقل بإطلاق بقدر ما كان على العقل المؤطّر بالإيديولوجيا. ولذلك تستطيع القول إنّ الخطاب الإيديولوجيّ هو خطابٌ مفسّدٌ للحقيقة لأنّه لا يروم المعرفة بقدر ما يبتغي السياسة - والسياسة هنا ليست علماً له أصوله وقواعده وإنّما هي كسبٌ للانتصار والجماهير وتخيّصٌ للخضم والأخر. وهذا بدوره يؤكّد لنا أنّ العقل العربيّ هو عقلٌ مصانٌ ومحكومٌ بمسبّقات نظريّة محدّدة سلفاً. لذلك حقّ لبرهان غليون أن يقول: «لقد تحولَ مفهومُ العقل حسب حاجات الصراع الإيديولوجيّ فأصبح شعاراً يقصّد الانتماء إلى معسكر ضدّ

آخر، ونزّع شرعيّة الكلام عن الفصم»^(٣) وهكذا يصبح العقل مصحّ تجاذب التيارات الإيديولوجيّة كافّة، كلّ يدعي وصلاً له وتُسبّط إليه، الأمر الذي نزع عن العقل مفهومه الاعتباريّ بوصفه معيار الوعي بالذات والواقع وحوله أداة للصراع السياسيّ. وهذا ما أدّى أيضاً إلى إلغاء وظيفته في المجتمع بوصفه شرطاً من شروط التغيير الاجتماعيّ، ونسقاً مهيّئاً من انساق الفعل السياسيّ والاقتصاديّ.

إنّنا نحاول الاعتماد ما أمكن عن طرح مفهوم مثاليّ للعقل يُقرّله عن التلوّث بالواقع. كما أنّنا نحاول، وبالمسافة نفسها، أن نُجسّده عن أيّ مفهوم إيديولوجيّ يُقرّله عن الفعل وسُقطه في فحّ الصراع مع الآخر. وهذا ما يبرّر لنا التقسيم بين «المعرفي» والإيديولوجي^(٤)، ومع أنّنا لا ننكر أنّ المعرفيّ نفسه يتخلّله الإيديولوجيّ ويستكن فيه، فإنّنا نستطيع أن نحاذر المعرفيّ استناداً إلى الجرجة التي يتلقاها من الإيديولوجي - إذ هناك

١ - د. جمال الدين الخضوس، مأساة العقل العربيّ - دراسة في البناء الانثروبولوجيّ للثقافيّ المعرفيّ العربيّ المعاصر (دمشق: دار الحصاد، ط ١، ١٩٩٥)، ص ١٨٧.

٢ - يقول أشرف لالاند: «من اليسير أن يشعّر المرء من العقل عندما يطلب منه المحال. ذلك أنّ العقل ليس جناً، وليس عليه أن يجنّد من أجلنا معجزة اللحن من العدم، وإنّما العقل قويّة غير كبرى ذات آثار مرئيّة، ولكنّه لا يتكشف إلّا بعمله فيما يُنتج وفي نجاح مشروعاته أو إخفاقها». العقل والمعايير، تقديم وتعريب، د. عادل العرا (دمشق: مطبعة الشركة العربيّة، ١٩٦٦)، ص ١٩٦.

٣ - د. برهان غليون، اغتيال العقل - مجلة الثقافية العربيّة بين السلفية والتجديّة (بيروت: دار التنوير، ط ٢، ١٩٨٧)، ص ٢٥٠.

إيديولوجيًّا أقلُّ وأكثر، وما يَضْبِطُ ذلك ويوقِّته هو العقلُ نفسه بعد تحريره من مسبِّحاته النظرية التي تُأسره. وذلك لا يتأتَّى بِمَدْحِ العقلِ وِذْمِ اللاعقل، على ما نرى لدى الإيديولوجيا القرومية التي تُلصِّد من ذلك تمهيدَ العرب وتفضيلهم. يقول أحدهم في ذلك: «لقد أنشأ العربُ مذهبًا جديدًا عُرف بالمذهب العربيِّ أو الطريقة القرومية التي تقوم على جعل العقل المرجحَ والدليلَ والحكم... ممَّا كان له أكبرُ الأثر في التَّشكُّم الذي أصاب المعرفة الإنسانية من طريقتهم هذه...»^(١) لكنَّ عبدًا ناصولَ الحوصلِ على مفهوم واضح للعقل يُستدعي هذا الصلح من الدبج، إذ إنَّ كلَّ ما نجده لدى الكاتب شراهةً لِيُثَبِّتَ قارئةً بالمكانة الرفيعة التي احتلَّها العقلُ عند العرب، مبتدئًا بالقرآن وبالأصاديث النبوية، ومعرِّجًا على الصحابة ثم الفقهاء والحكماء، ومنتهيًا بالفلاسفة من مثل إخوان الصفاء وغيرهم

خاتمة: تحديد مفهوم للعقل

إنَّ الخروجَ من هذا الصراع على العقل يُشخصي بدءًا تمديدَ مفهوم للعقل لا

يُخرجه من تاريخه وزمانه، بل يعيد الاعتبارَ إليهما ركيزتين أساسيتين في بناء أيِّ نظام للعقل. وهذا النظام هو مخلصٌ تجرية اجتماعية وإنسانية شاملة في الوقت نفسه. ويجسِّد كلَّ مجتمع في تاريخ تمتعه هذا النظام، ويكرِّز جزئيًّا أو كليًّا تجرية المجتمعات كإفٍّ. والعقل وفقًا لذلك نظامٌ مركَّب ومكتسب، وهو مرتبطٌ بثقافة تُكسِّس الشروط الاجتماعية والتاريخية التي أنتجها والإشكاليات التي صاغتها.^(٢) الفعل الاكتسابي للعقل يُبقي عنه المفهوم الذي شكَّلته الدراسات البنيوية والحفريات، وعفاده أنَّه عقلٌ سكوني تشغل وانتهى في الماضي وأُثِّبَ إسمًا نعيش رواسيه ونتأخَّر. فالحقُّ أنَّ «العقل لا يورث ولا يُكتشف بل يُكتسب بالتجربة المتجددة: فعقلُ الفرد هو حصيلة تجرية جماعية تتلخَّص في عقلية. العقل إذاً عقولٌ، وكلُّ واحد مرتبطٌ بسلوك جماعي»^(٣)

وذلك نامل أن نكون قد حاولنا تَرْغِ الأسطرة عن العقل وإعادة الاعتبار إليه، مع احتفاظنا باستقلاله عن التاريخ وانتماجه معه في الوقت نفسه. وذلك

أيضًا نامل أن يدقَّ العقلُ ما نُظِّيه منه، بِكَلِّ أن نطْلُقَ عليه أحلامًا وأوهامًا زائفة لا تُنتِج إلَّا عكسها.

دمشق

١ - تيري حافظ طوقان، مقام العقل عند العرب (القاهرة: دار المعارف، د.ح)، ص ١٣.

٢ - د. بربان غلين، مصدر سابق، ص ١٩٨.

٣ - عبد الله الحروي، مفهوم العقل - مقال في المفارقات (الدار البيضاء وبيروت، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٦)، ص ٢٢٣

فزاعة الأرقام والورق

• محمد الهادي بوقرة •

مَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْبَقَاءَ،

غَيْرَ كُلِّكَ يَهْرَبُ مِنْكَ وَيَنْدَسُ فِي،

وَكُلِّي يَهْرَبُ مِنِّي وَيَنْدَسُ فِيكَ،

عَلَى وَجْهِ هَذَا الْمَلَأَ،

فَإِذَا نَحْنُ

وَرْدَةٌ مَعْنَى

يَخَالُ تَوَلَّدْنَا فِي وَرْدَاتِهَا

كُلُّ بَرْدِ الشَّيْءِ؟

مَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْبَقَاءَ؟

مَدَّ هَرَبْتُ مِنَ الْمَوْتِ ثُمَّ هَرَبْتُ إِلَيْهِ،

تَقَبَّعَنِي فِي الْمَقَاهِي وَلِي لَفَاتِ الشَّيْءِ.

وَهَرَبْتُ مِنَ الْمَوْتِ ثُمَّ هَرَبْتُ إِلَيْهِ،

وَفِي اسْفَلِ الْجَبَلِ،

نَحْنُ اكْتَشَفْنَا مَعَا

أَنَا، أَنَا وَالْمَوْتُ كُنَّا وَتَمَلَّ الْحَيَاةِ،

فَلَاكُنَّا أَصْدِقَاءَ

تُرْتَدِّي نَفْسُ هَذَا الطِّيَاحِ

وَلَتَشْرَبُ نَفْسُ الْعَذَابِ

وَتَرْتَدُّ فِي نَفْسِي هَذِي الْفِيَابِ

وَفِي نَفْسِي هَذَا الْحِلَاءِ.

♦ ♦

فَهَوْتِي مُرَّةً دَائِمًا ..

وَأَنَا لَسْتُ حَيًّا .. وَلَسْتُ قَبِيلاً.

غَيْرَ أَنَّ الْحَبِيبَاتِ يَذْهَبْنَ قَبْلَ إِشْعَالِ الْهَوَى،

أَوْ يَجْنُنَ يُعَيِّدُ فَوَارَاتِ الْأَوَانِ قَبِيلاً،

وَيُخَلِّقُنِي فِي سُدَى الْعَالَتَيْنِ

أَعْضَضُ قَلْبِي،

وَأَرْقِعُ وَحْدِي إِلَى قَمَرٍ فِي الْقَصِيدَةِ،

هَذَا الْعَوَاءِ.

♦ ♦

مُرَّةً فَهَوْتِي دَائِمًا

غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ فَعِي،

فِي كَنَافَةِ ذُقْنِي وَالشَّارِبَيْنِ،

نَهْيًا عَشًا.

كُلَّمَا قُلْتُ لِي تَرَامِي،

تَتَقَاطَعُ فِي الْمَعَانِي عَلَى أَغْطِي

وَالْقَصِيدَةِ فِرَاعَةُ الْوَقْتِ ..

عُودَانِ .. شَكَلَ الصَّلِيبِ الْمُنْتَبِتِ فِي دَاخِلِي ..

كُسِبَ مِعْطَا بَالِيَا مَدَّ كَسْبِهِ فِي الْجِهَتَيْنِ.

وَرَأَيْتُ قِلْدَرٌ مُعْلَقَةً مَلَبَتْ وَجْهِي جَيُوبِي،

.. أَغَانِي .. وَبَيْضًا .. وَقَفَا ..

وَأَنَا وَالْقَا كُنْتُ أَوْ أَلَمْ تَشَى

يَهْرَبُ النَّاسُ، أَوْ هَؤُلَاءِ ..

يَهْرَبُ الْكُلُّ مِنِّي، حَتَّى إِذَا أَسْكَنْتُ بِيَدِي طِفْلَةً

وَمَضَتْ بِي إِلَى فِرْعَ فِي الدُّمَى

وَجَدْتَنِي طِفْلًا يَكَادُ يَكْسِرُنِي الدَّمْعُ، هَهُنَا.

وَضَمَمْتُ إِلَيَّ الْعَدَى،

وَقَفَعْتُ لَهَا بَيْنَ جَنْبِي أَجْمَلَ مُمْسَى ..

وَأَحْلَى سَمَاءَ.

♦ ♦

مُرَّةً فَهَوْتِي ..

وَأَنَا ذَاهِبٌ فِي الْقَعِيدِ إِلَى قَلْبِي،

أَسْكَنْتُ بِيَدِي طِلْفَنِي

وَجَرَّتْ بِي تَبْعُزُ كُلِّ الرُّبُوعِ عَلَى طَرْفِي.

ثُمَّ مَالَتْ عَلَى وَجْهِي ..

سَأَلْتَنِي أَعْطَيْهَا صَوْرَتِي،

فَقَطَّاطِرُ حَبِّ الثَّدْيِ وَتَبِيدَ السَّمَاءُ

شَجْنَا وَجْمَانَا عَلَى أَشْلَعِي.

وَتَرَكْتُ لَهَا دُمَيَّةَ الْخُرْقِ،

قَلَمَيْنِ وَحِيدَيْنِ كَانَا مَعِي

وَرَجَاةٌ مَحَبَّرَتِي

وَبَقِيَّةُ مَا عَشْتُ أَلَسَ مِنْ وَرَقِي.

لَمْ عُدْتُ إِلَيَّ،

فَوَقَفْتُ عَلَيَّ،

وَمَضَيْتُ، بِغَيْرِ عَزَاءٍ.

♦ ♦

مَرَّةً دَائِمًا قَهَوْتِي ..

وَأَنَا طِفْلَتِي

بَقَيْتُ طِفْلَةً تُشْتَهَى فِي النَّسَاءِ.

تَسْلُقُ وَجَدَ النُّجُوبِ عَلَيَّ مَا تَكْسِرُ مِنْ

أَضْلَعِي،

وَتَلَاغِبُ أَطْفَالَهَا فِي سَرَابِي وَفِي قَهْوَةِ

الشُّعْرَاءِ،

وَتَعُودُ إِلَى حُرْبَةٍ فِي الْقَصِيدِ، مَعَ

الْمُفَرَّاءِ ..

فَتَقَاسِمُهُمْ جَنَاطِي،

وَقَدِيدِي،

وَمَا تَرْتَبِّبُ لِي فِي الْعِبَارَةِ مِنْ أَدْمَعِي،

وَتَقَاسِمُهُمْ مَزْكِي.

فَإِذَا أَجْدَبْتُ فِي الْمَوَاسِمِ أَعْدَابَنَا،

أَخْرَجْتَ دُمَيَّةَ الْخُرْقِيِّ

وَتَعَالَى الْحَدَاءُ:

دَامِي طَيِّبٌ يَسْتَخَابُهَا

طَلَبْتُ رَبِّي مَا يَخْبِيهَا،

وَهِيَ غَيْرُ الشَّوَارِعِ تَسْتَنْزِلُ الْغَيْثَ

لِلْمَوَسَّاءِ

وَتَمْلُقُ فِي كُلِّ نَافِلَةٍ،

وَعَلَى كُلِّ بَابٍ،

حُزْمَةٌ مِنْ غِنَاءٍ.

♦ ♦

مَرَّةً دَائِمًا قَهَوْتِي ..

مَرَّةً دَمْعِي ..

وَأَنَا الْعَائِدُ الْآنَ لِي،

يَهْرَبُ النَّاسُ، أَوْ هَوْلَاءُ،

وَيَفِرُّونَ مِنِّي عَلَى طَرُقِي،

مَا عَدَا طِفْلَةً وَسَطَ السَّاحَةِ احْطَجَمَتْ

وَعَلَى صَدْرِهَا دُمَيَّةُ الْخُرْقِيِّ،

يَتَطَايَرُ مِنْ حَوْلِهَا مَا تَنَافَرُ مِنْ وَرَقِي،

وَعَلَيْهَا، وَلِي ..

حَبِرُ هَذَا الْبِكَاءِ.

قِصَّة (تونس)

نَمَ فِي هَئَاءَ .

يَا أَيُّهَا الطُّفْلُ الَّذِي رَضَعَ الْعَذَابَ مِنَ الْوِلَادَةِ لِلْهَئَاءِ ..

نَمَ فِي هَئَاءَ .

لَا .. لَيْسَ ذَنْبُكَ أَنْ مَرَضْتَ فَلَمْ تَجِدْ بَعْضَ الدَّوَاءِ .

لَا .. لَيْسَ ذَنْبُكَ أَنْ حَرَمْتَ مِنَ الْحَلِيبِ .. مِنَ الْغِذَاءِ .

لَا .. لَيْسَ ذَنْبُكَ أَنْ قُتِلْتَ بِغَيْرِ جُرْمٍ أَوْ سَبَبٍ .

كَتَبْتَ لَكَ الْيَوْمَ هَذَا الْمَوْتَ يَا وَلَدِي .. إِلَى أَيْنَ الْهَرَبُ ؟

هُوَ رُبَّمَا ذَنْبِي لِأَنِّي مَا سَرَقْتُ لِأَطْعِمَكَ .

هُوَ رُبَّمَا ذَنْبِي لِأَنِّي مَا نَهَيْتُ وَمَا قَتَلْتُ وَمَا فَجَرْتُ وَمَا .. كَفَرْتُ لِأَطْعِمَكَ ..

لَكِنْ حَبِيبِي .. لَيْسَ ذَنْبِي أَنْ دَعَوْتُ فَلَمْ تُجِبْ طَلَبِي السَّمَاءَ ..

نَمَ فِي هَئَاءَ .

♦ ♦

نَمَ فِي هَئَاءَ .

فَلَكُمْ حِلْمْتُ بِأَنْ أَغْنَيْتُكَ السَّعَادَةَ وَالسُّرُورَ ..

وَلَكُمْ حِلْمْتُ بِأَنْ أَشْبَدَ لَكَ الْقُصُورَ ..

وَبِأَنْ تَعْصِي عَلَى يَدَيِ اسْتَأْثَلَكَ الْأُولَى ..

وَبِأَنْ تَسِيرَ إِلَى غَدِي خُطُوبًا لَكَ الْأُولَى ..

أَنْ تَحْرُسَ الْوَطَنَ الْعَزِيزَ كَمَا حَرَسْتَ حُدُودَهُ دَهْرًا طَوِيلًا ..

أَنْ أَرْقُصَ «الْجُودِي» بِعُرْسِكَ يَا حَبِيبِي .

لَكِنْ .. قُتِلْتَ .. وَلَمْ تُحَرِّكْ سَاكِنًا ؛ هَذَا نَصِيبِي ..

هَذَا نَصِيبِي .. أَنْ تَمُوتَ عَلَى يَدَيَّ .. وَلَسْتُ أَمْلِكُ أَنْ أَعِينَكَ بِالدَّوَاءِ ..

نَمَ فِي هَئَاءَ .

♦ ♦

نَمَ فِي هَئَاءَ .

يَا مَنْ حَقَرْتَ الْحُزْنَ فِي قَلْبِي وَأَعْجَزْتَ الرِّثَاءَ .

لَوْ اسْتَطَعْتُ ..

أَهْدِيكَ عُمُرِي كُلَّهُ .. لَوْ اسْتَطَعْتُ ..

أَهْدِيكَ أَيَّامَ الرَّبِيعِ .

لَوْ اسْتَطَعْتُ ..

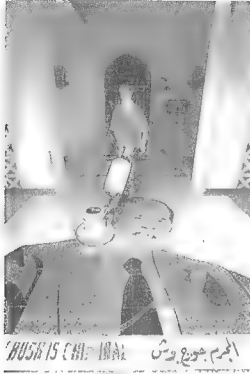
أَخْرَجْتُ خَيْجَرَ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّذِي سَكَنَ الضُّلُوعَ .

تنويع الطفل القليل

• محمد مُنذِرُ الْعَانِي •

دَقُول.. يَا الْوَلَدُ يَا بَنِي.. دَقُول...
تَمَنَيْتُ أَنْ أَغْنِيَهَا لَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ... وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ
هَشَّتْهُ الْحَصَاةُ لَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا أَنْ أَغْنِيَهَا لَهُ
وَهُوَ مَيِّتٌ..

لو أستطيع ..
 أهديك ما تهوى وما تحتاج يا طفلي الرضيع .
 لو أستطيع ..
 أهديك جسمًا لا يجوع ..
 أهديك عمرًا لا ترى مرضًا به .. لو أستطيع ..
 لو أستطيع ..
 أهديك بعضًا من دواء ..
 ثم في هناء ..
 ♦ ♦
 ثم في هناء ..
 ثم يا حبيبي .. قد شربت المرُ مجبوراً إلى حدِّ اللاماله .
 ثم يا حبيبي ..
 فعني رأيت بهذه الدنيا عداله !
 ثم إنَّ خيرًا ما فعلت .. فهذه الدنيا حقيره
 تُعطي الرضيع مراده .. وتعين من ينسى ضميره
 وتُدوس أحلاماً صغيره ..
 لتلدوق آلاماً كبيره .
 ♦ ♦
 يا طائري المذبوح .. أتمك الصبراع مع الحياة .
 ثم .. إنَّ أوجاع الحياة أتمر من وجميع الملمات .
 ثم أنت ، واترك لي اللُحوع ..
 وامتنع عن الشمسِ الطلوع .
 إذْغَبْ لَقَدْ صَدَعَ البُداء ..
 وفتحت بالآلام أبواب السماء .
 ما عاد ينفعك الدواء .
 ما عاد ينفعك الدُعاء .
 ما عاد ينفعك البُكاء .
 مت في هداء .
 دَلِّلْ .. يا الولد يا بني .. دَلِّلْ ...



كنّا في العراق رحلة إلى بلاد التاريخ والجغرافيا الممزقة

دخلنا بوابة فندق الرشيد الشهير في الساعة الحادية عشرة ليلاً. كان هناك بضعة رجال تكلّموا ليحاً من وجوههم كي يُقلّم المرء أنّهم رجال أمن. صعد واحدٌ منهم باب الحافلة وأدار عينيه بخجل. تنحنج وأنشأ خطاباً الترحيب، الذي سنُلمّس وجوده الدائم على السنة العراقيّين أينما ذهبنا: «هلاً... هلاً عيني. هلاً وللاً... هلاً بالإخوة السوريين». فيما بعد سنُعلم أنّ الأميركيّين ليسوا وحدهم الذين استُقبلوا الفندق وإنّما جرى فيه تعجيران. وسنرى بعد المدخل مباشرةً معرضاً دائناً يتضمّن صوراً فوتوغرافية لشهداء الفندق، منها صورةٌ لفتاة حلوة تهتسم للكاميرا بروح عبّية.

كانت امتحاناً ماتزال على الرصيف، عندما استمعنا للدخول تشوّكاً للدعس على صورة بوش التي تحتلّ موقعاً لا يُمكن تجنّبه. وككّنا قد تداولنا عبر الطريق الطويل نقاشات عن جدوى وطء صورة من رخام للرجل الذي أذاق العراقيّ الوليل: اليس من الأجدى أن يسلك العراقيّ سلوكاً يُدخله إلى عالم اليوم، حتى لو كان عالمًا من نفاق أكثر منه عالم صدق وأخلاقيات؟

بوش الأب يكثر عن أسنان دراكولا في المرمر. والدُمّ الأحمر يغطيّ جانبيه قمه. أنا ممن يؤمنون أنّ التعقّل سلوكٌ لا بدّ منه لمن يريد انتزاع حقٍّ، ومع ذلك نسُت على صورة بوش بتشيف غريب! شعرت وأنا أضع قدمي على وجهه في المرمر أنّني لا أخطئ في شيء، وأنّني أمارس نوعاً من التعبير بالهذاء في لحظة لا تُعاد. في اليوم التالي سأراقب رجالاً يابانيّاً يُباعد قدميه بطريقة مضحكة وهو يخطو كي لا يبدس على وجه بوش فوجدتني فيما بعد مدفوعاً، ليس من دون شعور بالالجدوى، إلى إنقال قدمي نكابةً كلّما مررتُ عبر الباب.

في الصباح كان لا بدّ من حضور حفل افتتاح المؤتمر ويُعقد رسوم التسجيل، على الرغم من أنّ دافع سفرنا الأول - نحن السبعين طبيعياً سورياً - كان على الغالب رؤية العراق. اليس طبيعياً أنّ يحدّث هذا بعد قطيعة دامت ثلاثين عاماً؟ لا خجلٌ إذن في القول إنّ سبب سفرنا إلى مؤتمر علميٍّ لم يكن علمياً.

كالعادة دخل وزير الصحة العراقيّ بثياب عسكريّة. أتتّع في شيء ثياب تدلّ على عسكريّة الحكومة بينما، مثلاً، شارون بثيابه المدنيّة يعسكر على مماء الفلسطينيين؟ ممّن رأى طارق عزيز يتحدّث وهو يلبس البذلة العسكريّة؟ أكانت تليق بحديثه الذي كثيراً ما رغب بوضوح في أن يعطيه طابع الثقافة العميقة؟ ممّن رأى طه ياسين رمضان الذي يحبّ كما يبدو أن تكون بذلته ضيقة على الرغم من أنّ حديثه بات يتسم شيئاً فشيئاً بالوسع والراحة؟ لكنّ اليس العراقيّ في حالة حرب؟ أفلا يحقّ له إذن ممارسة سلوك رمزيّ كهذا؟ في قاعة المؤتمر، التي بدت لنا أعظم من أن تكون في بلد محاصر، كانت شُمة مجموعة من الأطفال لا تخطئ العين يؤسّس في أحديتهم، ولكنهم كانوا في ثياب احتفالية. في عيونهم المباحات تركّز ودمعة. سرعان ما علمنا أنهم تلاميذ مدرسة للصمّ والبكم.

بدا الاحتفال، وأخذت السيّدة التي ترعاهم مكاناً في المرّ بين الجمهور. شرعت بالإيماء مع الموسيقى: موسيقى لصبّ عيون الأطفال مسلّقة بالإشارات: طيران وتطليق بالآلتر، علامات ضمّ نحو الجوانح في الداخل، علامات برفقة الشفاء وبالجسد رغبة في الكلام، ثم في النهاية إلحاح في الإشارات المتكررة نحو صور... لقبة الصخرة المقدسية. مُستطعناً الفائق: كنت أتحرق رغبة في انتهاء التشكّلات، كي أزوّع هارباً إلى قلب بغداد، بينة الغياب أولاً إلى شارع المتنبي، في الاستراحة، ولأنني لا أعرف عنوان أيّ مثقف عراقي، سألت أحد النظمين عن عدد منهم، فلم أحظ سوى بعنوان الشاعر حميد سعيد، الذي علّمت أنه كبير أمّاء بيت الحكمة. أعترف أنّ الاصطلاح هالتي: «كبير أمّاء بيت الحكمة» لكنّي بتّ املك عنواناً على الأقلّ.



سيّارات الأجرة في بغداد كثيرة كثيرة كثره النمل، وسائقوها هم الشريحة التي سنحتك بها أكثر من غيرها. إنّما لا يقدّم أن تباغتك سيّارة خاصة تراحم للفوز في اقتناصك. نسبة عالية من السائقين حملة شهادة اطرطيا مال بهم الزمان مثلكا مال بالعراق. يابست السائق بحتيّة تمتدّت أن تكون بلهجة سورية واضحة، فأنشأ السائق على الفور مطوّلة الترحيب التي سنستأداها. السائق خريج رياضيات، وأمثلة كثر يقتلهم الحياء كلّما أخرجنا النقود للفعّل الأجرة. فيما بعد سنشترع في الهرب بعد إلقاء النقود على المقعد. طبعاً لم يكن جميع السائقين يمثل هذه الروح: فالأولاد في البيت ينتظرون اللّعمة.

شارع المتنبي يكتس جزءاً من حال الثقافة العراقية. ومن حال المثقّف العراقيّين مكتباً لها طابع أشبه بدكاكين البقالة في الأسواق العربية القديمة، تفصّ بالكتب، جلّها قديم، والحديث منها تراثي وتاريخي. على الأصفة باعة كتب وأقراص كمبيوتر. أخذت الرصيف دهاياً وإياباً وأنا أسأل من الطبعة غير المهيّبة لـ ألف ليلة وليلة، من طباعة مطبعة بولاق المصرية وتصوير دور النهضة في بغداد، فأنطلي إجابة واحدة: «ما كراه» ثم شرعت في الدخول إلى المكتبات واحدة واحدة، فيرخبني في علم الغرام فور أن تلتقط لهجتي. هنا أيضاً لم أستطع الحصول سوى على هاتفي لطفية الدليمي وماجد السامرائي، رغم أنني سألت عن كثيرين. قال رجل يفتش في الكتب مثلي حين سمعني أسأل عن لطفية الدليمي: «هذي كاتبة شيوعية». ولما رأى أنني لم أرتكس، أعاد: «... كاتبة شيوعية» مصرّاً على النظر في عينيّ قلت: «وإذا كان؟» لاحقاً عندما متفتّحاً للطفية قلت مداعباً إنّ رجلاً قال ذلك وكذا، فارتبكتم وهي تقول: «لا... ولا...» ففترت الحديث لأنّما نفسي على افتتاح أول حديث هاتفي بنميمة كهذه.

صاحب مكتبة أربعينيّ العمر أحظ لهجتي وحركتي بين المكتبات. دعاني إلى كاس شاي بطريقة تُظهر رغبة في الحديث. تعارفنا سريعاً. ولأنّ كُتيّبه كانت ذات جرس تاريخي – «الجنّابي» – فقد مازحته عن درجة القرابة التي تربطه بابي سعيد الجنّابي وعما إذا كانت فرسه لاتزال مقيّدة إلى جانب قبرها ذلك المزاج كان مفتاح الدخول في حديث دام طويلاً، اقتنيت خلاله بضعة كتب، وعلّمت خلاله أيضاً أنّه كان كاتب قصّة وإنّه ترك الكتابة احتجاجاً. لن أنسى الغصّة التي تكلم بها وهو يشكو من إغلاق الصفحات الثقافية في الجرائد العراقية على أسماء قلّما كانت جديرة، أمّا أكثرها فمتسلّق تسلّق النبات الطفيليّ. عند الباب اهداني كتاباً لجنّابي آخر. مازحته مواسياً: «كلّكم، آل الجنّابي، لم يتّجكّم التاريخ، فارتبم الاستيلاء على الثقافة أيضاً»



كنا بداءً من الحدود قد شمعنا رائحة تعطش العراقيّين إلى علاقة اقتصادية مع سورية. وهو أمر مفهوم. لكنّ العطش الأكبر، بلّ السُّهاف الذي لا يرتوي، كان في رغبتهم في علاقة أعلى إنسانياً. إنّما الرغائب شيء وواقع الحال شيء آخر. فقد صرفنا بين النقطه الحدودية السورية والنقطه العراقية أربع ساعات، ثلاثاً منها عند إخواننا العراقيّين. هذه الفترة الدهرية في الانتظار لم ينقص منها فرح رجال الأمن والجمارك بالعلاقة المستجدة: أنظّم كانوا فرحين ومتحمسين بسبب استئناف وظيفتهم بعد طول قعود. إنّ «العمل» على الاشباز الأخيرة من الأرض السورية يقوم نُصبّ بالطلول الكامل للرئيس الراحل حافظ الأسد، بابتسامته الخفيفة الشهيرة. وعلى الانبهار الأولى من الأرض العراقية يقوم نُصبّ آخر بالطلول الكامل أيضاً للرئيس صدام حسين بلامحه الصارمة. كلاهما له واجهة تطلّ من الجهة الأخرى على أرض بلاده. التُصنّبان يقومان على قاعدتين ترتفعان مترين، ويقيس كلّ منهما خمسة أمتار ارتفاعاً بعرض ثلاثة أمتار تقريباً. سألت أحد رجال أمننا: «مَنْ الذي بنى نُصبّ رئيسه أولاً، نحن أم هم؟» حدجني بنظرة تستطلع ما وراء السؤال، ثمّ غمغم: «أنا جديدهُ هنا»

في إحدى مراحل تخليص أرواقتنا كان مؤلف عراقيّ وحيد يقوم بعمل تقيل، يكسّس الجوازات. يتناولها واحداً واحداً. ينظر إلى الاسم والمهنة وصفحة التأشيرة. يكتب الاسم والمهنة وسبب الزيارة على البورق، ثم يُخلّعه إلى الكيبورتر. يُختم الجوازُ بختم تبين لنا أنّه خاصّ بعام ٢٠٠١. يُصمّح رقم الأعداد من ١ إلى ٢ دينويّاً. يُزيح الجوازُ إلى الطرف الثاني. ولّا انتهى، نادانا باسمائنا واحداً واحداً.



فور صعودنا الحافلة متجهين إلى قلب الأرض العراقية، انقسمنا بين من يريد المرور بمدينة الرمادي، ومُستعجلين لا يريدون ذلك. الفرق حاسمٌ هنا بين طريقٍ عاديٍّ وطريقٍ سريع. شيئاً فشيئاً علمنا أنّ أحداً كان قد متف لأقاربته الذين يسكنون مدينة الرمادي، وأنّه يُحمل هدايا لهم. حسّم وجود الهدايا النقاش لصالح المرور بالمدينة، وأظننا جميعاً وجدنا لباقةً طريفةً في أن يُحمل واحدٌ منا هدايا لأفراد عراقيّين لا نعرفهم نحن ولا صاحبي الهدايا يعرفهم. وعندما علمنا أنّ البيت الذي سنمرّ به يقع أمام فرع حزب البعث في الرمادي انطلقت التعليقات والنكات التي تصبّ في معنى واحد: «أول ما ألتا هجم قُتل!». ليس من غرابة هنا. لفظُ اسم «العراق» مجرد لفظ، كان في نفوسنا مشكلةً أمنيةً قبل فترة يسيرة. يتداول السوريون نكتةً معيّنة عن رجلٍ تقدم لعصوية خبز البعث، ومن الأسئلة التي يُفحص بها طالب الانتساب سأل: «ما يحذّ سوريت من الشرق؟» صمت الرجلُ صمتاً عميقاً، ورغم محاولات الإيحاء والتقصير والمساعدة ظلّ صامئاً. وهو ما دفع بأحد أعضاء اللجنة الفاحصة إلى الاستنكار: «غريب! الا تعرف أنّ العراق يحد سورية من الشرق؟» فاستبشر الفحوصُ متخلصاً من مازقه صارخاً: «أنت الذي قلت ذلك، أنت الذي قلت ذلك»

كانوا في انتظارات: شيخ كبير في السن يُرحّب بصوتٍ عالٍ، ومجموعة من الشبان تردّد الترحيب بصوتٍ أخفض، والقبلاّت لنا جميعاً. دخلنا إلى مضافةٍ بسيطةٍ مفروشة بالسجاد، وحول الجدران اصطفت مقاعد. البيت من الخارج ومن الداخل يضيء بالفتى. أوّل الضيافة ماءٌ ممزوج بالهيل، ثم الشاي، فالقهوة. لاحظ مضيقنا أنّنا تنهاس برغبتنا في المفاداة. فقال بصوت مرتفع: «غدواكم، الذي أصبح عشاءاً، جاهز». تسابّح بعضنا ممن لا يُعرف عادات الضيافة القبلية بالجهل: «لقد جئنا... نغدينا في استراحة». ظلّ الرجل هادئاً وهو يلفظ مازحاً: «غدواكم طعامنا أولاً. ثمّ إنّنا لن نسمع بحلم معكم» وبقوياً إلى جنب طاولة مدينة عامرة. تناولنا - نحن الأفراد الستة والعشرين - طعاماً لذيذاً، ناسين أنّنا أكلنا منذ ساعتين وأننا صرنا بذلك.

في الحادية عشرة كنا في باحة الفندق، بعد أن اجتزنا جزءاً من بغداد نتأمل اللافئات والأضواء والأبنية التي لاحظنا ميكرين جراءة مصمّمينها في دفع الشرفات إلى الخارج وكأنّها تريد أخذ حيزٍ إضافيٍّ: لهذا علاقةٌ برغبة العراقيّين في ميناء يُطلّ على الخليج؟ لهذا علاقةٌ بالزريعة للعراقيّة في الكويت؟ أو تتوقّ الذات العراقيّة إلى الامتداد؟

من قرب شارع المتنبي أخذتُ سيارةً إلى بيت الحكمة، وعلى الفور شرعت في الحديث مع السائق. هل قلت من قبل إنّ السائقين كانوا محاربين الأكثر جرأةً سألته عن نظره، عن عقله وعد أولاده، عن التعليم، عن الأمن في البلاد. هو الآخر مهندس يعمل صليح.



بيت الحكمة مثلما يراه المرء في التلفزيون: واجهة تنطق بهيبة التاريخ. بابٌ خشبيّ عتيق وضخم. بلاطٌ حديث لا يتسجم والإحساس بالتليد يفلّ التاريخ. سألت رجلاً خلف طاولة في غرفة سقّتها العالي يبرز عدم الأساق بين الضخامة والفخامة في الجدران والنوافذ من جهة، والضالّة في المكتب وفي حجم ذلك الرجل من جهة ثانية: «أنا كاتب وطبيبٌ سوريّ. هل لي أن أقابل كبير الأمناء الشاعر حميد سعيد؟» نهض الرجل بفضةٍ مرحّماً. هتف لأحدنا معلّناً وجودي بكلماتي ذاتها، وانتظر قليلاً ليُقنمني أنّه في اجتماع وأنّه سيرسل إليّ مدير مكتبه، الذي حضر سريعاً وأبلغني بكلماتٍ موزونة كما لو أنّه اعتاد لفظها كثيراً: «الاستاذ حميد مشغولٌ جداً، ويحتمى عليّ أن أقبل - إذا سمح وقتي - موعداً عند الساعة السادسة مساء الغد». وعرض عليّ مرافقته للتعرّف على نشاطات بيت الحكمة، فقبّطه وهو يولي ببيان الملاحظات: «هنا جدول مواعيد النشاطات. محاضرات. حوارات. أمسيات. بيت الحكمة كان قصيراً لآنية الخلية العباسي». ثمّ يمارستان. ثمّ حوّه الأثرأ استيطاً للخيول. ويعد ذلك اتخذته البريطانيون مصنعاً للسيارات. فيما بعد عندما ساقابل حميد سعيد سيُلفظ مركزاً تحت إحصاسه بدشتي: «نحن هنا في بيت الحكمة. هايد پارك بغداد. نعم هايد پارك بغداد»



... مساءً اليوم التالي وصلت متأخراً عن موعدي نصف ساعة؛ فالساعات في بغداد مسافاتٌ سفر حقيقيّ. فور دخولي والفتني رجل إلى باب غرفة في الطابق الثاني. حميد سعيد خلف المكتب. أعرف صورته من الصحف. معه رجلٌ تذكرتُ فوراً أنّه هو الذي كان يلق على البرنامج الذي أثار السعوديين عبر الفضائيات العراقية. تعارنا بؤظ ظاهر. كان الرجل هو الدكتور قيس محمد نوري



الذي سألهم منه رقة لطفاً لم يكن يوحى بهما برنامجه الذي تابعه السوريون بنوع من الاهتمام غير معزول عن الهاجس السوري الأبدى في تحسس أحوال الأمة. شت بنا الحديث هنا وهناك: من علي الجندي، إلى معزود صفوان، فبرهان غليون الذي حصن بنوع من التلميح الغامض، وانتهاءً بمحمد الماغوط الذي علمت هناك - في بغداد - أنه مريض يكاد لا يرى بعينه. عرّجنا على حال الصحافة السورية والعراقية. سئلت عن صحيفتي علي فوزي، وكانت متوقفةً آنذاك، فقلت إنها توقفت بسبب عزيم الحكومة على توزيعها من قبل مؤسسة للتوزيع حصراً، وهذا يعد من أرباح صاحبها وربما من عمله أيضاً. تحمّس الدكتور قيس في كلامه: «عندنا مؤسسة تقوم بالعمل ذاته. إننا اسميها المؤسسة الوطنية للتوزيع لأنها لا تقوم إلا بالتوزيع حصراً!» أخيراً وصل الحديث إلى بيت الحكمة، فنطق كبير الأمانة بتلك الجملة التي ادهشتني وبيدت لي خارج مالف معرفتي عن العراق: «نحن هنا في بيت الحكمة - هايد پارك بغداد - أعادها مرتين وهو يرى التعبير الذي ارتسم على وجهي، مُضيقاً: «حتى الشيوعيون يأتون للمناقشة وعرض أفكارهم» لا بد أن دهشتي كانت مضاعفة - مرةً للهايد پارك، ومرةً للشيوعيين. وكان حديثي، الذي ذهب إلى نقد خفيف للصحافة العراقية التي كنت أطلع عليها عبر الانترنت، قد فتح باباً ذا شجون، إذ سمعت منهما نمّاً للإعلام العراقي أظهر مدى إدراكهما كمثقفين كيبيريين، ومفاده أن «ليس هكذا تُؤرّد الإبل»، مع إبحاربان الأمور ستؤول إلى الأفضل، وأنهم - في بيت الحكمة مثلاً - مخوّلون من الرئاسة مباشرةً. أهديتهما كتاباً. واهداني مجلّات متخصصةً أعلّمني أن كلّاً منها تُطبع ألفي نسخة. واقتربنا اختراق الذين لن يلتقوا في القريب العاجل - لكنّ لا: فللعراقيين طريقة في الاحتفاء طريفة ومفاجئة.



برج صدام برج عال كما هي الأبراج. في قمته مطعمٌ. فوجئنا أنّ التصوير فيه ممنوع. ايقعل هذا! فالأقمار الصناعية تصوّر مواقع أصغرها ولكنّ ما إنْ عِلِمَ رجال الأمن أنّنا سوريّون حتى سمحوا لنا بالنقاط الصور. ومن أعلى البرج شاهدنا بغداد أفافاً من النخيل والشوارع والأبنية. إنّ العراق بلدٌ راسع ثقيل. القمامات الشيعية تحفّ من التحف في فخامتها وضخامتها وتزينها الباهر، لكنّ ازاحامها وتقتصر التنظيم فيها امران مزعجان. الإيرانيّون موجودون بكثرة فيها، بلّ والسعوديّون أيضاً. انصتفون؟

يقدر ما أشعث السبّارة ركبنا، على أن يلحقنا آخرون والهدف: شارع أبو نواس. ما هي إلا بضعة كلمات متباعدة مع السائق حتى علم أننا نريد التعرف على الوجهة العراقية: السمك المسكوف. والأهمّ أنّنا نتحرّج شوقاً إلى رؤية شارع أبو نواس. فإذا به ينشئ هجاءً مريباً للحركة البغدادية: «الشارع الذي سمعتم عنه مات. لم يعد شارعٌ للفرح والمرح واللذة». شدنا الأسى في صوته إلى الإصغاء. «كانت إياك». وكان الشبابُ المحبُّ للحياة والشبابُ المنقلبُ المتحرّج يأتون إلى شارع أبو نواس ليقضوا ما بعد الظهر، وربما امتد زمنُ المتعة إلى ما بعد منتصف الليل، شرباً واكلًا وضحكاً وسياسةً وثقافةً. جيلنا تمتع ولعب وعرف. لكنّ ما يحزّ في النفس هو جيلُ الشباب الآن. أنا أشفق على حاله. حياة فقيرة ومتعة قليلة. من قبل كان شارع أبو نواس، هذا الممتد طويلاً، يهضن بالبارات والمطاعم والشباب، أمّا الآن... أين ذهب ذلك كله؟ تسالطنا. «ذهب به الحروب والد». «هـ ماذا؟ تسالطنا. «المواقع الرئيسية» قال، وهو يُشير إلى قصر ضخم يُشيد على الجانب الآخر من دجلة ويحصره قال: «نحن العراقيّين نسيان الفرح.»



مساء اليوم الثاني كان الشاعر السوري صالح الرّحّال قد سبقني في النزول إلى صالة عشتار. هنا التاريخ في كل مكان، حيثما ذهبت وحيثما التفت تجد للتاريخ بصمةً عبر اسم أو أبدة. وكانت هناك لطيفةٌ دليمية وماجد السامراني. أعرفهما أيضاً من صورهما في الجرائد. وكان رجلٌ آخر من دائرة الشؤون الثقافية التابعة لوزارة الثقافة. سيُفاجئنا الرجلُ بدعوة إلى سهرة باسم الشاعر حميد سعيد. ديا إلهي يا سميعر رابطة للكتابة! من قال إنّنا سنجتمع بلا سابق معرفة! ذلك هو ما لفتنا لطيفةً بسعادةٍ سنقلّم أنّها تحكس غبطة الحاضرين إذ يجدون من يعرفهم ويتحسّس أحوالهم من بُعد.

كنت سائقهم فور مدّ يدي للمصافحة، لولا تلك المسافة التي تنطبع على ملامح العراقيّ وهو يتعرّف على الآخرين: مزيج من الإقبال والكف. لكنّ ليس بغير ابتسامةٍ عريضةٍ ورشقةٍ من تاهيل وترجييد. دقائق وإذا بنا نفوس في نقاش عن حال الثقافة العربية بالكلمات التي يمكن أن تُرى في نقاش على طاولة في مقهى الروضة في دمشق. لا فرق... إلّا من تلك الشكوى البديعة عن نقص الكتب والدوريات، والّا من سلوكيّتيّز رغبةً في الحديث المتصل ونقصاً في الإصغاء. فتمّة رغبةً عارمةً في التعبير عن الذات، تبرّرها العزلة والحصار. وهذا هو التفسير المحتفل.

حبّ وبلا كأل تحدث ماجد عن مثقّفين عرب وسوريّين يعرفهم، عن السياسة، عن الثقافة، عن العولة الثقافية، عن... وعن... مُبدئياً ثقافةً واسعة، لكنّه أبداً كان يُؤوّل إلى خلاصات سياسية لا يمكن فهمها إلا في ضوء الحصار على بلاده. اختلفنا على مفهوم «العرب» كمنتج للثقافة في عصرنا. كان يريد، تساعد لطيفة، أن يبرز دوراً للثقافة العربية أكبر ممّا تصوّره لديّ. حين وعناهما همست لطيفة بأنّي في كتابها الذي أهدتنا إليه قصّة كانت قد رُفضت. ومن؟ من ماجد نفسه (١) لصحّة ثقافيّة يحزّرها. وقالت بحزن إنّها أدخلت رفضه في نسج القصّة، وأكملتها بثوب جديد، ثمّ نشرتها في هذا الكتاب.

غرفة صغيرة تفتح على مدخل في قلب زقاق يتصل بسوق كبيرة، ومن الجهة الثانية تفتح على شقّة غير مسكونة على الأرجح. الترحيب متفجع بإتسامات مُعرجة ستعرف أنّها نوعٌ من اعتذار عن سهره للتقنيّ في «الخفاء»... فالكحول ممنوعٌ. سيقول لنا صاحبُ محلّ لبنانيّ الأصل متزوّجٌ من عراقيةٍ: «الكحول ممنوع في المحلات العامة لأنّ الرئيس، الله يحفظه، يقود حملة إيمانيّة». في مثل هذا الكلام لا يمكنك أن تعرف إنّ كان الكلام نوعاً من الاحتجاج أم هو نقلٌ مطوّمة لا غير؛ فالوجه ورثه الحروف هنا كتكتسب حياديّة عجيبة. لكنّ المواطن العراقيّين سيؤيّدون هذا اللغز بكلمات مدعومة بآيات وأحاديث.

حميد سعيد جاء، منأخراً. مائدة خيلته من مرّة سورية ولبنانيّة وعراقيّة. والحديث حديثٌ مجاملات وأسئلة عن أخبار المثقّفين والكتاب السوريّين، حديثٌ أخذ وقتاً ما كان ليأخذه لولا حرج الجلسة الحميمة التي يُفترض بها أن تزيج الحواجز. لكنّ الحواجز موجودة في النفوس، ومكرّسة بقطيعة ثلاثين سنة الغروب أنّنا وجنا العراقيّين العاديّين أصحاب نكتة بينما كان المثقّفون خالين منها، إذ بعد عدّة تكتّماتٍ مخاريّة يعنّاه على نفوس السياسة والجنس تبين لنا أنّ الاستجابة متحفظة. وعلى العكس بدت وجهه مُضيّفاً مهتّباً عندما بدا الحديث جديّاً عن حلّة «الاتجاه المعاكس» التي يتّكّنها قنّاة الشباب العراقيّة على الهواء، مباشرةً نقلًا عن قناة الجزيرة، الصحن اللاظفة للفنانيّات ممنوعة في العراق. تُحبس منْ ضُبطَ يمثلك دُشاً ستة أشهر مع غرامة تبلغ ثلاثة أضعاف ثمن الجهاز. كان البرنامج ملاكاً كلامياً بين مصريّ وكويتي، والموضوع المُتداول: الكويت والعراق. تعليقاً عليه، باغتتا حميد سعيد بنظرة رزينة سائياً: «إنّه حوار لا حوار فيه، وإسامته أكبر بكثير من فائدته». لكنّه يعود دوماً إلى النافذة الوحيدة تقريّباً التي يطلّ منها العراق إعلامياً: الفنانيّات.

سألوا، وانتبهوا جيّداً إلى أجوبتنا: «كيف كان المحاور العراقيّ في الفنانيّات؟ هل تعاطف الناس معه؟ بصراحة أجبت: «الناس متعاطفون مع الأمم العراقيّة سلفاً» (بالمناسبة، أيّ ذكرٍ للألم العراقيّ، تصريحاً أو تلميحاً، يُجرّج العراقيّين الذين التقيناهم ويجعلهم يصمتون صمتاً عبقاً. هي عزّة العزيز إذ يخلج؟ أم هو مركّبٌ نفسيّ كونه العزلة والحصار) «لكنّ»، قلت، «لم نشهد أيّ مُحاور أعجبتُ الناس سوى بعض الاساتذة الجامعيّين الذين بدأت الفنانيّات تستضيفهم في الشهر الأخير. بصراحة كان المحاور العراقيّ دوماً محصوراً في خاتمة الخطاب الرسميّ دون قدرات شخصية، دون ملاحاة كلام، دون سخرية محبّبة، لغته ناشطة. لغة من خشب». «حقّي الهاشمي»، سأولنا، الهاشمي، كما أظنّ، هو

أحد مستشاري الرئيس. «حقّي الهاشمي»، أجبت.

حدّثنا حميد سعيد عن صداقته لمصباح فكريّ «أبو محمّد» بطريقة فيها الكثير من الحنين والحبّ. حدّثنا عن سوق الصميّة، وعن أماكن لا أعرفها كثيرٌ من العراقيّين يحدّثونك عن أماكن في دمشق لا تُخبرها أنت السوريّ. سلّطني لطيفة الدليمي عن جبل العشاق قرب دمشق، أما زال...؟. ولما سلّطنا رفقاء السفر ما إذا كانوا يُعرفون موقع جبل العشاق لم أجد من يعرفه. حدّثنا عن بوفّة بكداش، عن الاستراحات بين دمشق وحلب، عن معركة النعمان «وعندما عاد النقاش إلى نوع من السياسة كان منخله لغاء رئيس اتحاد كتّاب العراق بربنس أحماد سورية والعرب علي عقلة عرسان، أطلقنا أنا دعابة ليست خالية من خبث: «اتمّنى أن أعظم لماذا تتقاتلون أنتم البعثيّين، ولماذا تتصلّحون؟» هنا علّق حميد سعيد بما يعني: صعب، صعب جداً. إنّها حالة من الرُسوخ في العلم

أهدينا لوحتان. فتحت هديتي المغلقة ما إنّ اختلّتي بنفسي، فوجدتها لوحة تشكيليّة باللون الزنميّة شُمل أمّا تحمل ظلهما في زقاق ذي طابع عراقيّ تتكلم بيوتهم مزبحة وتتناقش شرفاته الخشبيّة بفضل. ولأني متّ وواجبي يُقرّض عليّ شكرٌ مضيقنا وشكر الشاعر حميد سعيد مقدّم الهدية والمبار إلى إشارتنا بأنّنا محبوبيين ومرحبٌ بنا في بلد كرم رغم ظروفه، فقد



بادرت فور وصولي إلى إرسال رسالتين بالبريد الإلكتروني فجاءني الرد من الملوك بسرعة إطلاق الرصاص (أمين المصافحة تسميته بالملك)؛ «المتارين التالية اُحتوت أخطاءً دائمة قاتلة». The following addresses had permanent fatal errors: «سأحاول مرات ومرات إرسال الرسالتين، لكنّ الجواب كان هو ذاته أدركت أنّ الرسالتين لن تصلا وأن ليس للكوينل من يكتبه. كوينل ماركيز أمضى عقوداً ينتظر رسالة لم تصل أبداً، ونحن بعد قطعة ثلاثة عقود ليس لنا أن نتراسل أبداً». كوينل ماركيز يعيش في اللغة، أما نحن فنعيش في الواقع. هاتوا أروني فنتازي أعلى من هذه الفتازي.

♦ ♦ ♦

صباح يوم الخميس لاحظناهم في بهو الفندق يسألون عن زميلين من زميلاتنا بصفتهم من أقاربهم. كثيرون منا كُتِبَهم غدة الداعية الساخرة، فراحوا يعلّقون على قرايات تُظهر هكذا فجأة بعد دهر من التخلّي والصمت، مُستعيرين من عادل إمام قولته الطريفة: «دا ريتا لَه حاجات؟» من «حاجات ريتا» أنّ يجد المرء نفسه محاطاً باحتفاء كهذا. أنا شخصياً، عزراً، توفّعت أنّ تكون الشخصية العرفيّة ذات طابع جلف ووصلب ومعزول، فإذا بي أرى بشراً دمثين قولين كراماً.

انطلقنا نحو كيرلاء برفقة مستضيفينا الجدد الذين اقتحموا علينا فندق الرشيد بحثاً عن «أقارب» سمعوا أنّهم يُخضرون مؤتمراً طيباً، مرزنا بساحة الاحتفالات الكبرى من تحت السيوفين الهائلتين المقاطعتين، ويُسَبِّحُ الشهداء ذي التكوين الغرائبي الضخم، ويَقْبِرُ مَزيّةً يشغل معماري فريد حسنها لأحد الأولياء فإذا بها قبر أحمد ميشيل علق «أبو محمد» مؤسس حزب البعث نخيل. غابات من نخيل، والطريق أزجاج. دلائل كثيرة على أنّ العراق غنيّ لكنه مُعَوَّق. قال أحد مستضيفينا وهو معلم متقاعد: «إحدى مشاكلنا، نحن العراقيين، تكمن في أننا اعتمدنا على الدولة، والدولة مِتت في حضانتها مسرورة في أنّ تكون هي ربّ العائلة الذي لا يُخْرَجُ عن طويعه أحد مادام جيّبه عامراً بالمال. في أواخر السبعينيات كان راتبتي ١٢٠٠ دولار...»

ربّما تتفاجأون أنّ كلّ شيء في العراق يُحسب بالدولار. حتى صاحبُ الحلق الصغير يبيعك بالدولار. طيباً يمكنك الدفع باليرة السورية، لكنّ بعد تحويله ذهبياً مروراً بالدولار. تجد البائع وقد غرز عينه في الفضاء، أو يتناول الآلة الحاسبة ويبدأ بالضغط على الأزرار، يُلْفِظُ بعدها السعر باليرة مهتدياً بالدولار. في منتصف المسافة إلى كيرلاء، رأينا وزير الصناعة السورية الزائر ينزل من سيارته ليشتري برتقالاً. أولفتنا الحافلة لنرى كيف يشتري وزير. ولما رأينا أنّه، مثل كلّ الناس، حمل كيساً من البلاستيك عائداً إلى سيارته، رحنا نتمازج عن قيعه وزير لا تسير في ركبته «مرافقة»، لأفرادها طول فارغ ونظّاراً سود.

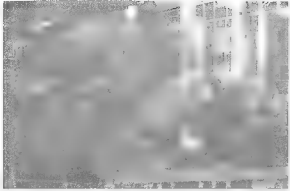
ساحة كبيرة تحيط بمقامي العباس والحسين. حول الساحة فنادق من طابق ذات طابقين، لا أكثر. ربما كانت الفكرة المعماريّة وراء توضعها في الارتفاع أن لا تعلق على ذنئك المقامين. المقامان من الخارج متشابهان، وهما كذلك من الداخل باستثناء بعض التفاصيل. الجدران الخارجية مكسوة بالقبشاني الذي يُقَبِّبُ عليه اللون الأزرق. البس من الغرابية حقاً أن لا يُرى إلى ذهن المعماريين لو أنّ الدم مادامت ماساة آل البيت مضخّعة بالدم؟ في الداخل تتيجن الجدران والقباب والسقوف بتمائمات من مزايا توهي بسما من نور يتلالا، لكنّها سماء متشظية دونما وحدة. تُخْلَعُ أحذيتنا في الباحة نسير

حفاةً في الموكب المزاحم. يدالنا موكب جنازة يطوف به حاملوه في أنحاء المقام. يُقال إنّ الميت يحي تلك الجولة التي يخصه بها أحباؤه لتوديع الدنيا. تطوف بقبر العباس في المقام الأول، وبقبر الحسين في المقام الثاني. أشده وأنا أرى نساءً يطعنن بمطرقة البوابة الضخمة ويقرعن بوهنٍ وكرٍّ بإلحاح، وكأنّهنّ يُزَيِّنُ بيتاً خاصاً لا موقعاً يزحم بالآلاف مؤلفة. اسمع ممساً كذا مناجاة للنفس: «يا حسين...» عجائزٌ يتحسّسن خشب الأبواب والجدران بخشية وحزان كما لو أنّهن يتحسّسن جزءاً حيّاً من ميت مضت عليه دهورٌ ودهورٌ. نفث مع الواقفين وأيديهم مشرعة في الفضاء استقبالياً لرحمة تتدنك من السماء. نقرأ نساءً في نمن معلق على الجدران، ويُلفِظُ مثلما يلفظن «أمييين». إنّه شياط، ومع ذلك تتعرق وتفتقر إلى النفس. الصدور مزحومة، والأقدام تتماس وتطأ بعضها البعض. نخرج إلى الهواء. نلتقط صوراً. نجث عن عبادات شينة. نجد ولا نشعري، مؤجّلين الشراء، وكأنّهم سمنضني في العراق دهراً، ثم نندم في كلّ مرة ونقول: طيبنا اشترينا!»

♦ ♦ ♦

لم يعد من الممكن زيارة النجف: فالركت تداركنا، ومضيفونا يُبدون قلقاً يماولون كتمانته. ونحن نبدي تردداً بين خرجنا وما سنقدم عليه من تقويت فرصة زيارة النجف. أخيراً نقرّر أن نستسلم. على الطريق نفسه نحو بغداد





نمر بجسر المسيب الذي تُذكره الأغنية العراقية الشهيرة. نخرج عن الطريق العام ونوغل في ريف قضاء «الحاويل». لا يؤس في ما نراه ريف جميلٌ محضرون بغابات نخيل. تستنيرني منورسة، أبوابها منتظمة، جدرانها مستقيمة نظيفة، دهانها حديث، ويأحُثها تبدو من أعلى الطريق مرصوفةً وأنيقةً. استذكر فيلماً بكَّته فتاةُ الجزيرة يُظهر بؤساً منقطع النظير لتلاميذ عراقيين بلباب عتيقة. لا مقاعد. لا زجاج في اللوافذ. وللسبورة لوح خشبيٌّ مائتٌ. أنكر دموعي التي داريتها عن عائلي، لافاجاً بعد لحظات أنني لست الوحيد، كذا جميعاً نداري دموعاً كأننا خجلون مما نرى، كأننا مسؤولون عما حصل لأولئك الأطفال. سألت: «أكل المدارس هكذا؟» انتبه المعلم للتقاعد إلى ما

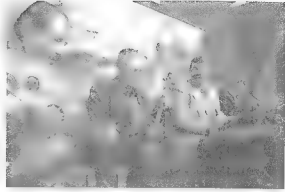
وراء سؤالي: «أكو مدارس ومدارس... مررت علينا ثلاث سنوات ريكاً لا يُعجها على بشر؛ سنوات ٩٤ و٩٥ و٩٦». مثل هذا الكلام كنا قد سمعنا من عديدين. حميد سعيد قال في السهرة مقبلاً عنوان المخرج الجزائري الأخضر حاميان: «إنها سنوات الجمر. الناس باعوا كل شيء. باعوا حتى الأبواب الداخلية في بيوتهم، ولم يبق سوى الأبواب الخارجية» خطر في بالي حينذاك تشبيه البيت العراقي بالوطن العراقي؛ فهذا لم يعد، هو الآخر، يمتلك سوى بابٍ خارجي يُلقه على نفسه. لكنني خشيتُ سوء الفهم، فاحجمتُ. وأكمل سعيد: «أحد اصداقائي ذكر لي أنه عاش تلك السنوات بفضل سوء تدبير امراته. كم كنتُ أتضايق منها، أيَّام العز، أيَّام كانت البضائع الموجودة في بغداد لا توجد في غيرها. كانت متلافة تشترى من الصينيّ والتحف والسجاجيد ما لا يُؤم. لم تكن نُفك أن الدهر يخبئ تحت عباته ما حصل. غير أن سوء تدبير المرأة كان في تلك السنوات هو خشية النجاة. سوء تدبيرها انقلب بيد القدر إلى أفضل تدبير». أظن أن أحداً لا يمكنه تقدير مدى الألم في كلام كهذا إن لم يُخبر «العنجهية» التي كان العراقي يُمتنع بها. وصلنا إلى بيت طرفيٍّ تمتد خلفه غابة نخيل. كانوا ينتظروننا. أنشأ أحدهم ترحيباً بطريقة «الهوسة» العراقية كذلك التي نراها على التلفزيون: كلامٌ مؤزن على إيقاع فترات متوالية. الذراع التي تمسك بالعابطة مشرعة نحو الأعلى، والركبتان تنفثان، ثم يقفز الجسم مراراً ومرة. مصافحة بالأيدي وثلاث قبيل. سلامات... سلامات لا تنتهي. مازحتُ مستقبلينا بعد أن هذا الصخب أن ليس كل الضيوف من أقرانهم. رثوا جميعاً مُستكرين بدمائة: «كل الإسلام أعما»! أكان كل المسلمين أعما؟ أيام كانت الطائرات تُحصد؟ مضيفوننا من «النادي»، وهي قبيلة ربما لم يكن لأفرادها أصلٌ دمويٌّ واحد، بذرها جيش إبراهيم باشا المصري في حربه مع الأتراك في شمال سورية ووسطها. أصولهم من بلدة هندي المصرية. من تاريخ هذه البلدة، وفق الجبرتي، أن أهلها كانوا مُتبكاً للجيش المصري. إما قصّةٌ بوجودهم في العراق فلها روايةٌ أخرى غير العرب. وتتصل بالتجارة والسعي وراء الرزق. إلا تلخص روايتهم قصة الجولان في بلاد العرب والمسلمين: إما غزو، وإما تجارةٌ ويحث عن العيش؟

على العشب مُد السجاد، والشهر شباط! والحديث يتناول بحرج أسماء الأقرباء في سورية. إذ من يضمن أن من يُسال عنه مازال حيّاً بعد كل هذه السنين؟ وفعلًا كان بعض من سألوا عنهم أمراً. هنا الناس شيعة، لكننا لم نكس لا تصريحاً ولا تلميحاً ما يوحى بصراع حاد. سندرك بعد قليل، ويطرائق تشبه الطرائف، أن التشيع والتسنن هنا يتبعان الجغرافيا في بعض جوانبها. «أنت من البوسط، وانتقلت إلى الجنوب، والجنوب شيعة، فلم لا تنتسب؟» يمزحون أن العائلة الفلانية تركت «دينها» ما إن ساعدها الناس في إنزال الأفراس من السيارة. لم يجر موعداً أذان العصر حتى كانوا يصلون مُثماً نصلي!

العراق ذو طابعٍ شيعي في العموم. جُلُ المظاهر وجُلُ الكلام يوحى أنك بين أناس يقدسون الحسين الشهيد. والعراق، دون الشمال الذي نره، ذو طابعٍ عربيٍّ محض. لا لكثرة، لا كتابة، لا استعارة، لا إحالة على ما هو غير عربي. عربٌ قبايلون حتى العظم قليلة هي الكلمات ذات الخلفية الثقافية والسياسية التي أوحى باستتكان ما من هذا الوضع القبلي. همس مهندسٌ مقاولٌ في أذني ردأ على سؤالي: «لم تُتأخذ الشُر العراقية طابعاً حضرياً كما هو الحال لسكان دمشق وحلب والقاهرة الأصليين؟» قائلًا: «تلك هي قصة السلطة. لا سلطنتنا الحالية فقط وإنما السلطات التي سبقتها أيضاً. في بغداد تجد نواةً حضرياً لكنها مُجبرة على الانتماء إلى قبيلة ما. ويعود جزء آخر من المشكلة إلى الجيش الإسلامي الأول الذي دخل العراق في كتاب، كل كتيبة تحت راية قبيلتها». الشمس تميل إلى ما بعد العصر عندما انتهينا من غداتنا المكوّن. كما هي العادة من غدازيكي اللوار في الجيش. وبإيمان مُغلطة حملنا أكياساً تحمّس تستشيب لنا أرتباكاً لأننا مستخدمون مكاناً كبيراً بين أنصارهم أقرضنا.



على طريق العودة رجنا نتأمل ونسال عن كل شيء. أشاروا إلى أرض خاوية واسعة بين غابات النخيل: هنا معسكر الجيش ظلّت الطائرات تُقصه كل يوم. تقف الطائرات هناك، مضيقين إلى الأفق فوق غابة نخيل، وتبداً بالقصص. كنا نرى الصواريخ والقذائف ونباتها إلى أن تنفجر. «تأتي الطائرات من جزيرة العرب»، نَبّر المعلم بلهجة تجبّس وسفريّة. هذا الطريق هو ذاته الطريق الذهاب



إلى الجنوب، إلى البصرة. أشرنا إلى ما حصل في الجنوب، فلاقينا صمغاً مطبقاً. أخوف هو ذاك الصمغ، أم طريقة للضيان؟ فيما بعد، في طريق عوبتنا إلى الوطن، سيصعد معنا رجل من أحد الحوارج. كان الرجل من قبل جندياً، وسيصنّ علينا قصصاً يقف لها شعر الرأس. في مرحلة من حديثه لفظ: «هريت في الصحراء لا ادري إلى أين.» قاطعناه مازحين: «باطل! هريت؟» بدأ عليه الاستنكار الجذبي، «يا بالالال... هذا موتا موتا، مو مزح... هانولا الأمريكان! تتضرب وما تعرف منن تضرب! وكالعادة رحنا نناقش، كما لو أننا في مؤتمر، تعنت الكويك ونريحها في الاسرى، يا اخي، الأوروبيين تحاربوا حربين عالميتين. وهذا الحرب الثانية

أمانت عشرين مليوناً، ومع ذلك نسوا. لم لا ينسى الكويكيتون؟» فاجأنا السائق العراقي الذي كان قد تسلّم مقود السيارة: «لن ينسوا ما فعلناه بهم لا يُنسى. وما يفعلونه الآن بيد الأمريكان لن ننساها لن ينسوا وان ننسى. أرايت مسرحية حسين عبيد الرضا؟» أنا رأيتها في الأردن. كيف لعراقي أن ينسى صورته في ذلك الجندي العراقي الذي تصوّره المسرحية لا يفرق بين السجادة والمنشفة، ويترعرع مثل قرد بخدته على السجادة حاسداً الكويكيتين على مناشفهم لماذا يصورون رئيسنا، الله يحفظه، بهذه الصورة؟ ألا تحسبون حساب المستقبل؟ ألا يخافون؟»

كل العراقيين الذين التقيناهم يذكرون اسم رئيسهم مصحوباً بهذه الجملة «الله يحفظه». لكننا سنلهم منهم جميعهم أيضاً نداءً دفيناً خفياً. «ما كان وارداً مثل هذا الظل من النقد قبل سنتين أو ثلاث... كان الصمغ سيئاً»، قال أحد المثقفين العراقيين. ولما سألته ما الذي استعجز، أجاب بصراحة «أولاً لأن وجوهنا، وسلطة وشعبنا، إلى الحائط. يعني لا بد من فسح المجال لنوع من النقد. وثانياً لأن السياسة هكذا. كل العراقيين يتعمّن تغييراً ما. لكن القبض على الجمر يُحرق ويشوق».

♦ ♦ ♦

في نادي الصيد كان العشاء الأخير النادى هنا، كما المنشأت في بغداد، بنّية ضخمة وساحات واسعة المدعور ينفون على الثلاثانة. والطعام زيادة كريهة متلافة كما هي العادة. عدد النساء قليل، منفرداً عن زملائي جلست مع عدد من الشبان. بعد صمت سببه وجود غريب، هو أنا، يتلفت في كل الاتجاهات كمن أضاع شيئاً، قدّمت نفسي تحت صخب الموسيقى وصوت الغثي. كانوا جميعاً أطباء في الاختصاص أحببت أن اكسر جلبد الصمت بسؤال صادق: «لماذا تقيب المرأة العراقية؟» لم تر الكثيرات في الشوارع ولا في المساكن العامة. وحده نادي الرماية الذي سبق أن تعشّينا به لاحظنا فيه عديداً كبيراً منهم. الستم في الإعلام تعمّنهن الماجدات فإين الماجدات؟ تبسم أحد الأطباء الشبان ساخراً: «أتريد حضرك أن تستعرض ماجداتنا؟» ماجداتنا الليوت، فما حال ماجداتكم انتم؟ جاريت السخرية المحببة. «ماجداتنا يشتغلن شغلين تجدن في الشوارع وتجدهن في البيوت.» وعندما آل الحديث إلى الجدّ أجمع الأطباء الشبان أن الأسرة العراقية محافظة بطبيعتها، وأن النساء عادة لا يخرجن إلا مع رجل أو في جماعات ولكنهن على أي حال يعملن في كل المجالات. ولو أنك زرت الجامعة لرايت أن عددهن لا يستهان به. لكن ما رايها في نادي الرماية مختلف، لثت. نساء، فتيات جميلات على آخر طرز، فلم نر مظاهر كهذه في الشارع؟ تلك قصة أخرى سيترهب منها الشبان، لكنهم سيلمحوون إلى أن اللواتي رايناهن هناك من عليّة القوم... إنّه المال!

كنا في نادي الرماية قد لاحظنا فعلاً مظاهر غثى ربما كان فاحشاً. ولأننا علمنا مدى حب العراقيين للشاميين، رحنا نتحدث مع الفتيات بروح شبيهة، رغم أن معظمنا كان في سن الكهولة واحدة منهم كانت جميلة جداً أحداً. سمره صافية، عيان ذكبان، وجسد عارضة أزياء. خاطبتهن مرات في معرض حديثي بـ «يا حلوة» أو «الكلام بين الغفوة والتمعم». وعندما التقطت الأمر بإحساس الانشراح تقاطعني مقلدة لهجة سورية ما: «صغ عمو... شكراً عمو.» أهرجت ورحت أردت: «تعيرني بالشيب وهو... لكن أسطولتهن المشروخة ظلت تردّد: «عمو... عمو...» يلعن أم أكبر عم في الدنيا!

♦ ♦ ♦

صباح الأحد نزلنا إلى البهو في الخامسة استعداداً للسفر. هنا ضاعت روح الألفة. بين استنكار من حساب الشاي والقهوة والكوي والفصيل، ونقص في لماعة عمال الفندق. أين كنا وأين أصبحنا! بالأسف فقط كانت عواطفنا تفيض إلى مستويات أعلى من المال؛ واليوم نسبنا؟ أتعود إلى بغداد ثانية وهي في صحوها وأمنها وثرائها المكمل بالحصار، أم أن الصواريخ سنطش قريباً دماً وتفتتاً لبلد التاريخ والجغرافيا المرمّقة؟ أتعود قريباً، أم أن قطعة دهرية أخرى بانتظارنا؟ اينفك العراقيون قريباً من أسر الدول، أم أن القوة السابية لم ترق بعد؟

الرقعة (سوريا). شباط ٢٠٠٢

سور الليل

♦ ناطق خلوصي ♦

يشيرُ عليه الآخرُ الذي إلى جانبه أن يركن السيارة في منعطف قريب، فيستجيب. يدبر عجلة القيادة، ويَبْخُلُ ذلك المنعطف، وما يليث أن يضغط على الكابح، ويطفئ المحرك. ينحني بنصف جسده العلوي على المقعد الخلفي ويلتقط العلبَة وينزل، ويكون الآخر قد سبقه إلى النزول، وما هما يسيران تحت سماء رمادية تظلل صفحة مسام خريفِيٍّ موحش. يتوقَّف الآخر، فيتوقَّف هو أيضًا، وقد صارا أمام باب تعلو عنقه شبراٌ عن رصيف الشارع. يقف وهو في حالة يقظة حسية، ويراقب كل شيء من حوله. لقد ارتضى أن يقوم بهذه المغامرة، بل سعى إليها في الواقع، من أجل أن يفترق عالمًا يختبئ وراء سور الليل. والآن يسمع خشخشة سلسلة مفاتيح تتأرجح بين أصابع يد الآخر اليمنى، ويرى اليسرى ترتفع إلى زَجَرَس الباب ويضغط بإبهامها عليه مرة، ثم يعاود الضغط مرة أخرى، فيصير في اعتقاده أن هذا الذي مازال غريبًا عنه إنما فَعَلَ ذلك لكي ينبئ مَنْ في الداخل أنه قادم ومعه صيفٌ واحد. وما يليث أن يدس مفتاحًا في ثقب القفل ويديره فيُسمع صوت ارتداد المزلاج مثل أنه خافتة. وخلل شفقتين مرتبكيتين يتسرَّب صوتٌ محايدٌ يتزامن مع حركة ارتداد ضلفة الباب: - تفضَّل!

هما الآن في مدخل فسحة ضيقة بدت مثل ممرٍ يفضي إلى فوهة قبر. يرِدُ الآخر ضلفة الباب ويحكم الرجاج، ويبدأ أن هعوذاً متأنياً، فيشعر الآخر وهو يفعل ذلك، مثلما يحدث في كل مرة، أنه يهبط إلى الحضيض. يوشكان أن يصلا نهاية السلم، فيُسمع تلك اللحظة حفيفٌ خافت، وما تلبث أن تبين قامَة صبيٍّ صغير يركض صوب الآخر ويلوذ بساقه ويتشبث بها، فبريت هذا على رأسه ويقوده معه يمكث الزائر واقفاً هنيهةً وهو يتطلع حوله بتفحص حذر: صالَة تسبح في ضوء بُغيش البصر، وقطع اثاث قديمة لكنها تبدو كأنها لم تُستعمل كثيراً. ثمة أريكة مزدوجة في عمق الصالة، وثلاثة مقاعد تتوزع في مربع يلتصق على نفسه وتشكل الأريكة المزبوجة ضلعة الرابعة. وعلى مناضد صغيرة واطلة ثمة نقاضات سجانر زجاجية. يرمي الآخر إلى الزائر برأسه صوب الأريكة، ويظن هو واقفاً هنيهةً قبل أن يُهبط بجسده على أحد المقاعد، ومايزال الصبي الصغير لاتناً به. يفرد ساقه تحت إلحاح حركة يد الصبي، فيخشر هذا جسده النحيل في الفسحة التي بينهما، لكنه لم يُنْعِجْ إذ لم تهدأ حركته: فهي مو يَزْجَعُ جسده قليلاً قليلاً، ويُلَحُّ أخيراً في وضع مؤخرته على فخذ أبيه ويستقر بها هناك. خلف الأريكة، التي يستقر عليها الزائر الآن، بابٌ موصد، وبابٌ موارِبُ قبالة الآخر. وثمة ممرٍ يفضي إلى مرافق الشقة الأخرى، تتدلى ساعة معطلة على جدار الصالة الذي وراء الأريكة.

يمدُّ الزائر يده ويلتقط العلبة من المنضدة الصغيرة الواطئة التي كان قد وضعها عليها لحظة دخوله. يشير إلى الصبي فيشير بصرٌ هذا مختلجاً، ويسيل لعابه، ويكاد يقفز مغابراً فخذ أبيه. لكن الأب يتكبح هذه الرغبة بحركة من يده ويشير إلى الزائر أن يتريث بعض الشيء. يقتصر بصر الزائر عيني الصبي وما تفرسان فيه وكأنه كائنٌ غريب، ويلتقط سمعه الصوت الذي يتهادى ببرامته عذراء:

- مَن هذا يا أبي؟

فيرد الآخر بصوت مكتوم.

- إنه عمك.

تتسع حدقتا عيني الصبي وهو ينظر إلى أبيه:

- عمي؟ ولماذا لم يزرنا من قبل؟

يتهدج صوت الآخر:

♦ - كاتب من العراق.

.. كان مشغولاً.

.. واين يسكن؟

.. في مدينة بعيدة.

يصفق الصبي يديه الصغيرتين بمزيج من الدهشة والفرح:

.. ياه! لقد أصبح لديّ أعمامٌ كثيرون.

يبتلع الآخر كلمات الصبي القاطعة وكأنه يبتلع شفرةً يخفض رأسه حتى يصير فيه حوارٌ أذن الصبي فيهمس له:

.. انهبط وتلرّع على التلفزيون. قد تأتي أمك وتغضب منك.

يهبط الصبي عن فخذ أبيه على مضض ويسير مطأطأً رأسه، يتجه صوب الغرفة التي يقع بابها قبالة أبيه تماماً يدخل، ويصفق الباب بحركة تُجفل أباه والزائر معاً.

الزائر يراقب الآخر من طرف خفي، يرى وجهه يتلون ثم يتشعب. يراه يمدّ يداً مرتبكة ويستلّ منديلاً من جيبه ويمسح العرق عن وجهه وهو ينقل بصرًا قللاً بين باب الغرفة التي اختفى فيها الصبي وباب الغرفة التي وراء الأريكة. فجأةً ينهض ويقرب من الزائر خطوةً، يفرّد إصبعين من يده اليسرى ويُسّط يده اليمنى، ثم يقول وهو يحرك إصبعيه المفردتين:

.. تلّزمتنا زجاجتنا بيّرة.

يسود صمتٌ قلبي هنيهةً، ما يلبث أن يكرسه صوتٌ رقيق قادمٌ من الغرفة التي وراء الأريكة

.. اجعلها ثلاثاً!

لحظتُ زبطين قلب الزائر ويزايله الشك الذي كان قد ساوره في البدء: الشك من احتمال أن يكون قد وقع في فخٍ مهلك. يمدّ يده إلى جيب سترته الداخلي ويستلّ رزمةً أوراق نقديةً يناولها إلى هذا الواقف ذليلاً أمامه، دون أن يكلف نفسه عناء عدّها. يلتقف الآخر رزمة النقود على عجل، وما يلبث أن يلهوج:

.. يلّزمتنا عشاً أيضاً.

فيردّ الزائر وكأنه يحسم الأمر:

.. معك من النقود ما يكفي لأكثر من هذا!

يقلّب الآخر رزمة النقود وكأنه يزنّها. يقول وهو يكاد يهمس:

.. فعلاً.. فيها ما يكفي.

على حين غرة، يُسمع صريرٌ باب الغرفة التي وراء الأريكة وهو يُفتح، فيتسرّب شذاٌ عطرٍ فاغم يبداً بالانتشار في فضاء الصالة، وقد تسمرّ بصرُ الآخر في ذلك الاتجاه. يقترب حسيّسٌ قديمٌ، فيزداد شذاً العطر اقتراباً. يلتفت الزائر إلى حيث يأتي شذا العطر الذي يفيق أنفه، والواقع الذي يمسّ سمعه مساً رقيقاً، فيسقط بصره على وجه صبيح يتوجّه شعر بني فاتح مصفوفٌ بعناية، وجسدٌ ممتلئٌ بعض الشيء لا يستتره تماماً ثوبٌ يضيء بمفانته، وصدرٌ ترتّنه رمانتان تكان حلماتهما تشفقان قماش الثوب. يتأمل الزائر، مبهوراً، هذه القادمة الفاتنة التي بدت له وكأنها انتهت من وضع آخر لسلسلة مكياج، وقد وقفت قريباً منه. يقف هو أيضاً دون أن يغادره انبهاره. يلتفت إلى الآخر فيراه يضع على وجهه ابتسامةً ذليلةً، ويسمعه ينتزع صوته من حنجرة محشرجة:

• ناطق خلوصي

- زوجتي!

يمدُّ الزائر يده فتلتف المرأة كله بكفٍّ ليّنة، وتضغط عليها قليلاً، فيبتسم. ثمَّ ينتبه إلى أنَّها تحولُ بصرها إلى الآخر وتبتسم، وكأنَّها تريد أن تُفصح له بأنَّه أحسن الاختيار.

تستدير وتجلس على طرف الأريكة، ويجلس الزائرُ على طرفها الآخر لكنَّه يشعر تلك اللحظة كأنَّ المسافة التي تُفصل بينهما تتلاشى شيئاً فشيئاً. يظلُّ الآخر واقفاً لكنَّه ينتظر إيعازاً، وما يلبث أن يوميء إلى الزائر أنَّ أن موعد تقديم العلية، فيمدُّ هذا يديه ويرفع العلية من مكانها على المنضدة الصغيرة الواطئة القريبة منه، ويقدمها إلى المرأة، التي تتناولها بعد تمعُّع مصطنع قصير، وتقول بما يقترب من الهمس:

- لماذا كلَّفت نفسك؟

وقبل أن تتلفَّى رده، تبدأ بضمٍّ غلاف العلية الورقي. ترفع الغطاء، تلتقط قطعة حلوى، تضع طرفها بين لؤلؤ أسنانها وتضمضها وتتمتم - لنديّة!

ترسم على وجه الآخر ابتسامةً بلهاء، وهو يراها تنهض من مكانها وتنتقل إلى المقعد الذي يقف قريباً منه، وتنادي بصوت رله رنينٌ غنج: - فاند!

يصرُّ بابٌ، ويأتي الصبي على عجل، وحين يصير قريباً منها تناوله قطعة حلوى، فيلتقطها باصابع لاهته ويتَّجه صوب أبيه، لكنَّه يفرُّ على صوتها ينهره: - أرجع إلى الغرفة.

فيفعل طائفاً وقد بدا كأنَّ خيط أسى ينسلُّ من داخله وينسرح على وجهه. وما تلبث أن تنادي من جديد، فيسمع الزائرُ أسماء «فادية»، «منارة»، «شهلاء»، ويرى ثلاث زهرات يخرجن على استحياء، يقفن أمامها بخنوع، ثمَّ يتناولن قطع الحلوى منها ويرجعن إلى الغرفة بهدوء، ويلمحهنَّ وهنَّ يُخرجنه بنظرات غامضة من زوايا عيونهنَّ. ولعلَّ ابصارهنَّ كانت تتسائل عن هذا المم الذي لم يرينه من قبل. ينحني الآخر ويمدُّ يده كأنَّه بهم بان يلتقط قطعة حلوى من العلية، ولكنَّ صوتها يقمع حركة يده:

- ليس الآن.. عندما ترجع تأخذ حصّتك.

فيستقيم وهو يحاول أن يداري ارتباكاً بابتسامة. يرنُّ صوتها أمراً:

- إذهب الآن ولا تتأخَّر.

فيستدير طائفاً ويخطو صوب السلم وهو يغمغم:

- لن أتأخَّر

ويتشعر وهو يهب السلم أنَّه ينحدر صوب هوة عميقة. ويساور الزائرُ الشكَّ في أن يكون الآخر هو زوج المرأة التي تجلس إلى جواره الآن، وقد بدأت تقترب بجسدها منه، فيشمُّ رائحةً شبقٍ لا يدري إنَّ كان حقيقياً أو لا.

تساوره خشيةً أن تكون هذه المرأة نمرسةً عصبيّة على الترويض. فلقد راها تتبسّط سطوةً صارمةً ومستبدّةً على مَنْ هم في معيّتها: زوجها وابنها وبناتها الثلاث. أوتستطيع أن تفعل ذلك معه وهو زائر عابر لا تعرف مجرّد اسمه، لم يأتها محكوماً بنزوة طائشة، وإنما بهاجسٍ يتلبّسه منذ زمن؟ يراها تنهض وتتشاغل بما هو تافه أو صغير، غير أنَّها تفعل ذلك بجنحة امرأة متمرّسة في

اداء دورها تلتقط منفضة فارغة وتأتي بها، وتعمد أن تتجنى لتضع المنفضة أمامه فتكشف عن مرمز صدرها والأخود العميق الذي ينخسف بين ثدييها، ثم تستدير وتخطو خطوتين وتنحني كأنها تلتقط عود ثقاب من على الأرض، فتتكور مؤخرتها وتبين سماتنا سافئها المتلصقين، فيدرك أنها تفعل ذلك لتثير عصب الشيق الذي لم يستيقظ عنده بعد. ثم لا تلبث أن تعود وتهبط على الأريكة إلى جانبه، ويحس بها تقترب منه حتى تلامس فخذهما فخذه وتميل براسها إلى كتفه تراه ينظر إلى ساعته تفهمس:

— هل أنت على عجلة من أمرك؟

يفاجأ بسؤالها. كيف يكون على عجلة من أمره؟ إنه لن يفعل شيئاً وزوجها غائبة ما يهيمه أن يتوغل في دخيلة نفس ذلك الذي يستمرى أن تشرع زوجته أبوابها لرياح غريبة. يرتد وهو يقتل عذراً:

— نظرتُ إلى ساعتكم فظننتُ أن ساعتي تعاني خللاً ما!

— ساعتنا عاطلة. الزمن معطل بالنسبة إلينا.

وتلتزم في شرفة صمتها لحظةً وما تلبث أن تخرج منها:

— ظننتُك على عجلة من أمرك!

فيرد على عجل:

— لا أبداً.. فننتظر عودة..

يستكت وهو يومئ بأصبعه إلى الأسفل، وكأنه يعني زوجها. يراها ترفع رأسها عن كتفه وتغمغم بشيء من عدم الرضا:

— زوجي. ولي أربعة أطفال منه هم الذين رأيتهم قبل قليل. أم أنك تشك في ذلك؟

فيرد مرتبكاً:

— بل أصحك.

يحاول أن يداري ارتباكها، فيستل علبه سجاثره ويلتقط سيجارة يقدمها لها فتناولها دون تردد، ويلتقط واحدًا لنفسه، ويشعل عود ثقاب يقربه من رأس سيجارتها وسرعان ما تتوهج جمره الراس، وما يلبث دخان السجارتين أن يتصاعد في فضاء الصالة.

يغمس حاجز الصمت الذي كان قد ارتفع بينهما منذ قليل:

— ليساعذك الله في هذا الزمن الصعب.

فيشعر كأن كلماته استقرت وزراً في داخلها. يسمعها ونبرة احتجاج تشوب صوته:

— ليساعذك الله أنا.. إنني أحمل الحب وحدي.

— وهو؟

— هو؟

وتصمت لحظةً ثم تفرق بعينها وتقول كأنها لا تخاطب أحداً أمامها:

— إنه عاطل ومعطوب.

يحيره ما يسمع، ويهمس لنفسه: كم هي قاسية معاناتها إنني! إنها تبوح له بما يتلجج في صدرها من ألم، وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد. يصمت وقد تلبسه الوجدوم وهو يفكر. ليس غريباً أن يكون رجلٌ مثلاً زوجها عاطلاً، أمّا أن يكون معطوباً فهو ما يدعو إلى التأمل.

♦ ناطق خلوصي

يتوجَّس خيفةً من أن يكون قد نكأ جرحاً عميقاً في روحها، وقد أخذ يحسّ بها تتلمل. يسمعها تقول:

– إنَّ كنتُ راغباً فأتنا على اتِّم الاستعداد.

يرةً متوِّدًا وهو يقترب منها أكثر:

– مازال لدينا متَّسع من الوقت.

يسمعها تقول بأسى وهي تلقي رأسها على صدره:

– لا تُشغل نفسك، إنَّ، بما قد يُفسد الأملية عليك!

يهزُّ رأسه موافقاً وهو في حالة استسلامٍ لرغبتها، كاتماً أنيأ الرغبة التي تمور في داخله: في أن يرفع الغطاء عن عالم ما وراء سور الليل.

يأتي صوتُ اصطفاق الباب، وديكة قدميْن على السَّلم. يحسّ بها تقتزع جسدها بعيداً عنه. يسمعها تقول وهي تومي برأسها:

– ما قد عاد.

يظهر في مدخل الصالة، وقد تدلَّى كيسان من يديه. تنهض وقد اصططم بصرها بمصر زوجها، وتبدو كأنها التقطت إشارةً متسائلةً من عينيه، فتَهوَّ رأسها برفق وكأنها تقول له إنَّها لم يفعل شيئاً. تسير عبر الممرِّ الضيق وتغيب هنيهةً وما تلبث أن تعود بثلاثة أقدام، تناوله واحداً، وتمضي بالآخرين إلى حيث يجلس الزائر. تضع القدحين على المنضدة الصغيرة الواطئة التي أمامها. ينحني زوجها على أحد الكيسين اللذين كان قد وضعهما على الأرض، يلتقط دجاجةً منهن، ويأتي بهما إلى حيث تجلس على طرف الأريكة ويجلس الزائر على طرفها الآخر، ويضعهما بحركة إنسانٍ إلى. وتسمعه يهس للزائر:

– الماتنت على سيارتك في طريق عودتي.

فتدرك أنه يريد أن ينهّجها إلى الصيد الذي أمامها.

يعود إلى مكانه وقد التقط كلمة شكر الزائر. يقف لحظةً قبل أن يستدير وكأنه تذكّر أمراً على حين غرة. يقول ملتصقاً العذر عن خطم لم يرتكبه:

– نسيتُ أن أتي بملتحاق القناني.

يغيب قليلاً ويعود ناشراً على وجهه ابتسامته البلهاء. ينحني، يفتح زجاجة البيرة التي أمام الزائر والآخرى التي أمام زوجته، ويتراجع إلى حيث تنتظره زجاجة وفتحها ويجلس. ينقل الزائر طرفاً خفياً بين الوجهين، فينتبه إلى أن المرأة التي إلى جواره تنصرف بهده وكأنها تمارس طقساً عائلياً مألوفاً، وقد رفعت زجاجة البيرة بيد والقدح بيد. تقرب يدما التي تحمل زجاجة البيرة من اليد التي تحمل القدح. تضع حافة فوهة الزجاجة لصق حافة فوهة القدح، فيبدأ السائل الرائق ينسكب مثيراً وشوشةً خافتةً ورفوةً تطفو على السطح. تنظر إلى الزائر من زاوية عينها وكأنها تحرضه على أن يفعل مثلما فعلت، فيستجيب وهو ينسجم في وجهها، وما يلبث أن يستدير ببصره صوب الآخر فيراه قد وضع فوهة الزجاجة في فمه وبدأ يعبّ البيرة بحركة منغلة وما يزال القدح الفارغ ساكناً أمامه.

تسأل المرأة وهي تمسح طرف فمها:

– ما الذي أتيت به من عشاء؟

يرةً وكأنه لم يتدوَّق طعاماً منذ عام:

– دجاج مشوي!

تتعلم وهي تشيح ببصرها عنه:

— حسناً فعلت.

وتخاطب الزائر هذه المرة:

— ألسنت جائعاً؟

يرد على عجل:

— ليس بعداً وانتر؟

فتقول بغضب:

— ليس قبل أن أنتهي من خدمة ضيفي.

وتطلق ضحكة سمة كأنها تريد أن تفيظ زوجها بها.

يرى الزائر خدي المرأة وقد ترفجاً بجمرة قانية، وشعشع الضوء في عينيها، وصارت تنوس برأسها وكأنها بدأت تشعر بالنعاس. انتهى زوجها من زجاجة، ويبدو الآن كأنه ينتظر إيعازاً منها. ولم يَلْ انتظاره، فما هي تنظر إليه بعينين نصف مغضبتين وقد بدا رأسها يتمايل:

— خذ نصف ما أتيت به من عشاء، واذهب به إلى الأطفال!

يرد وهو يداري خجله:

— لقد كنت أوشك أن أفعل ذلك، شمة برنامج ممتع في التلفزيون!

وينهمك باقتسام ما جاء به من عشاء، والزائر يراقبه بطرف خفي وقد أوشك رأس المرأة أن يرتمي على كتفه. ينهض حاملاً معه نصف ما جاء به، ويسير مطأطئاً الرأس. يدخل الغرفة المقابل له ويؤد بأيتها من ورائه.

تمد المرأة يدها وتلتقط يد الزائر، وتنهض، تسير به إلى الغرفة التي في عمق الصالة، فيجد نفسه في عش للزوجية: سرير مزدوج، وخزانة ملابس، ومראה زينة. ينتبه إلى أن شمة ساعة تتدلى من الجدار، لكن عقريتها ساكتان. ينظر إلى وجه المرأة مبسماً فيسمعها تقول:

— ألم أقل لك إن الزمن معطل بالنسبة إلينا؟

ولا يبلغ صوتها سمع زوجها الضائع وسط شغب الصبي وضحكات الصغيرات وضجيج التلفزيون، وقد شعر بصداخ خفيف يتلبس رأسه. يُشند كوعه على ذراع الكرسي ويُزل خده على راحة يده، وهو لا يدري بم يرد على أسئلة الصبي عن عمه الجديد: أغائن؟ أم أنه ما يزال جالساً مع أمه؟ وهل سيعاود زيارته؟ يمد عين خياله إلى ما وراء الباب الموحد: ترى هل تمرت الآن؟ وأي قميص داخلي ترتدي؟ لكنها لم تتعب بعد، إنما تمكث واجمة حين ترى الزائر ما يزال متسكراً وسط الغرفة منتحلاً بصراً متطلاً، متفحصاً في أرجائها، ليستقر أخيراً على صورة مزججة وموطرة صورة زوجها، بشارب أسود كث، وهو في بذلة داكنة يحمل بندقيّة ذات ماسورة طويلة. ويخيل إليه أنه يرى ثلاث صور لا صورة واحدة: صورة حارس متعب في قرية مستباحة، وصورة صياد خائب عائد من رحلة صيد فاشلة، وصورة محارب مهزوم خارج من معركة خاسرة. يقترب من الصورة ويحلق فيها، فيأتيه صوتها كتيماً منكسراً:

— صورته قبل سنوات.

يدبر وجهها متسانلاً إليها:

— هل تعنين الله....

وقبل أن يكمل ما يريد أن يقول، يقطع صوتها صوتة:

— كان ذلك منذ زمن. أصبح في عداد الماضي الآن.

ثم ترفرف بعنق وتتنظر إليه وكأنها تتعابه أو تلومه:

— لماذا كُشِّلَت نفسك بامرئٍ تافهٍ مثل هذا؟

يردّ في أذنه صوتها وهي تقول حين كانا وحدهما في الصلاة. «إنه عاطل ومعلوب»، فيحاول أن يمدّ خيط صلةٍ يربط الصورة بما كان قد سمعه منها. ولكنه يراها تنضو عنها ثوبها وتَهْرَبُ ببصرها عنه. ترمي الثوب جانباً وتظلّ محتفظةً بقميصها الداخلي؛ فتتكشف أمامه تفاصيل جسمٍ لئن شهى، ويجد نفسه يمدّ يداً ويفتح أزرار قميصه ويأتي ليجلس على السرير، وقد سبقته إلى ذلك ترى ظلال وجوهٍ ترين في عينيه. تنظر إليه وكأنها تريد أن تستجلي الكامن في رأسه من أفكار، وتقول:

— لكأنك جئت لغايةٍ أخرى!

يفاجأ بما يسمع، فيتمتم مرتبكاً:

— لا... أبداً.

ينضو قميصه عنه. تستلقي وسط السرير تماماً تحت الصورة الأخرى التي تجمعها بزوجها وهي في بذلة الزفاف. يلتفت إلى الصورة التي يبدو فيها زوجها وهو يحمل بندقيّة ذات ماسورة طويلة، فيخيل إليه أن تلك الماسورة مصوّبة نحوه، وينتبه إلى يدها وهي تمسك بقلبه وتدير رأسه إليها وهي تغمغم:

— إنها مجرد صورة قديمة، وبندقية باردة. ربما كانت خاليةً من الرصاص عندما انشغلت الصورة.

فتزيد كلامها إحساساً بالحيرة، ويجد نفسه إزاء لغز غامض. وخشية أن تستفزها لاجأته فتنقفل فمها تماماً، ينشغل عن الصورة وعن البندقية وحاملها، وما يلبث أن يستبدّ به اللاهث.

حين ينهض يسمعهما تقول وكأنها تُفصح عن أمنية تتأجج في داخلها:

— هل ستزيرنا مرةً ثانية؟

يردّ وهو يلتقط قميصه:

— بالتأكيد. كيف لا أفعل ذلك وقد وقعتُ على جوهرة نادرة؟

فتشعر بتبار من الزهو يسري في روحها. وإن أخذت تلمم نفسها وتنهض من السرير فاجأها صوتُ

— في رأسي سؤالٌ يبحث عن جواب.

يجعلها ما تسمع:

— أي سؤال؟

يُنشَر على وجهه ابتسامةٌ متخالفة وقد رضع بديّه على كتفَيْها وصار بصره يُبحر في عينيها. وتسمعه يقول وهو يشير إلى الصورتين للمُلقَّتين على جداريّين في الغرفة:

– الآن ايقنْ تماماً أنَّه زوجك. سبق أنَّ قلْتِ إنَّه عاطل ومعتوب. وليس غريباً أن يكون عاطلاً، لكنْ لا أفهم ما تعنين بقولك إنَّه معتوب!

تسأل وهي تخفض بصرها:

– أيتهاً أن تعرف؟

– ريثما!

– ما الذي يدعوك إلى ذلك؟

– لعلة الفضول.

– ألم تقل إنَّك ستزورنا مرةً أخرى؟

– وأقول ذلك الآن أيضاً.

– ريثما ستعرف ما أعنيه في المرة القادمة.

ويمسحها صوته قبل أن تنفثت خارجةً، وهو يشير إلى الصورة التي يُظهر فيها الآخر في بذلة داكنة وهو يحمل بنقيبة ذات ماسورة طويلة:

– فقط أريد أن أعرف، ألهذه الصورة علاقةً بما تعنين؟

تهز رأسها إيجاباً، فيلاحظها صوته وهي توشك أن تجتاز العتبة:

– إن أُنْفَع؟

ترد دون أن تلتفت:

– لي، أو له، لا فرق. ولكنْ من الأفضل أن تدفع له: إنَّه رجل البيت!

ويشعر كأنها تقول عبارتها الأخيرة مثقلةً بمرارة السخرية، وتنسحب ليستكمل هو ارتداء ثيابه.

حين يخرج يراها تجلس على الأريكة في انتظاره. يجلس إلى جوارها ويستمعها تهمس:

– لقد بذلتُ جهداً. ألا تتناول عشاءك؟

يرد وأصابعه تلامس خدَّها ملاطفاً:

– لا أريد أن أفسد نشوتي بالطعام.

تبسم وهي تنهض ويستمعها تهمس من جديد:

– حسناً، إذن!

يراهما تتجّه إلى الغرفة الأخرى يسمعاها تنقّر بابها، فيدرك أنَّها تنقّب زوجها إلى أن الطقس الليلي قد تمّ. تعود إلى الأريكة. وما إنْ تستقرّ بجسدها هناك حتى يفتح باب الغرفة تلك. يخرج الآخر، ويردّ من وراءه الباب، ثم يتقدّم من الزائر، ويمدّ يده مصافحاً. ينهض الزائر ويمدّ يده في جيبه، فيضع الآخر يده تحت ذراعه ويسير به صوب السلم. فيصير في يقين الزائر أنَّ هذا الذي يُهبط السلم معه، وكأنّه ينزل إلى الحضيض، معتوبٌ حقّاً. لعلّ عليه يكمن في مكان ما من جسده، أو لعلّهُ يكمن في رأسه أو روحه. وحين يدسّ رزمة النقود في يده، يراه يضمّ راحته عليها وكأنّه يريد أن يعتصرها. وتحت مسقط الضوء الشاحب يرى وجهه يتشحب ثم يفيم، ويسقط رأسه على صدره.

يغداد

أحزان السنابل

. يامر عيسى النياسري .

إلى ماري المضمودة في ليلة الميلاد... ونابها
المفقود

حزين.. مثل سحابة حزينة
غادرها الربيع

وأحت رأسها للمناجل.

حزين.. مثل أغنية الأمهات
تهده أطفال القتابل.

حزين.. مثل هذي الأرض
عطشى تنتظر الخلاص.



حزين.. إذ ينشر الميلاد
أخبار السلاسل

تعيد المهد.. أغنية الحناجر.

حزين.. أطلب الزينات

أطلب الشمعات

لأجوار الحرائق.

حزين.. مثل المغارات

التي شهدت صوت طفل مقاتل.

حزين.. مثل أعود الصليب

مثل المسامير التي حطمت هذي
الأنامل.



حزين.. أرقب الأبواب

صامتة صمت المقابر.

حزين.. أبحث عن نايك المفقود

بين أجراس الكنائس.

حزين.. هـ «ماري» أطفال

قناديل المنازل

احفظت شتاء المراعي

أخفت نابها

ونابت بين أحضان الملاهي.



حزين.. مذ غادر الطائر
جنوب الأرض

لحو المناهي

وتفرق الريش بين المعابر.

حزين.. منذ عام مضى.

حزين.. لعام أتى.

حزين.. لأعوام سأتي

دونك

دون أهلي

وأصوات الهالاهل.

بهداد

محور الشر

ملف من إعداد: سماح إدريس (بيروت)، أحمد الخميسي (القاهرة)، ماجد الصامرائي (بغداد)، عيد الحق لبيض (الرباط)

المشاركون

أحمد، الخميسي

محمد ناج الدين الحسيني

ريمون ماهر كامل

أحمد منيسي

باسيل بوسف

أحمد التهامي

عمر نشابة

لطفيّة الدليمي

تستمدّ للبكة لجولة جديدة من نشر قيم الخير في العالم. وهي من سَمَحَ
الخيال بحيث لا تنفكّ تُبَيِّنُ لكلّ زمانٍ عنوانًا تستهدي به جيوشها وشركائها.
فبعد «محور الشر» الذي أطلّغته على اليابان وإيطاليا وألمانيا
في الحرب العالميّة الثانيّة، انتقلت إلى التصديّ لـ «إمبراطوريّة الشر» (الاتحاد
السوفييتي) والمنظومة الدائرة في فلكه) كما يقول تاج الدين الحسيني. ومع
تفكك هذه الإمبراطوريّة سارعت إلى تحرير الكويت وإنقاذ البشريّة من قبضة
صدام حسين، الذي لفظ بوش الأب أسسه - عمداً - «صدام» و«ساتان»
(شيطان) غير مرّة. ثم أطلق عام ١٩٩١ مصطلح «النظام العالمي الجديد»،
ومنذ ذلك الحين تدفقت من فم الملكة، أو من فم مثقفها (كما يقول أحمد
الخميسي)، مصطلحات ونظريّات مثيرة: من مصطلح «نهاية التاريخ» الذي
يُجرّم بانتصار الليبراليّة الرأسماليّة إلى الأبد، مروراً بـ «صدام للحضارات»
الذي يؤلّس الإسلام والكونفوشيستية، فاستعادة لـ «محور الشر» الذي أطلّغ
بوش الابن ليضمّ مَوْخَرًا كلّاً من كوريا الشماليّة والعراق وإيران، وإن لم
يُخَفِّر البنتاغون نيّته توسيع هذا المحور ليضمّ - في مرحلة لاحقة - بلداناً
أخرى تشكّل أخطاراً مُشَقَّةً بالسلام العالميّ من جراء امتلاكها (أو سعيها
إلى امتلاكه) أسلحة الدمار الشامل. فهذه الدول «المارقة» أو «اللاسلطة»
كما سمّاها كُتَيْبِي وكيمنجير لا يحقّ لها أن تكون قوّة لأنّها لا تدري
مصلحتها ولا مصالح العالم؛ فقط ملكة الخير هي التي تقرّر كيف تُستخدَم
أسلحة الدمار الشامل لنصرة «السلطان الخير» - بحسب مَنْ كان هو أيضاً
حليفاً للملكة قبل أن يصبح مارفاً لاسرور.

وفي ٢٢ آذار قال بوش الابن: «إنّنا نُلهم أنّ التاريخ دعانا إلى التحرّك من
أجل جعل العالم أكثر سلاماً وأكثر حريّة. وإن نُفوّت هذه الفرصة» وفي
اليوم نفسه قال وزير دفاع بريطانيا جيف هون: «فلوكن من الأكيد أنّ في
الشرائط المتناسية لن تتربّد أبداً في استخدام أسلحتنا النوويّة التي لن تكون
مع ذلك كافية على الأرجح لنفي حكام مستبدّين مثل صدام حسين عن
مهاجمة بلدنا بأسلحة دمار شامل». إذن العراق مهلك، وريّسا غيره
مستقبلاً، بحرب نوويّة يشعلها أحفاد طامع طائفة إينولاغاي التي ألقت أوّل
قنبلة نريّة على هيروشيما.

هذا الملفّ يسلّط الضوء على الأهداف التي دفعت ملكة الخير إلى وصم
ثلاث دول بالشرّ، تمهيداً لما قد يكون أعظم.

س.إ.

النصّ التحتيّ في «محور الشرّ»

□ أحمد الخميسي

الحرّة لا ينبغي أن يكون مجرد طلعة للأمرام. وقضيت موسكو ويكّن محذرتين من حديث «محور الشرّ». وشرّ كريس باتن باسم الاتحاد الأوروبي موجهاً عنيماً على السياسة الخارجية الأمريكية، متّهماً إدارة الرئيس بوش بالاتساق وراء منهج سطحيّ ومستبدّ. وأعلنت طوكيو رفضها تصنيف الولايات المتحدة لكوريا الشماليّة دولةً في محور الشرّ.

فأيّ نصّ تسمّي إذن هو الذي ألّى على واشنطن كلّ أسدقائها القدامى والجدد، ناهيك عن خصومها؟

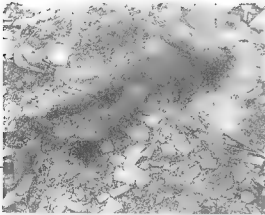
الأمن القوميّ الأمريكيّ: أمنٌ يبلغ أيّ نقطة

لا شكّ في أنّ الخوف، والغضب، والاستياء المكثوم من الحديث عن «محور للشرّ» كُزّج في الدرجة الأولى إلى إدراك أغلب العواصم العالميّة أنّ الظروف الدوليّة مهيتة الآن - أكثر من أيّ وقت مضى - لوضع نظريّة «الأمن القوميّ الأمريكيّ» كما تلمهه أمريكا مرسّنةً للتطبيق. وهذه النظريّة قامت على أساس أنّ الأمن الأمريكيّ يقع خارج الولايات المتحدة، وأنّ كلّ حفنة رمل أو تجمع بشريّ على بعد آلاف الأميال من واشنطن أمرٌ من صميم هذا الأمن. وهذا البعد يُفسّر بجدوره في تاريخ الولايات المتحدة وبطبيعة تكوينها ونشأتها، منذ أنّ أعلن الرئيس توماس جيفرسون عام ١٨٠٤ أنّه في حال نشوب حرب فإنّ الولايات المتحدة ستحتلّ كوريا لتُضخّم على الصعيد الإستراتيجيّ الدفاع عن لويزيانا وفلوريدا. وفي عام ١٨٢٣ صاغ الرئيس جيمس مونرو ذلك المفهوم في مبدأ عُرف باسمه، حين حذّر الدول الأوروبيّة من منافسة بلاده في للمستعمرات الإسبانيّة بقوله: «إننا نعتبر أيّ تدخّل لهذه الدول في توطيد نظامها السياسيّ في أيّ جزء من نصف كرتنا خطراً على سلامتنا وعلى أمنا». وتطوّر هذا المفهوم بحيث أصبح يُسمّع بالنشيط، عندما صرّح الرئيس ثيودور روزفلت عام ١٩٠٤ بأنّ «التخريف من أيّ تدخّل أوروبيّ في شؤون بلد من أمريكا

على خشبة المسرح، من سوفوكليس إلى شكسبير وإيسن، كانت الشخصيات تعبر عن نفسها بلغة واضحة وبهاشمية أكثر ممّا نجده فعلياً في الحياة اليومية. فقط عند أنطون تشيخوف ظهرت تقنيّة الحوار التي يشير فيها النهرُ للنطق إلى ما هو أعمق ممّا تعارف عليه الكلمات، فاصبح هناك ما يسمّى «النصّ التحتيّ» حيث لم تعد اللغة تتجسّد في الحديث المنطوق وهذه بل في لحنات الصمت والسكون أيضاً. فيما بعد لُذت الكاتبة المسرحيّة الإنجليزيّة ماريك ينتر الانتباه إلى أنّ اللغة لم تعد تُستخدم من أجل التواصل إلا نادرًا. وبعبارة أخرى، فإنّ البشر لا يقولون ما يُقنون، بل إنّ ثمة دائماً نصّاً آخر وراء كلماتهم، وعلى المنطقيّ أن يستشفّ هذا النصّ من صميم الوقائع والمواقف والتدبرة، لا من منطوق الألفاظ.

شكل مسرح السياسة الدوليّة، والسياسة المحليّة، وبيانات الزعماء، وتاريخ الدول، المجال الأعظم لظهور شبح النصّ الآخر وراء كلّ النصوص المنطوقة. ففي وقت من الأوقات كان الاستعمار البريطانيّ يعلن أنّ وجوده في فلسطين «انتدابي» وأنّ كنياته العسكرية وأرتال دباباته في دول أخرى محصية، بل «ارتقاءً بالشعوب ونشراً للحضارة»، وكانت هناك نصوص أخرى تمت تلك التصريحات، تُقرأ كالكتابة بالمير السريّ، فقط على وجه اللامر. ومازال التعبير الأمريكيّ الشبيه «الغرض البناء» constructive ambiguity خلال مفاوضات فلسطينيّة - إسرائيليّة ينشع في النصّ التحتيّ بدماء المجازر في غرّة الضمّة.

في خطاب الرئيس برش في ٢٩ يناير أمام الاتحاد الفيدراليّ تحدّث عن «محور للشرّ» تكوّن ثلاث دول هي العراق وإيران وكوريا الشماليّة، فنال الملقق بين حلفاء أمريكا أنفسهم. ووصف أوبّر فيلدرين وزير الخارجية الفرنسيّة السياسيّة الأمريكيّة بأنّها «ساذجة». وبأنّ بوشكا فيشر وزير الخارجية الألمانيّة إلى أنّ حلفاء أميركا ليسوا «أقماراً تابعة، كما أنّ التحالف بين الديمقراطية



مصطلح «محور الشر» تضمن في الخطط الأميركية لإلغاء القنابل الذرية على ناغازاكي

ومع اشتداد التنافس الدولي بين السوفييت والأمريكيين، تجدد الحديث عن «الشر» - لا الأتاني الفازي، بل الشيوعي. فأنطلق رونالد رايغن بعد فوزه في الانتخابات الأمريكية عام ١٩٨٠ بتعبير «إمبراطورية الشر» على الاتحاد السوفيتي.

إلا أن سقوط سور برلين، وظهور سياسة «إعادة البناء» (البريسترويكا) كانا نذيرين بقرب زوال الدولة السوفيتية. فتحدث الرئيس جورج بوش عام ١٩٩٠ عن نظام عالمي جديد، تم اختباره بالفعل في حرب الخليج الثانية حيث وقف السوفييت والأمريكان خلفاً في حرب واحدة لأول مرة بعد مواجهتهما المشتركة للنازية.

وأتمحت السنوات العشر التي تلت زوال الاتحاد السوفيتي للفرصة لأمريكا لكي تلقي الضوء بقوة على رؤيتها للعالم والعلاقات الدولية. ووقعها من كل ذلك، بغيرسة غير مسبقة، غرقت من المطالب والتطلعات ما فاق أهداف أية إمبراطورية أخرى عرفها التاريخ البشري.

سنوات الاختتام

ليس الحديث عن «محور الشر» أكثر من لحن غنائي تحتشد فيه كل الإقاعات السابقة لتبلغ نتيجة نهائية أختبرت خلال السنوات العشر الأخيرة. فهذا المحور هو تمتاً لمدة مفاهيم سبقته ظهرت في تعاقب زمني يواكب الأحداث وهي: مفهوم «نهاية التاريخ» الذي طرحه فرانستيس فوكوياما عام ٨٩؛ ثم «النظام العالمي الجديد» الذي طرحه الرئيس بوش في أركل التسميديات؛ وأخيراً مفهوم «صراع الحضارات» أو «صدامها» الذي طرحه صامويل هنتنغتون في مقال صيف ٩٢، وفي كتابه المسمى بالعنوان نفسه فيما بعد، «محور الشر». إذن، هو الحركة الرابطة الختامية في معروفة السياسة الخارجية الأمريكية

اللاتينية يبرز تدنّ الولايات المتحدة هناك، وأحياناً طلب الرئيس وودرو ويلسون عام ١٩١٧ من الدول الأخرى أن تُقرّ بسلامة التدخّل مقترحاً «أن تُكَلِّب الأمم بمعنى ما، ويعد تقاض متبادل، مبدأ الرئيس مرنرو كيمبل صحيح عالمياً». وخلال الحرب العالمية الثانية هكّت أمريكا تمثيلها «محور الشر» إشارة إلى دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان)، وأقنص لاحقاً أن النصر انتهت لذلك المصطلح قد تضمن في الخطط الأمريكية لإلغاء القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي دون ميؤر عسكري. وقبل أن يتبدد سخاؤ الحرب، أصبح خلفاء الأمن السوفييت خصم اليوم. وعلى الفور ظهر «مبدأ ترومان» الذي أعلنه الرئيس ترومان في مارس ١٩٤٧، وكان النصر المخطوف هو «ممساعدة الشعوب التي تهكمها الشيوعية»، في حين كان النصر الآخر هو تمتع العالم في حرب باردة ضد السوفييت. وفي رحلة المصطلحات التي تلهم حركة «الأمن القومي» الأمريكي كانت فروغ صغيرة تمتد من شجرة النصر الرئيسي فوق كل منطقة بأوراق تلاتم طقسها. وأهذا مثلاً تشنّ الرئيس أيزنهاور، لمواجهة حركات التصدر العريضة، نظرية «علم الفراغ في الشرق الأوسط» وحلف بغداد» أيضاً.

ورغم أن أمريكا حرصت على تغطية خطورة المفهوم الأمريكي للأمن القومي على العالم بربطه بالنضاع عن الديمقراطية وحرية الشعوب الأخرى، فإن تلك التغطية لم تلُح في حجب طبيعة السياسة الأمريكية المتكسفة في الهيمنة والانتكافية. فمنذما وصل سلفادور الياندي إلى الحكم في التشيلي بانتخابات حرة عام ١٩٧٠، صدر هنري كيسنجر في ٢٧ يونيو من ذلك العام بالقول: «إنني لا أفهم كيف ينبغي علينا أن نقف مكتوفي الأيدي وأن نرى، بسلبية، بلدًا يصبح شيوعياً لأن شعبه لا يُبدي مسؤولية كافية». وبذلك أصبحت والمنظمن هي التي تضمن متى يكون شعباً ما على حق عندما يختار هذا الطريق أو ذاك، ومتى يكون خياره نوعاً من «عدم الشعور بالمسؤولية»؛

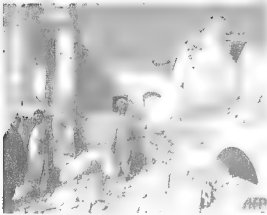
والإسلاميّة، لا يسبب النقط بل لأنّ الدين والثقافة هما العامل الرئيسيّ للحرك للروب القادمة. ولم ير تناقضاً بين ذلك الطرح وواقع أنّ الصريّين العالميتين اللتين وقعتا في أوروبا كانتا بين شعوب مقاربية دينياً وثقافياً. كما لم يُلحَ المخارطة الغربيّة في أنّ «صراع الحضارات» ذاك يهدّد العراق وليبيا وسوريا وفلسطين والسودان والصومال، وكلّها تنتمي إلى الحضارة الإسلاميّة. دون أن يهدّد الكويت والسعودية ودول الخليج التي تنتمي إلى الحضارة نفسها لكنّ طرح منتقدون لم يكن سوى محاولة للعثور على تبرير نظريّ، فلسفيّ، لشدّ الحرب على المناطق الفقيرة التي تقاطعت مع الدين الإسلاميّ.

هكذا أصبح لدى الولايات المتحدة مُثلث كاملّ الاضلاع: من «نهاية التاريخ»، ولهب العولة، ثم الاستعداد للحرب في أيّ نقطة. وما إن مزقت الطائرات في ١١ سبتمبر هبة الولايات المتحدة حتى مضت التصريحات الأمريكيّة مضطربة ما بين «مواجهة الإسلام» و«مواجهة الإرهاب» والمطالبة براس بن لادن، وغير ذلك. وفجأة انتقلت أمريكا - بعد أن فشلت في إقناع العالم بالعقاب الجماعيّ لشعب أفغانستان بأكمله بدلاً عن أفراد - إلى الحديث عن محور للشّر يضمّ العراق وإيران وكوريا الشماليّة. وبدا أنّ ذلك الانتقال من قصة أفغانستان إلى قصة كوريا عار من أيّ منطق، لاسيما عندما يقترب ذلك بالتطويع الجنونيّ باستخدام السلاح النوويّ، والتمسك بتطوير درع صاروخيّة جديدة، والانسحاب من معاهدة حظر الصواريخ الباليستيّة لعام ١٩٧٢، والإبادة الجيميّة على مرأى من العالم أجمعّ لشعبيّن كاملين في العراق وفلسطين، ثم إدراج دولاً أخرى في محور الشّرّ قبل التراجع غير النهائي عن إدراجها.

كان فوكوياما قد استنّب بمقاله «هل هي نهاية التاريخ؟» الشرعيّة النهائيّة على نمط الحكم الأمريكيّ، معتبراً أنّ ذلك النمط هو «المحطة النهائيّة» لظلال التطور الاجتماعيّ والسياسيّ في مواجهة كلّ للتجارب السابقة، بل والمعتلّة مستقبلًا. فقد أشار إلى أنّ هناك «إجماعاً على شرعيّة الديمقراطية الليبراليّة كنظام حكم بعد فشل الإيديولوجيّة الاشتراكيّة، والملكيّة، والفاشيّة» وإلى أنّ الليبراليّة تشكل «نقطة النهاية في التطور الإيديولوجيّ للإنسانيّة، والصورة النهائيّة للحكم البشريّ». والحقّ أنّ ما كتبه فوكوياما هو أقرب ما يكون إلى إعلان انتصار، فتحّ الباب لخطوة أخرى أكثر تقدّمًا، هي إشهار «العولة» على لسان الرئيس بوش الأب عام ١٩٩١ نظريّة للنهب الدوليّ، مادام التاريخ قد انتهى عند ذلك النهب. وجرى تصوير العولة وكأنّها قدر كونيّ لا رادّ له، قائم من بين السحب على أجنحة العلم الحديث، لا أنّها مجموعة سياسات ترؤّس الحكومات والبرلمانات على اتفاقيّاتها ببعض إرادتها، كما يُمكنها ألا ترقّع عليها.

هكذا أحنى فوكوياما رقبته التاريخ أمام التجربة الليبراليّة للتوحّش قائلاً له «هنا نهايتك»، وسارع الرئيس بوش لتوضيح الطبيعة الاقتصاديّة لنهاية التاريخ، مُثبّتها العولة. وانتهى التاريخ إيديولوجيّاً وفعليّاً، من وجهة نظر المصالح الأمريكيّة وفكرها السياسيّ طبعاً. أما في الواقع فقد ظلّ التاريخ مُغلّق السراج، يتجول بعيداً، مهذّباً بكل الاحتمالات. وهنا تحديدًا ظهر مقال «صيدام الحضارات» لصامويل هنتنغتون صيف ٩٢. وقد رأى منتقدون أنّ للتاريخ مُغلّق السراج في مناطق خطّ الفجر الذي يتقاطع مع دول تقطنها غالبية مسلمة، وفيها النقط وثروات أخرى.^(١) وتصور أنّ للجاهلية القائمة مستمّر بين الحضارة الغربيّة

١ - في وقت ما، بعد أن خفضت الدول العربيّة عام ٧٢ صادرات البترول، صرّح الرئيس فورد في ٢٢ أغسطس ١٩٧٤ بأنّ أحداً «لا يستطيع أن يُحسب النتائج الخبيثة التي قد تترتب على رفض بعض الأمم مشاركة الأمم الأخرى مياح الطبيعة» [١].



هل كانت الحملة على أفغانستان مجرد فرقة سياط لإرهاب الآخرين وتبليغهم لعمليات التعذيب؟

- فهي مرحلة تستغل خلالها الخططات الأمريكية عن المنظمات الدولية، مثل الأمم المتحدة وحلف الناتو، والأغلب أن يتحول هذا الحلف الأخير إلى منظمة سياسية، بعد أن عجزت البلدان الأعضاء عن تطوير نفسها عسكرياً لتتلق بقدرات أمريكا.

- وهي مرحلة يطو فيها برامس مبدأ أن أفضل وسيلة لتفادي الخطر هي وأنة في مهده، أي القضاء المبكر على مصدر الخطر، ومن هنا تمديدًا تلوح قائمة بأسماء دول مثل إيران لتوجيه الضربات الوقائية إليها.

- وهي مرحلة تستريح الخطط العسكرية إلى تحقيق أهدافها عبر تحالفات مؤقتة، فليس محتملاً أن يكون التحالف الذي خاض الحرب ضد أفغانستان هو نفسه الذي سيضرب العرب ضد العراق، فإذا بدأت الحملة على كوريا الشمالية، فإن تحالفًا جديدًا قد يظهر خصيصًا. ذلك أن سياسة تحالفات مرنة كهذه ستناصب واشنطن في المرحلة القادمة.

وفي كل الأحوال فإن القوة العسكرية الأمريكية في كل الحملات القادمة ستكون هي القوة الرئيسية الضاربة، خاصة أن قوى الدول الأوروبية مجتمعة أو منفردة لا تستطيع أن تكون نداء لها، وأسيما في المجال الجوي الذي صارت واشنطن تعتمد عليه في الأساس. لكن هل يعني كل ذلك أن أمريكا قد ألقت القبض على التاريخ؟ كلا. وعلى العكس من ذلك: شكل الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ من قبل بدأت رحلة السقوط في اللحظة التي بلغت فيها أقصى درجات الاكتمال فلم تعد قادرة على أن ترى شيئاً سوى صورتها.

الخاتمة

أحمد الخميسي

صحفي وقصاص ومترجم. له العديد من الكتب والمقالات. حاصل على الدكتوراه في الآداب المقارن من جامعة موسكو. وهو للراسل الجديد لجلة الأراب في مصر.

وخلافاً لكل النصوص العادلة المنطوقة التي كانت تخفي وراءها أشباح نصوص أخرى مجنونة، فإن نصر «مصور الشر» للجنون يُخفي وراءه نصاً آخر عاقلاً تماماً. وإلا فكيف لنا أن نلهم الحديث المكرر للرئيس بوش عن «الفرصة الذهبية التي أتاحتها ضربة ١١ سبتمبر لنشر أفكار الحرية في آسيا»؟ فهل كانت الحملة على أفغانستان مجرد فرقة سياط في الهواء لإرهاب الآخرين وتبليغهم لعمليات التعذيب؟

الواضح أن «مصور الشر» مفهومه لقطع الطريق على عمليات مستقبلية، وإن أفغانستان لم تكن سوى مدخل إلى ساحة واسعة تُحكّم فيها أمريكا سيطرتها على القوى الذويّة في الهند وباكستان، وتُجّهض بها بوادر التعاون بين روسيا والصين وإيران والهند، وتُبدّد وجوبها الممكّر في آسيا الوسطى عبر أفغانستان، وتحاصر بها الصين كقوة اقتصادية وعسكرية صاعدة، والمقصود بمصور الشر، إذن، قطع الطريق على بدائل تُشعر في المستقبل، ولهذا فإن المصطلح المطاوع يضم، مع العراق وإيران، كوريا الشمالية، لتتسع بذلك خريطة الأهداف. إلا أن الشرق الأوسط يشغل مكان الصدارة حالياً في تلك الخريطة بدوله: العراق وفلسطين وسوريا وإيران واليمن والسودان. هذه هي الأهداف الأولى التي ستجد مسؤوليات قصصها في التاريخ، بالاصول الإسلامية، والإرهاب، وصدوم الحضارات، وإنهاية التاريخ، والعولة. وهكذا فإن مصطلح «مصور الشر» تعبّر عن مشروع للهيمنة العالمية الجديدة، وهو مصطلح وفرت له أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الفرصة للظهور والحركة، كما قال الرئيس بوش.

بمصطلح «مصور الشر» تعلن الولايات المتحدة انتقالها الصريح من الزاوية بين الدبلوماسية والحروب، إلى عهد جديد، أي إلى سياسة حربية عسكرية بحق، يقدم خلالها الجنرالات والدور الأكبر. وهي مرحلة مختلفة ذات سمات جديدة:

حوار مع محمد تاج الدين الحسيني

حول «محور الشر»

أجراه: عبد الحق تيبض، مراسل الآداب في المغرب

□ محمد تاج الدين الحسيني

يوش الابن ان يصنّف مجموعة من الدول التي يكرّ لها العداوة ضمن «محور الشر» ويهدّما بتوجيه ضربات انتقاميّة ضدها.

والملاحظ أنّ مفهوم «محور الشر» قد خضع منذ الحرب العالميّة الثانية لتحولات عميقة. فدول «محور الشر» التي كانت تواجه الحلفاء شكّلت عدوّاً استراتيجيّاً وسياسيّاً وإيديولوجيّاً، وخاضت حرباً معلنة ضدهم. كما ارتبطت قضية الشرّ آنذاك، بالنزعة العدوانيّة والتوسعيّة للنظامين النازي والفاشي. وبطبيعة الحال، فعندما وُكِّف مصطلح «الشر» كان له ما يبيّره على مستوى الواقع. فهل يمكننا الحديث، اليوم، عن وجود مثل هذه المسوّغات الواقعيّة؟ الإجابة عن هذا السؤال تُعزّل علينا في تحليلات المهتمّين التي جاءت في عموميتها مستفسرة ومستوحاة عن الأسباب الحقيقيّة وراء استصدار أميركا لمل هذا التصنيف الاعتباطي وغير الدقيق، ولتستخلص أنّ هذا الاتهام تقف وراءه أغراض ذاتيّة لأميركا تستهدف تصفية حسابات ضد أنظمة هذه الدول، خاصّة وأنّ المجتمع الدوليّ - وعلى رأسه الحلفاء الأوروبيون لأميركا في الحلف الأطلسي ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصاديّة - يلدان الاتحاد الأوروبيّ عامّةً - لا يستسيغون التصنيف الذي وضعه بوش، ولا يبدون أيّ حماس حقيقيّ في السير في مغامرة جديدة ضدّ أيّ من الدول الثلاث؛ وهو ما يؤكّد الدعوة الأميركيّة أيّ إجماع دولي، والتضامن الوحيد الذي يمكن أن تجده يأتي من بريطانيا أساساً، إلى جانب بعض الدول الغربيّة، دون أن ينبج في تشكيل إجماع دوليّ مكثّف كما حصل إبان حرب الخليج الثانية وفي الحرب ضدّ طالبان وتطعيم القاعدة في أفغانستان.

وما يؤكّد ما قلناه أنّ الجيران الإقليميّين للدول الثلاث، والذين يُصنّفون صنفاء أميركا وحلفاءها، لا يبيّنون أيّ استعداد لاسيارة الموقف الأميركيّ. فعندما زار الرئيس الأميركيّ مؤخّراً كوريا الجنوبيّة لاحظنا حجم المظاهرات وقوّة الاحتجاجات التي واجهت هذه الزيارة، معنّدة بقرار بوش بشأن كوريا الشماليّة. ذلك لأنّ

يبنو أن مفهوم دول «محور الشر» الذي أطلقته الولاياتّ للتحدة الأميركيّة مؤخّراً ليس جديداً في السياسات الدوليّة. إلّا أنّه يَحْمِلُ دلالات جديدة كانت نتيجة تحولات كبرى في نظام العلاقات الدوليّة منذ انهيار الاتحاد السوفيّاتي ونهاية حرب الخليج الثانية إلى صدمة ١١ أيلول. فكيف يمكننا أن نؤمّر مفهوم للشرّ الدوليّ ضمن هذه المتغيّرات وهل هناك إجماع دوليّ وتكليف قانونيّ، حول تحديد مفهوم «الشر» في العلاقات الدوليّة؟

اختارت الولاياتّ للتحدة الأميركيّة، منذ انهيار الكتلة الشيوعيّة وتفكّك الإمبراطوريّة السوفيّاتيّة، أن تملأ عرش الأيديّة القطبيّة وتنطلق منه لإعادة صوغ مفهوم العلاقات الدوليّة، وإعادة تنظيم العالم وفقاً لبادئ النظام العالميّ الجديد كما تبثت في خطاب جورج بوش الأب عام ١٩٩١. فراحات ترأّيب كلّ نقاط المصيبان الموجودة والمحتملة في أيّ منطقة من العالم، والتي يُمكنها أن تُشكّل تهديداً أو معارضةً لسياسة أميركا الخارجيّة من جهة، وحماية «أمنها القومي» من جهة ثانية. فوجدت أنّ نقاط المصيبان الحقيقيّة تقوم في: العراق، وإيران، وكوريا الشماليّة. ولذلك وصفناها بدول «محور الشر» وحجّتها في ذلك امتلاك هذه الدول للأسلحة الدمار الشامل.

وهكذا تُدرك أنّ هذا المفهوم مفهوم أميركيّ صرفٌ جاء نتيجة رغبة أميركيّة في إعادة ترتيب العلاقات الدوليّة، ولا يستند إلى أيّة مشروعيّة قانونيّة في إطار القانون الدوليّ المنظم للعلاقات الدوليّة. إلّا أنّها ليست المرّة الأولى التي تُطوّل فيها أميركا مثل هذا المصطلح في إطار تعاملها مع خصومها: فقد سبق للرئيس رايفن أن وصف الاتحاد السوفيّاتيّ في فترة الحروب الباردة بـ «إمبراطوريّة الشر» وإبان الحرب العالميّة الثانية أطلق على دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) مصطلح «محور الشر». وتوتّف أميركا اليوم هذا المفهوم في مقابل «محور الخير» الذي تدعي أنّها تقوده في حرب مقدّسة بعد أحداث ١١ أيلول. وحوال الرئيس



كوريا الجنوبية تتظاهر
ضد قرار بوش اعطيل
كوريا الشمالية في محور
النشر

العلاقات الدولية المعاصرة. ولا شك أن الولايات المتحدة قد أدركت مؤخراً حجم خطاها، ولا أدل على ذلك من التصريحات التي صدرت عن مستشارة الأمن القومي السيدة رايس، بأنها أوضحت أن عملية التصنيف لا تُقني استعمال القوة ضد البلدان الثلاث، وإنما هي بمثابة تحذير تنتظر من ورائه الإدارة الأميركية أن تُصاح تلك الدول لواقف المجموعة الدولية والقانون الدولي - وهو ما يفرض على درجات من التراجع في هذه الخطاب الذي تحدث به بوش أمام الكونغرس. ويمكننا بالتأكيد إحصاء أسباب هذا التراجع إلى عدم تجاوب المجتمع الدولي مع الخطاب الأميركي.

إن أهم وسيلة لتحديد مفهوم «النشر» أو إعادة تحديده هي تلك التي جاءت متضمنة في ميثاق الأمم المتحدة، حين اعتبر أن الدول التي تمارس عملاً من أعمال العدوان هي التي يجب أن تخضع لمقتضيات الفصل السابع من الميثاق. وتحقيق هذه الغاية أصبحت تشكل ما يسمى «نظام الأمن الجماعي» الذي عركه فبقية العلاقات الدولية الأميركية هانز مورتجارت في كتابه **السياسة بين الأمم: الصراع من أجل القوة والسلام** بأنه الكتل الواحد والواحد للكل. ويبدو أن النظام الذي قامت عليه الأمم المتحدة يركز أساساً على قيام أمن جماعي في مواجهة دول العدوان. وقد طُلت كلمة «العدوان» غامضة في أدبيات الأمم المتحدة حتى سنة ١٩٧٥، حين صدر قرار شهير عن الجمعية العامة يُعرّف العدوان بأنه تلك الاعتداءات المُسَمَّاة التي توجه ضد الاستقلال السياسي أو الوحدة الترابية أو السلامة الإقليمية لدولة ذات سيادة وعضو في المنظّم الأممي. فهل قامت الدول الثلاث الموصوفة بالنشر بأي عمل من العدوان، سواء ضد أميركا وأمنها القومي أو ضد الأمن الجماعي العالمي؟

بناءً على بداية الإجابة نستطيع القول إن الولايات المتحدة، في موقفها الأخير من الدول الثلاث، لا تترقب على أية حجة قاطعة على تورطها في أعمال عدوانية أو حتى تحركات عنوانية. ولم تعلم بأي دولة تسعى للقيام بعمل عدواني أو لها نية توسعية تولف

أميركا بموقفها المعلن ضد كوريا الشمالية تُؤمّد طريق الحوار الذي بدأ بين الكوريين، والذي يسعى إلى فتح سبل السلام والتعايش، وربما توحيد البلدين والشعبين، بعد مدة طويلة من الانفصال والعداء بين النظامين الحاكمين في كلتا الدولتين. وكذلك للشأن بالنسبة إلى العراق الذي بدأ يعود إلى المنظومة الإقليمية العربية تدريجياً. كما أن منطقة الشرق الأوسط بدأت تشهد تحولات تاريخية في العلاقات العربية - العراقية، وتهدف الجامعة العربية إلى إعادة إجماع العراق في المجموعة العربية. وقد ذهب بعض المتفائلين إلى التأكيد أن كل النزاعات القائمة بين دول الخليج العربي والعراق قابلة للتسوية في المستقبل القريب، إذا ما أحترم العراق تهمته في إطار الجامعة العربية. ومثل هذا الوضع لا يُشجع بتوجيه أي ضربة عسكرية جديدة ضده، وإذا ما تمت هذه الضربة فستخضع دول الخليج مجدداً إلى الدخول في تحالفات مركزية مع أميركا أو إلى تقديم تسهيلات عسكرية لها في المنطقة؛ وهو ما سيُحدث التوتر من جديد ويؤدي، بالتالي، إلى الانقسام في العلاقات العراقية - العربية بما يهدد أمن المنطقة لسنوات أخرى قادمة. أما بالنسبة لإيران فهي دولة تعيش نموذجاً جيداً للديموقراطية الحقيقية في منطقة الخليج العربي، وتراجعت نزعة التطرف التي عرفتها في عهد الخميني ورفسنجاني منذ وصول الرئيس محمد خاتمي إلى السلطة بدعم من الإصلاحيين. وقد انعكس ذلك على سياستها الدولية تجاه جيرانها الإقليميين وصارت أقرب إلى التهدئة والحوار والتعاون. ولا يمكننا تصوّر أية دولة في هذا النظام الإقليمي يمكنها أن تشجع الموقف الأميركي الساعي إلى ضرب إيران، لأن من شأن ذلك أن يُعكس سلباً على مستقبل السلام في المنطقة.

وعصوماً، نقول إن الولايات المتحدة قد أخطأت خطأ مزدوجاً عندما عمدت إلى ذلك التصنيف العشوائي والتلقائي. ولهذا، فإن عليها مراجعة مواقفها وسلوك سياسة اعتدائية إن شئت ألا تصنف بموقف التفوق الذي تتنمّع به في إطار الأدبيات القطبية التي تميّز

قبرت كل محاولة للتقارب، هي عملية احتجاج الروايات الأميركية في السفارة الأميركية في طهران. وبذلك فقدت أميركا طرفاً أساسياً من المعادلة في المنطقة كان يتولى أمر السهر على مصالحها وتنفيذ مطالبها. وهذا فقدان تركّبت عليه حالة فراغ في المنطقة، حاولت أميركا ملأه بالاعتماد على السعودية وبعض دول الخليج. لكن بعد أحداث المسجد الحرام لم تعد أميركا تضع ثقلها في حليف إقليمي آخر في المنطقة سوى إسرائيل، لدرجة أن وزير الدفاع الأميركي السابق السيد براون قال بوضوح: «إن إسرائيل تمثل في هذه المنطقة من العالم حاملة الطائرات الأميركية التي لا تُعرف الغرب». وقد وقعت إسرائيل منذ أوائل الثمانينيات مع الولايات المتحدة معاهدة التحالف الإسرائيلي-الأميركي، بحيث صارت بموجبها «الصامي الفعلي» والرئيسي للمصالح الأميركية في هذه المنطقة.

ولما كانت إيران تتحوّل وتتطوّر إلى قوة إقليمية بتولّدها على صواريخ بعيدة المدى، وتجهّد من أجل تطوير قنبلة ذرية إسلامية، وتحوّل على أسلحة متفوّقة بالنسبة إلى جيرانها الإقليميين، وتبنّى نظاماً ديموقراطياً يختلف في محتواه ومبناه عن الطريقة الغربية، فإنّ ذلك كله يمثل تحدياً للإدارة الأميركية التي لا تُزبج في وجود قوة إقليمية في الشرق الأوسط خارجة عن طرفها. كما أن أميركا لن تنسى تاريخياً أنّها فقدت في إيران حليفاً إستراتيجياً وقوة دركية حاسمة في الحفاظ على التوازنات الإقليمية داخل المنطقة.

شكل العراق نوعاً حالة خاصة في السياسة الدولية للإدارة الأميركية. ومبعت فقر دائم لها. فما إنّ يصير حليفاً طرفياً لأميركا حتى تطفو على السطح مخفّيات دولية ترمي بهذه العلاقة إلى ضلّة التوتّر والعداء. فعلاً يتخلّص قيام حلف بغداد في مطلع ١٩٥٣، وكيف مثل تحالفاً إستراتيجياً في مواجهة الدّاء القومي. لكن ما لبث هذا التحالف أن تبدّد بقيام ثورة ١٩٦٨ ومقتل الملك فيصل. كما نلاحظ جميعاً التحالف الأميركي - العراقي إن كان حرب

لحقيقتهما ما تفتّنه من أسلحة الدمار الشامل. فكلّ ما تحتجّ به أميركا ضدّ هذه الدول أنّها تتولّى على كمّيات هائلة من أسلحة الدمار الشامل، وأنّها قد تعتمد إلى توظيفها في حرب حقيقية مستقبلاً. ولا نعلم أنّ هناك تكيّف لمياسة النوايا في تبير العلاقات الدولية داخل المنظومة الدولية. وإذا كلّ سنحايكم للنوايا ونضعضها اليّة من اليّات صيانة القرار الدولي، فلا نفهم كيف لا ترى أميركا أنّ امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية ولكافة أسلحة الدمار الشامل يشكل مصدر تهديد لتوازن القوى الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط، وينبغ الشّر فيها!

تحتكم طبيعة العلاقات الدولية في الغالب إلى الخلفية التاريخية كنظم أساسي لسيورتها. الا يمكن أن تُربط إدراج دول، كالعراق وإيران وكوريا الشمالية، ضمن دائرة الشّر الدولي بهذه الخلفية التاريخية وهذا الإث العالق بذاكرة أميركا؛ ولنبدأ بإيران.

تلب المسألة التاريخية دوراً أساسياً في هذا المنظور. فقد كانت الولايات المتحدة الأميركية تُعتبر شاة إيران الدركي للتفرّق في منطقة الخليج والشرق الأوسط، والقادر على الدّماع الدائم من المصالح الحيوية الأميركية. وكان الشاة نفسه لا يترّ من هذه الصفة، خاصّة وأنّ إيران كانت تتمتع بالدمع للرجيسيت والأسلحة الأميركية. بل إنّ الشركات الأميركية الكبرى كانت ترتبط بعلاقات وطيدة مع والشركة الإيرانية للبقول، التي كانت تُعتبر آنذاك من أولى الشركات المتعدّية الجنسية في العالم الثالث. ومع تراجع شعبية نظام الشاة وتزايد المظاهرات للشعبية ضدّه، وأمام تقاعص قوة آية الله الخميني، مالت أميركا تدريجياً إلى نزع ثقلها عن الشاة وإلى استرضاء بعض جنرالات الجيش قسّص تمكينهم من الاستيلاء على السلطة. لكنّ عندما فضلت أميركا في تنصيب العسكريين راحت تبعث من إمكانية لخطب دة الخميني. غير أنّ النقطة المصلية في هذه العلاقة، والتي



أنتت أميركا أن العراق يمتلكه البصرة الشبيشة، وأنه ملوثة منذ السبعينيات

منذ ذلك الوقت وأميركا تبحث بجد عن مبرر معقول يمكنها من إعادة ضرب العراق، حتى إنه عندما ثارت شجة رسائل «الجربة الشبيشة» أشارت الإدارة الأميركية بإصبع الاتهام إلى العراق متعياً أنه كان يمتلك تلك الجربة وقد ملوثة منذ السبعينيات. كما اتهمت بعض رجالات مخابراته في ألمانيا بتورطهم في علاقة مع محمد عطا، المتهم بالاشتراك في تفجير الطائرات الانتحارية في ١١ أيلول. ويُعتقد أنه لم يبق للولايات المتحدة اليوم إلا التمسك مرة أخرى بمقولة أن العراق لم يُخترم التزاماته الدولية بخصوص وجود فرق التفتيش الدولية هناك، وإنه ما لم يُخترم تلك الالتزامات فإن أميركا ستضطر إلى توجيه ضربة عسكرية إليه.

إلى جانب هذه المعطيات لا بد للمحلل أن يستحضر الطغية التاريخية التي اشرتم إليها. فهذه العلاقات انقسمت في أغلب مراحلها بالتورط والسبب يعود إلى شكل النظام القائم في العراق ممثلاً في حزب البعث الذي يعتبر رائداً للمركبة القومية العربية وللأجاء الراديكالي في النظام السياسي العربي. وهذا ما يفسر أن أكثر الدول العربية تصلباً في العلاقة بإميركا وبالمجموعة الغربية هما العراق وسوريا، باعتبار إيديولوجية الفكر البعثي.

ننتقل الآن إلى توصيف العلاقة التاريخية بين أميركا وكوريا الشمالية متصالحين: هل ما زال كوريا الشمالية تتهذ مصالحي أميركا حتى بعد نهاية الحرب الباردة؟ ولماذا يتم إزراجها ضمن محور الشر في وقت تُعرف فيه العلاقة بين الكوريين تطورات هائلة؟

في أواخر الأربعينيات انطلقت الحرب الكورية، وبلغت في حدود عام ١٩٥٠ تطورها التي إلى المطالبة بتدخل الأمم المتحدة، باعتبار أن مجلس الأمن هو وحده الذي يتورط على صلاحيات واسعة في مجال الأمن الجماعي. لكن عندما طلب المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة من مجلس الأمن اتخاذ قرار أممي بالتدخل العسكري في

الخليج الأولى، والذي ستتفكك أوصاله بعد نهاية الحرب وخرج العراق منها قوة عسكرية جديدة في المنطقة. ويسجل تاريخ العلاقات الدولية بين العراق وأميركا أن العراق هو الدولة العربية الوحيدة التي نلت ملتزمة قرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع أميركا بعد حرب حزيران ١٩٦٧، فهل يمكن أن تكون لهذه العوامل التاريخية دور في إدراج العراق ضمن محور الشر؟

حالة العراق ضمن دول محور الشر استثنائية. فبالإضافة إلى تحكم العناصر التاريخية القديمة والصديقية فيها، فإن للحسابات الشخصية دوراً شاعراً في توجيه هذه العلاقة. وفي هذا الإطار يمكننا أن نشير إلى درجة التوتر في العلاقة القائمة بين الرئيس بوش الأب والرئيس العراقي. وكان السبب المباشر فيها حرب تحرير الكويت. لكن هناك أسباباً غير مباشرة تؤثر هذه العلاقة وتفاقم حدة العداء والتوتر فيها. ومن هذه الأسباب اتهام الرئيس العراقي مباشرة بتدمير محاولة اغتيال بوش الأب أثناء زيارته للكويت بعد اعتزال السياسة. ومنها كذلك أوامر الرئيس العراقي بوضع فوسفاساء تحمّل صورة الرئيس بوش على منخل فندق الرشيد الذي يستقبل فيه عادة الرؤساء والملوك وضيوف الدولة من كبار الشخصيات، وهو ما يعني أن جميع هؤلاء ملزّمون أن يطأوا بأرجلهم هذه الصورة عند دخولهم بواب الفندق. وفي غير مرة نقلت المحطة الأميركية C.N.N. هذه الصورة المعبّرة لتصوّر للأميركيين درجة العداء التي يكنّها همداك حسين شخصياً للرئيس الأميركي السابق وللشعب الأميركي. وقد عشنا جميعاً ردود الأفعال التي أعقبت أحداث ١١ أيلول، وسجلنا أن الدولة الوحيدة التي لم تتبن أعمال الهجوم ولم تتوجه بكلمات عاطفية ومؤثرة إلى أميركا كانت العراق: حتى إن نائب الرئيس العراقي قال في تصريح له بعد هجمات ١١ أيلول: «إننا لن نتألم لما وقع في أميركا؛ فهي تجني اليوم نتائج سياساتها. بل نحن نتوجه فعلاً بالعداء إلى الشعب الأميركي؛ ولا عزاء لنا نقتمه للإدارة الأميركية».

حربٍ الطليح وتمّ بعدها تمريرُ الكويت، فالتقى بوش الأب بعيدَ ذلك خطابَه الشهير الذي أشار فيه إلى أنَّ المجتمع الدوليَّ ينبغي أن يتجاوزَ المخاطر التي تَؤسَسُ لها حقوقُ الغاب، وأنَّ علينا أن نُخضعَ علاقاتنا لنظامٍ عالميٍّ جديدٍ..» غير أنَّ ذلك النداء لم يكن يبيِّنُ بنظامٍ عالميٍّ جديدٍ، بقدر ما كان يبيِّنُ بروزَ عهدِ الأحادية القطبية وتراجُعِ توازنِ القوى القائمة على الثنائية.

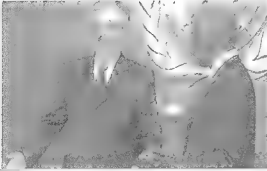
عندما نقول نظام الأمن الجماعيِّ، فإنَّنا نُقني به مشاركة جميع الأطراف فيه. إلّا أنَّ الولايات المتحدة الأميركية أضحت منذ عام ١٩٩١ تمارس سلوكها بشكل منفرد في نظام العلاقات الدولية. فعندما انعقد مجلس الأمن في أوَّل قَمَّة له في ماي ١٩٩١، حضره بوش الأب إلى جانب العديد من قادة الدول، صُدِّرَ بيانٌ ختاميٌّ يعمل دلالات واحدة بخصوص ضرورة إعطاء الأمم المتحدة دوراً أساسياً في تسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية المتاحة. لكنَّ عندما انتقلنا إلى مستوى الممارسات الفعلية لاحظنا أنَّ الولايات المتحدة تسير في اتجاه آخر: فهي قد عمدت، منذ البداية، إلى إخراج كلِّ القضايا الحيوية من إطار الأمم المتحدة إلى إطار المؤتمرات الدولية أو الغارات الثنائية. ولا أدلَّ على ذلك من مؤتمر مدريد؛ إضافة إلى القضايا التي تمَّ البوسنة والهرسك والصومال، والتي تمَّ الشروع في تسويتها عن طريق مسطرات خصوصية فرسيتها الإدارة الأميركية. فكان أن أفرغت الأمم المتحدة من محتواها. أكثر من ذلك أصبحت نلاحظ أنَّ مجلس الأمن قد أصبح مجردَ وسيلة لخدمة الأهداف الاستراتيجية للولايات المتحدة كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. بل إنَّ قيمة المساهمات المالية الأميركية في ميزانية الأمم المتحدة قد تتروكف الإدارة الأميركية عن دفعها إلّا عندما تفكر في استعمال الأمم المتحدة لأغراضها الخاصة. ونتيجة لهذه المناورات الأميركية، فإنَّ الحديث اليوم عن نظام الأمن الجماعيِّ بمعناه الذي وضع في «البيان» قد أصبح متجاوزاً. بل يمكننا أن نعود بالنقاش إلى نقطة البدء، حين صيغ ميثاقُ الأمم

للنطقة، انسحب الأتحاد السوفياتي من مجلس الأمن ثم أعلن اعتراضه على ذلك التحكُّم، الأمر الذي دفع أميركا إلى نقل اليَّة اتِّخاذ القرار من مجلس الأمن إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة صبر قرار «الاتحاد من أجل السلام» وبموجبهِ اقترنت الجمعية العامة بإيفاد قوات إلى كوريا. واستطاعت أميركا بهذه الورقة أن تتفائل بقوات أميركية ضدَّ كوريا الشمالية تحت علم الأمم المتحدة، وهي سابقة مثيرة في العلاقات الدولية. ونتيجة للحرب الباردة والتطورات التي عرفتها المنطقة، حافظت أميركا على الوضع القائم فقط لكنَّها لم تدسَّ أنَّ كوريا الشمالية عدوٌّ قديم، ويقوم بتطوير الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. بل إنَّ أميركا تُقَدِّر النظام الكوري الشمالي نظاماً يَجوِّع مواطنيه من أجل امتلاك أكثر الأسلحة تطوراً وفتكاً، وأنَّه يُسَخِّر هذه الأسلحة لمجموعات وتنظيمات «إرهابية» ودول تستبِّها أميركا «دولاً غير مسؤولة».

لهذه الأسباب أدرجت أميركا كوريا الشمالية في «محور الشر» ولكنَّ ثمة أسباباً غير مباشرة، أو غير معلنة، فرضتها التطورات الدولية في المنطقة، وتتمثَّل في تقارب الكوريتين كما سبق أن ذكرنا. وبالتأكيد فليس من مصلحة أميركا الاندماج كوريٌّ لأنَّ من شأنه أن يُشجِّع بوانس سياسة الاندماج القطبي في هذا الجزء الآسيوي الحيوي، وهو ما يهدِّد المصالح الاستراتيجية الأميركية.

أي معنى تلقَّيه أميركا مفهوم الأمن الجماعيِّ راهناً؟ وإذا كان هذا المفهوم يقوم على رَدع العدوان الفعلي أو المحتمل، فهل تشكل «دولٌ محور الشر» انتهاكاً للأمن الجماعيِّ، وعدواً على طرف معين..؟ وبينك الولايات المتحدة بالذات؟

يمكننا القول إنَّ الولايات المتحدة الأميركية منذ بداية التسعينيات أخذت بمفهوم الأمن الجماعيِّ الذي بُني على أساسه هذا النظام في إطار مجلس الأمن والأمم المتحدة - وأعني بذلك مقتضيات الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. ففي تلك الفترة اندلعت



انضباط العراق في إطار القانون الدولي ينزع البساط من تحت اقدام اميركا

تعرضت لاعتداء من طرف قوات مسلحة. لذلك تظل اميركا واحدة إن هي فكرت في استعمال القوة ضد الدول الثلاث استناداً إلى نظام الأمن الجماعي. ذلك أن المادة ٥١ صريحة ولا تحتاج إلى تفسيرات تأويلية جديدة. كما أن حدود الدفاع الشرعي عن النفس أو من المصالح الحيوية القومية لا يمكن أن تطبق إلا إذا تعرضت دولة ما فعلياً للاعتداء من قوة مسلحة - وهذا ما لم يحدث في العلاقات الأميركية مع الدول الثلاث المصنفة في إطار «محر الشر» - وإذا كان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة يعطي تفسيراً واضحاً للمعنى المدون، كان كُمنُ السلامة الإقليمية أو الوحدة الترابية أو سيادة دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة، فكيف يمكن اميركا أن تكفل القانون الدولي لمصالحها الجديده حتى إذا اعتبرنا أن من واجب نظام الأمن الجماعي أن يتحرك في مثل هذه الظروف فإن حركته ستتحقق انطلاقاً من قرار يستصدره مجلس الأمن واعتاداً على قوات دولية تقوم بمهامها تحت علم الأمم المتحدة.

بخصوص طبيعة العدوان الذي يُعشر عن دول «محر الشر» من خلال التكليف الأميركي، فنحن لا نملك تفاصيل مهمة عن الأرضية التي اعتمدها اميركا في اتخاذ هذا القرار. لكننا نستطيع أن نستلثس بتصريحات الرئيس الأميركي وزير خارجيته ومستشاره الأمن القومي. فمن خلال هذه التصريحات نستنتج أن الولايات المتحدة تعتبر هذه الدول الثلاث مهددة لمصلحتها القومية والحيرية بسبب تطويرها لأسلحة الدمار الشامل، وتخزينها، واستعدادها لاستعمالها في حرب فعلية، أو لتكمين بعض الجهات «الارهابية» من توظيفها (كما جرى مثلاً في قضية سفينة الأسلحة التي زعمت إسرائيل أن إيران هربتها إلى فلسطين). وبقي هذه التصورات مجرد افتراضات تقتصر على المسجة الثانية على تحفظها. فبالنسبة إلى العراق، مثلاً، تتمسك اميركا برفض هذا البك لعودة المفتشين الدوليين وتعتبر رفضه هذا قرينة حاسمة على امتلاكه أسلحة الدمار الشامل - وهذه قرينة، كما ترون، لا تستند إلى أي أساس.

المتحدة بعد ظروف الحرب العالمية. فمن المعلوم أن هذا الميثاق جاء في ظل ظرفية تاريخية ارتبطت بانتهزام دول المحور وانتصار الحلفاء. وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد شهدت توقيع معاهدة فرساي التي تضمنت في الوقت نفسه أهداف مصبة الأمم، فإن نهاية الحرب العالمية الثانية لم تشهد توقيع معاهدة للصلح، وإنما تم التسليم بدون قيد ولا شرط من طرف القوات النازية والفاشية. لكن وثيقة المصلح الأساسية التي ولّعت كانت ميثاق سان فرانسيسكو. ومن غرائب الأمم أن المؤلفين على هذه الوثيقة ليسوا المنهزمين في الحرب، وإنما هم كل أعضاء المجموعة الدولية بدون استثناء. بل صار التوقيع على الوثيقة شرطاً للقبول بعضوية الأمم المتحدة. هكذا نستطيع أن نلهم أن نظام الأمن الجماعي هو نظام هيمنة البلدان المتفوقة. وهذه أمة يعيشها النظام الدولي، وتبقى إلى اليوم عائقاً جدياً أمام كل أمل في تحقيق الأمن الجماعي.

لكن رغم مؤاخذاتنا على ميثاق الأمم المتحدة وعلى مفهوم الأمن الجماعي، فإننا سنستفهم به لتحديد مافيه العدوان. فوفقاً لضوابط الأمم المتحدة التي صيغت بشكل واضح ضمن الميثاق، ولأسيما مقتضيات الفصل السابع، بالإضافة إلى التعريف الذي قدمته الأمم المتحدة من خلال الجمعية العامة استناداً إلى قرارها الشهير لسنة ١٩٧٤ بخصوص تعريف العدوان، فإن الوضع الحالي الذي توجد فيها الدول الثلاث المذكورة لا تشكل تهديداً لنظام الأمن الجماعي، وأجست نية لممارسة عمل من أعمال العدوان قد يبرز تدخل أي قوة مسلحة في إطار سيادتها الإقليمية. وأو الإشارة هنا إلى أن اميركا عندما وجهت إنذارها إلى هذه الدول لم توجهها باسم المنظمة العالمية أو باسم المجتمع الدولي، وإنما وجهته باسم الإدارة الأميركية. وهذا في حد ذاته يشكل قرينة لمقتضيات الميثاق. ذلك أنه لا يحق للدول الأخرى أن تتدخل إلا في إطار المادة ٥١ من الميثاق التي تنص على أنه ليس هناك ما يتتبع دولة بشكل منفرد أو جماعي من أن تعارض حقها الطبيعي والمشروع في الدفاع عن النفس إذا ما

وإيران إلى وضعها الطبيعي، خاصة وأن هناك الآلاف من الأسرى الذين مايزالون محتجزين لدى الدولتين، وهناك جروح غائرة في أجساد كل منهما، وسيكون من الصعب تصوّر تحالف حقيقي بينهما، لكن الظروف الصالية التي وضعت هذه الدول في منظومة واحدة تستطيع أن تفرّض تحالفات ظرفية لتحقيق بعض المكاسب المحدودة.

من القواعد الأساسية لنظام العولمة أن القوة الهيمنة عالمياً تهدف إلى منع ظهور أية قوة هيمنة إقليمية. فهل تملك دول «محور الشرق» مقومات قوى الهيمنة الإقليمية؟

يجب أن نعترف، بدايةً، أن ما أطلق عليه «محور الشرق» هو دول تتمتع كل منها بسيادتها في إقليمها وتوفر على مقومات هذه السيادة - بما فيها القوة العسكرية. ولكن ليس من هذه العناصر ما يؤهلها لاحتلال مركز القوة الدولية أو المتفوّقة إقليمياً لخلق نظام إقليمي حقيقي في منطقة ما، خاصة أن هذه العناصر الإقليمية توجد مطوّقة إقليمياً إما بقوّة متحالفة مع الولايات المتحدة وإما من خلال حضور أميركا حاضراً مباشراً. فإذا أخذنا وضعية كوريا الشمالية فنلاحظ أن الكفّة في لصالح كوريا الجنوبية، وبالنسبة إلى العراق، فبعد نهاية حرب الخليج أصبح التوازن يتحقّق لصالح المملكة السعودية وباقي بلدان الخليج العربي. أمّا بالنسبة إلى إيران، فأميركا تعتقد أن إقرار التوازن معها لا يتّصلح فقط على دول مثل تركيا وباكستان، وإنما تعتبر أن الأمر يتّعلّق بحقوقهم روسيا وبعض الدول الأخرى في هذه المنطقة من العالم. لذلك فإنّ هذه الدول الثلاث لا يُمكنها أن تشكل، في المرحلة الراهنة، قوّة إقليمية متفوّقة يمكنها أن تصارع نظام العولمة بشكل مفتوح، ولاسيّما إذا فهمنا نظام العولمة في مضمونها الضموني، إذ لا ينبغي أن نقصّر على البعد العسكري والإستراتيجي فقط لأن مفهوم العولمة بالأساس هو مفهوم اقتصادي وانطلقت تصورات الأمل مع مصطلح «وحدة الأسواق» في مستوى آخر نؤكد أنه لا يمكن أن تُرفع دولاً ما شعار المعارضة

إطلاق الولايات المتحدة للمهوم والشرّ، بإمكانه أن يعجز في إقامة علاقة تعاقدية تصافق بها دول «محور الشرق» على أمنها واستقلالها في مواجهة دول الحلفاء إذا ما فسّلت هذه مع الولايات المتحدة. فما هو رأيكم؟

العلاقات التعاقدية التي يُمكن أن تُجرىها هذه الدول ترتبط أولاً بتحقيق نوع من الانضباط في إطار القانون الدولي والشرعية الدولية. ونعتقد أن العراق سائر في هذا الاتجاه؛ فقد لاحظنا كيف أن وزير الخارجية العراقي عاد إلى قيادة المفاوضات مع الأمين العام للأمم المتحدة - وهي مفاوضات أجمع الكثير من الملاحظين والمحلّين على جديتها ونجاحها. وإذا ما تحققت مثل هذه الافتراضات، فإنّ ذلك سيكون بمثابة نزع البساط من تحت اقدام الولايات المتحدة الأميركية، لأنّها لن تجد آنذاك أية ذريعة تتمسك بها لقيادة حملة ضدّ العراق.

أما بخصوص الدولتين الأخريين، فلا تتصور أن أميركا ستفامر بقيادة حملة عسكرية ضمتّهما. فتجربتها مع إيران أثناء محاولة إنقاذ رهائن السفارة الأميركية في طهران كانت فاشلة. وأما بخصوص كوريا الشمالية، فلا تتصور أن القوى الإقليمية في المنطقة، وعلى رأسها الصين، ستظلّ مكتوفة الأيدي إذا ما تحركت الولايات المتحدة في اتجاه استعمال القوة ضدّ كوريا الشمالية. وتأسيساً على كل ذلك نرى أن ما صرح به الرئيس الأميركي يذلل في إطار حرب الدعاية التي تحاول أميركا، من خلالها، أن تُظهر للعالم الخارجي أنها قادرة على الوصول إلى أعدائها في أيّ مكان بعد إحصائها بالنجاح الباهر الذي حققته في أفغانستان.

أما بخصوص العلاقة التعاقدية المحتملة بين دول محور الشرق، فبشخصياً أستبعد مثل هذه العلاقة إن نحن أدرجناها في الإطار التاريخي والإيديولوجي لكل دولة على حدة. فلا يمكن تخيّل علاقة تعاقدية إستراتيجية بين إيران الإسلامية المتشدّدة وكوريا الشمالية الشيوعية المتشدّدة. ويصعب جداً أن تعود العلاقات بين العراق



الخطر الوحيد الذي تفتقر
به أميركا، رغم أنه لا يمثل
قوة إقليمية، هو القادم من
إيران

ولكن من الذين يحق له أن يقدم تعريفاً لمفهوم «الشمر الدولي»؟ لا نجد مكاناً لكلمتي «الشمر» و«الخبر» في القانون الدولي، وكما نعلم فإن القانون الدولي يرتبط تحديده أساساً بالشرعية الدولية. فإذا كانت إحدى الدول تشكل تهديداً للسلامة الإقليمية أو للاستقلال السياسي أو للوحدة الترابية لدولة أخرى، فإن هذه الدولة تُعتبر ممارسة لعمل من أعمال العدوان، ويُبغى على المجتمع الدولي أن يتصدى لها من خلال نظام «الأمن الجماعي» المعمول به الأمم المتحدة. ولكن الحقُّ لنا نعيش ظاهرة تهميش دور الأمم المتحدة كمنظمة عالمية؛ فالقرارات الحقيقية التي تهم المجتمع الدولي لم تعد تتم صياغتها داخل مجلس الأمن أو الجمعية العامة، وإنما تُقر من قبل الإدارة الأميركية وتتخذ من طرفها وبمشاركة حلفائها. ونعتقد أنه لا مجال لتجاوز هذا الوضع الضيق إلا بتفعيل ميثاق الأمم المتحدة وقبول أعضاء آخرين دائمي العضوية في المنظمة العالمية، كمصر والهند وإثيوبيا والبرازيل.

إذا كانت أميركا تستند في ادعائها قسداً «محور الشر» بما تفلكه الدول الثلاث أسلحة الدمار الشامل ويهددها للأمن الجماعي، فهل يوجد قانون دولي مجزأ إلى وضعيتين: وضعية تحمي الدول المالكه لهذه الأسلحة، وضعية مقابلة تحرم دولاً أخرى من امتلاكها؟

نظم جميعاً أن أميركا قبلت فكرة أن يُخشد ما يسمى بالنادي النووي. فقد طُلت حتمك السلاح النووي مدة طويلة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. إلى أن تجاوز ذلك الاحتكاك كلٌّ من الاتحاد السوفياتي والصين الشعبي، لتتوالى إتاحة الدولة المالكه للسلاح النووي كفرنسا والهند وإسرائيل. وكان الرئيس كينيدي، منذ أوائل الستينيات، يحذر العالم من مخبة أن يقع السلاح النووي في يرم سماء «الدول اللامسؤولة». وقد أثير الكثير من النقاشات حول ما يقع في روسيا وأوكرانيا وحول تفكيك المركبات النووية. ونعتقد أن

لنزدعم توليها على سياسة خارجية مستقلة، بل ينبغي أن تلك إمكانيات سياستها الخارجية قبل كل شيء، ثم تأتي الليبولوماسية لخدمة تلك الإمكانيات وتوظيفها. وإذا أخذنا كل دولة بمفردنا، وحاولنا فهم آلية اتخاذ القرار داخل مؤسساتها، وتساؤلنا عن مدى قدرة تلك القرار على عبور الحدود الوطنية للتأثير في ما سواها، لأصبنا بخيبة أمل، اللهم باستثناء حالة واحدة هي حالة إيران. فالعراق مكبر اليدين، وما يُحصل عليه من عائدات نفطية تُقطع نسبة كبيرة منها لغاتنة نظام التمويضات، والباقي يوظف تحت مراقبة دولية. فالعراق، إذن، لا يملك اليوم أية وسائل تأثير في إدارة القرار على الصعيد الدولي، وأما كوريا الشمالية، فبالرغم من قوتها العسكرية المتفوقة فإنها قزم اقتصادي، ويعاني سكاكها المجاعة باستمرار، وتحصل على مساعدات غير مرمودة من كوريا الجنوبية ومن العديد من الدول الأخرى. كما أن تأثيرها في السياسات الدولية تبقى جد محدودة. وتربطاً لذلك، فإن الخطر الوحيد الذي تشعر به أميركا، رغم أنه لا يمثل قوة إقليمية، إنما هو ذلك القادم من إيران. فهذه الدولة تقود مفهوم الثورة الإسلامية التي تبشر بنظام يُمكن من تحقيق ديمقراطية حقيقية على الأرض، ويمكنها أن تصدّر نظامها إلى مناطق أخرى من العالم، وبخاصة إلى تلك التي تنتمي إلى العالم الإسلامي.

إنّ التفسير القريب إلى المنطق لعلاقات أميركا بهاته الدول الثلاث يكمن في إحساس أميركا بأنها تتربع على عرش الأمامية القلبية بعد منازع، فلا يُقبل أن يتمكّن «لاعين إقليميون» من خلفة التوازن الذي تُشرف عليه. ونعتقد أن أحداث ١١ أيلول ليست مجرّد تهديد لهذا التوازن ولهذه الهيبة العالمية، بل هي ضربٌ لصالح أميركا في طر دارها. ومن ثم فإن الولايات المتحدة جاتة اليوم في التلقب عن أي مصدر مطلق لوضعها الداخلي وأمنها الإقليمي ومصالحها الحيوية في أي منطقة في العالم من أجل إقصائه والقضاء عليه.

ستعتبر أن أهدافها قد تحققت بمجرد عودة المفّشعين إلى العراق، حيث سيُشعر العالم أنها حققت نصراً دون خسائر. وفي إيران قد يستفيد خاتمي من السير قدماً في نزعة الاعتدالية، وستشرح أميركا ذلك للعالم بأنها إذعانٌ لإيران لضغوط أميركا وعودة إلى جادة الصواب. ولربما تنشئ كوريا الشمالية مع جارتها الجنوبية علاقات أكثر تطوراً تسير في اتجاه التسامح والاعتدال في المواقف، فتتصبه أميركا انتصاراً لسياستها الخارجية. لكن يبقى الأمر المهم وهو أن الولايات المتحدة حين توجه التهديد تظل تحافظ على صمامات أمان لحماية علاقاتها وسياساتها الخارجية من كل تهديد قد يُحسب سلبياً على مصالحها الحيوية والاستراتيجية. وهكذا فإن السياسة الأميركية بهذا الخصوص شبيهة بلك الكتيان الرملية المتحركة التي لا تُرسم خطوطاً دقيقة لحركيتها لكنها تؤثر بالتأكيد في الوضع الطبوغرافي والمناطق التي تشملها. إننا نعيش اليوم متعلّكاً حقيقياً في الحياة الإنسانية بدءاً باحداث ١١ أيلول. إن شيئاً رهيباً وقع في العلاقات الدولية، وفي توازن القوى الإقليمى والعالمى، وفي آلية اتخاذ القرار بعد هذه الأحداث. لكن المهم هو أن تستطيع بلداننا أن تمي الدرس جيداً وأن تترك أن الأوان قد أن لإقامة تحالفات حقيقية تكون نواتها اقتصادية، من خلال مظاهر الانتماء الإقليمى المبنيّة على الديمقراطية والتعددية واحترام حقوق الإنسان لبناء مجتمع أفضل تتبرّك مقوماته على الحصانة الكافية لمواجهة رياح التغيير.

الرباط

محمد تاج الدين الحسيني

استاذ العلاقات الدولية في جامعة محمد الخامس - الرباط نائب رئيس مركز حوار الحضارات خبير لدى أكاديمية المملكة المغربية. من مؤلفاته: **الوجهين في القانون الدولي، حق التدخل في المجتمع الدولي،** وسائل حفظ السلام.

تقسيم العالم إلى دول من حقها أن تمتلك السلاح النووي، وأخرى تُحرم هذا الحق، يبقى فعلاً غير منصف على الإطلاق. فهناك معامدة للحد من انتشار الأسلحة النووية تُرفض أميركا التوقيع عليها، في الوقت الذي تناصب فيه العداء دولاً أخرى تسير في الاتجاه ذاته كما فعلت منذ بضع سنوات مع الهند والباكستان. وهي تحب بامتلاك إسرائيل للأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، ولا تقبل أن تملك الدول العربية بعض الأسلحة الكيميائية أو النووية.

أخيراً، أيّ مستقبل ترونيه للعلاقة بين أميركا ودول محور الشر؟ عندما انتهت أحداث ١١ أيلول راحت أميركا تحصى خمسائهما وتحصي في مقابل ذلك عدد أعدائها. فكانت أن خرجت من الإدارة الأميركية عدة لوائح تتضمن الكثير من الدول «المارة»، والظاهر أن هذه اللائحة لم تحدد بكيفية دقيقة منذ البداية. خاصة عندما قال الرئيس الأميركي: «من ليس معنا في حرب مواجهة الإرهاب فهو ضدياً بكل تأكيد». فبوش لم يكلّ يعني يمسها العراق وإيران وكوريا الشمالية وحمدا، وإثما العديد من الدول الأخرى. ولاحظنا في اللائحة الأولية، التي سريتها الولايات المتحدة، الإشارة إلى أسماء دول متعددة منها ليبيا وسوريا. ويظهر الآن واضعاً أن أميركا، وهي تضع اللائحة الأخيرة لكل من كوريا الشمالية والعراق وإيران، تسعى إلى وضع تصنيف تدريجي لتصفية حساباتها. وقد أشار الرئيس الأميركي بوشمر إلى هذا الافتراض عندما ذكر أن عملية محاربة الإرهاب ستأخذ عشر سنوات، بأنها ستتقل من مواجهة الأعداء الأقربين إلى الأعداء الأكثر بعداً. وقد لاحظنا خلال الفترة الأولى من السنة الحالية كيف أن بعض الدول باتت تُعن بوضوح شديد للموقف الأميركي من خلال مطالباتها للقوات الأميركية بالتدخل في أراضيها لمواجهة الإرهاب. كما حدث مع النظام الحيني والنظام الفليبيتي. أما بالنسبة إلى باقي الدول الأخرى، بما فيها دول «محور الشر» فهي تواجه بسياسة الدرع الأميركية. ففي حالة العراق فإن أميركا

كوريا الشمالية:

بين مطرقة محور الشر وسندان العلاقات الأميركية - الصينية

□ ريمون ماهر كامل

الاستقرار في المنطقة، أو التهديد النووي والصاروخي الذي تشغله بيونغ يانغ على المصالح الأمريكية في آسيا. ثالثاً، إن كوريا الشمالية في لحد أهم محاور الصراع الأمريكي - الصيني، على خلفية طابور الأزمات في ملف هذا الصراع، بدءاً بالأزمة التايوانية، ومروراً بالعقوبات الاقتصادية الأمريكية على الصين، وأزمة فضية التبت القائمة منذ الخمسينيات، والانتقادات الأمريكية المستمرة لحقوق الإنسان في الصين، وانتهاءً بنمو قدرات الصين البحرية - التي تهدد طرق التجارة اليابانية - بسطوتها على المحيط الباسيفيكي بمرمته المائية والتجارية وجزرها وثرواته النفطية والسمكية.

بناءً على ذلك اعترى العلاقات الأمريكية - الصينية قدر كبير من التوتر بدأ يتصاعد منحا منذ عهد الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون. ولعل أزمته طائفة التجسس الأمريكية التي سقطت في الأراضي الصينية مع بداية عهد الإدارة الأمريكية الحالية، وطائفة الرئاسة الصينية البونج ٧١٧ الأمريكية الصنع التي اكتشف مؤخرًا أنها تحوي ٢٠ جهاز تجسس أمريكي في يناير ٢٠٠٢، قدما الليل القاطع على النوايا الأمريكية تجاه بكين، وهي نوايا جازفت بها الإدارة للجمهورية حين رجحت - فور توليها مقاليد الحكم - فكرة أن الصين ليست شريكاً بقدر ما هي تحدٍّ أمني. فالولايات المتحدة قلقة من مسعرة التآين الصيني الذي يسعى إلى تقليص نفوذه في منطقتي شرق آسيا وجنوب شرق آسيا. وأما الصين فقد انتقدت - في أحدث تقاريرها الرسمية المصادرة في مارس ٢٠٠٢ - التهم الأمريكية على حقوق الإنسان في غيرها من الدول، بينما تشتهر في حقوق الإنسان عن طريق إقامة قواعد عسكرية وتشر مئات الآلاف من الجنود في كافة أنحاء العالم.

ورغم الدعم الصيني للحرب الأمريكية ضد الإرهاب، فإن هناك خطوطاً حمراء ترى بكن أنه من غير السموح لواشنطن تجاوزها لأنها خطوط أمن قومي، مثل كوريا الشمالية وتايوان. كما أن

لا شك أن الدراما الإرهابية التي تعرضت لها الولايات المتحدة في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ قد أفرزت آثاراً جانبية على صحة الجسد العالمي جعلت كل أعضاء الجسد في حالة استنفار قصوى من أجل تدارك النزيف السياسي والاقتصادي والثقافي والمسكري الذي أصابه. ولعل القارة الآسيوية، دون استثناء أي من أقاليمها الجغرافية، أصبحت اليوم قلب هذا الجسد، لعدة اعتبارات أهمها: أولاً، القرار الأمريكي بشأن حرب دولية طويلة الأمد على الإرهاب تستند إلى جدولة زمنية بدأت مرحلتها الأولى في أفغانستان بتصفية حركة طالبان وتقصير حكومة موالية للولايات المتحدة بهدف إعادة صياغة التوازنات الإستراتيجية في منطقة آسيا الوسطى وفقاً لحسابات المصالح الأمريكية في القارة الصفراء. ثانياً، خطاب حالة الاتحاد في ٢٩ يناير الماضي الذي حدد فيه الرئيس الأمريكي الأصلاح الثلاث لما أسماه محور الشر. وربما يكون من قبيل المصادفة القدرة أن تكون الدول الثلاث آسيوية الهوية أيضاً.

والواقع أن الرزج في هذا الوقت باسم كوريا الشمالية - كأحد أضلاع محور الشر - يكتب أهمية خاصة لعدة اعتبارات. أولاً، لأن كوريا الشمالية ما زالت تمثل رمزاً هاماً للضيعة في العالم، رغم ما تعانيه من تدهور اقتصادي حاد وحالة شديدة من الفقر والمجاعة أودت بحياة ما يزيد على مليوني مواطن في السنوات الخمس الأخيرة. ومن ثم، فهي تمثل أحد الكوابيس التي تؤرق نوم الولايات المتحدة وتذكرها دوماً بعصر طلما سعت إلى إراجحه ذاكرة النسيان، إلا وهو عصر القطيعة الثنائية. وإذا تجد الإدارة الأمريكية في دعوى الحرب ضد الإرهاب فرصة ذهبية لتلايق هذا النظام الضيق المتعثراً. ثانياً، هناك ملفات ساخنة كثيرة على أجنحة العمل الأمريكية في ما يخص كوريا الشمالية، سواء بالنسبة إلى محادثات السلام المنشطرة من أجل الوحدة الكورية، والتي تعتبر إحدى أهم فئات التوتر وعدم

الصين بعد إعلان الحرب الأمريكية ضد الإرهاب قلقة من نشوء الولايات المتحدة لقوات في قرغيزستان على حدود الصين في وسط آسيا، وقلقة من عودة القوات الأمريكية إلى الخليج. ومن ثم فإن الدعم النووي والصاروخي الذي تقدمه القيادة الصينية لبيونج يانج يأتي واحداً من دهانم التوازن الإستراتيجي الصيني - الأمريكي في المنطقة.

وحقيقة الأمر أن النهج الذي حثّم عمل الإدارة الجمهورية الأمريكية الجديدة إزاء كوريا الشمالية قد اعتمد في الأساس على نقض كل جهود التفاوض الإيجابية التي بذلتها الإدارة الديموقراطية السابقة، والتي كانت قد وصلت إلى حد إقناع مسؤولي كوريا الشمالية بالتخلي عن برنامجهم الصاروخي في يناير ٢٠٠٠ في مقابل معونات أمريكية كبيرة، وإن كانت حكومة بيونج يانج قد طالبت آنذاك بالحصول على تكنولوجيا الفضاء (مركبات الصواريخ الخاصة بالبحوث الفضائية السلمية). برغم اعتراض الإدارة الديموقراطية على هذا المطلب خضياً أن تُستخدم هذه التجهيزات في تطوير صواريخ أكثر كفاءة، فإن الإدارة الجمهورية أوصدت باب التفاوض حول هذه النقطة دون محاولة استكمال الجهود السابقة، معارضة استئناف المفاوضات بحجة ظاهرياً مختلفة مفادها أن أي اتفاق سيختم إبرامه حول برنامج كوريا الشمالية الصاروخي يجب أن يتضمن بنوداً تكبح التحقق من تنفيذها للاتفاق وتحوّل دون خرقها إياه.

إلا أن الأهداف الأمريكية المستترة خلف هذه المعارضة متعددة، وتختلف حقيقة التعامل الأمريكي مع كوريا الشمالية كـ «محاور الشر» ومنها: أولاً، القضاء على أي نجاح حققته الإدارة الأمريكية السابقة لأن إبرام أي اتفاق مستقبلي مع بيونج يانج يمكن أن ينسب إلى الإدارة الديموقراطية السابقة، وربما كان هذا أحد دواعي الإدراج الأمريكي لكوريا الشمالية كـ «أصلاع محور الشر بهدف إثبات خطأ تقدير الإدارة السابقة في تعاملها

مع الأمور. ثانياً، إن بقاء الحال على ما هو عليه يُثبّع الإدارة الأمريكية مبكراً منطقياً للمضي قدماً في تنفيذ برنامجها الداعي للضاد للصواريخ الذي تُعارضه كل من الصين وروسيا. ثالثاً، فرض تصوّر أمريكي يسعى إلى إقناع الأطراف الدوائية - وبخاصة الشرق الأوروبية واليابان - بالتعامل مع حكومة بيونج يانج بمنطق المنبذ بهدف فرض حالة من العزلة الدوائية عليها. رابعاً، قطع الطريق على أية جهود تستهدف سلاماً بين الكوريتين، لأن تحقيق الوحدة الكورية هدفاً لا يحقق المصالح الأمريكية في شبه الجزيرة الكورية. حتى إن الكوريتين في الشطر الجنوبي - وهم الحلفاء التقليديين لواشنطن - بدأوا يشتكون من أن يؤخّر بوش بتشدده إزاء بيونج يانج سياسة الشمس والضربة المنقطة التي يتبناها الرئيس الكوري الجنوبي كيم داي يونج للتقارب مع الشطر الشمالي، ولاسيما مع بلوغ إدارة هذا الرئيس عامها الأخير، وحرصه أكثر من أي وقت مضى على تمسين علاقات بلاده مع جارتها الشمالية، بل وإبرام اتفاق سلام تاريخي معها. خامساً، إعطاء مبرر منطقي لبقاء ٣٧ ألف جندي أمريكي في كوريا الجنوبية منذ انتهاء الحرب الكورية عام ١٩٥٣ كـ «ركيزة» ردع لكوريا الشمالية وكإداة حماية للمصالح الأمريكية في المنطقة. سابعاً، لتجلب الصراع مع الصين بشكل يستهدف استنزاف مورادها، وهي مازالت في مرحلة البناء التحتي لتجربتها الاقتصادية الوايدة، ومن ثم القضاء عليها مبكراً.

إن انحراف الإدارة الأمريكية عن سلك توحيده العدو - مرحلياً - كما حدث مع أفغانستان، بإعلانها المواجهة مع ثلاث دول - أعضاء محور الشر - دفعة واحدة، يدل على أن الحرب العسكرية لن تكون اللغة الرسمية الجيدة في التعامل الأمريكي مع هذا المحور، وإنما ستكون هناك آليات أخرى غير رسمية تدور في ظلمة المناورات السياسية. وهذه الآليات هي من قبيل: فرض مزيد من العقوبات



تحقيق الوحدة الكورية هدف لا يحقق المصالح الأمريكية في شبه الجزيرة الكورية

خاصة في ظل الصموة التي تشهدها السياسة الخارجية الروسية منذ اعتلاء فلاديمير بوتين سدة الحكم على أساس منزع جديد يعتمد على مزيد من الانتماج السياسي ولعب دور إفاعل في القضايا الدولية، وعلى خلفية القناعة الروسية بأن كوريا الشمالية شريك تاريخي بحكم أنها أحد الأتباع الأقوياء للشيوعية، وفئة طرف آخر يستطيع صانع القرار الكوري أن يتأور عليه أيضاً، وهو فرنسا، بحكم أنها أحد أهم الأطراف الدولية المناوئة للسياسات الأمريكية على طول الخط، فضلاً عن علاقتها بروسيا والصين.

كما أنه من غير المستبعد في الأمد المنظور حدوث تطارب بل وتعاون بين أعضاء محور الشر الثلاثة، تمت مظلة روسية - صينية، من منطلق مبدأ وحدة العدو. فتصبح كوريا الشمالية على سبيل المثال أكثر استعداداً لبيع تكنولوجيا تخطل في تصميم صناعة إيران للصواريخ، أو أكثر استعداداً لبيع وسائل دفاع جوي وتقنيات صاروخية للعراق، وذلك في مقابل تعامل تجاري أوسع، كان تخصصن نسبة من تعاملات برنامج النفط مقابل الغذاء العراقي لصالحها.

كما أن الخلاف الذي بدأ حول خطاب محاولة الاتحاد بين الولايات المتحدة وشركائها الأوروبيين، ولاسيما أعضاء حلف الناتو الذين تحفظوا على تسمية محور الشر، يمكن أن يلعب دوراً هاماً لصالح الموقف الكوري. ذلك لأن هؤلاء الأعضاء، ملأوا منطق السياسة الخارجية الأمريكية التي تتعامل معهم بمبادئ التعليمات التي لا تأجل منهم سوى الانصياع دون تشاور مسبق، رغم أن شرط التشاور كان أحد الوعود الأمريكية التي قطعتها الإدارة الجمهورية على نفسها إزاء حلفائها الأوروبيين بشأن مثل هذه القرارات المصرية.

خلاصة القول: إذا كانت تصفية حركة طالبان وتصفية حكومة جعينة في أفغانستان قد نجحا في بناء القاعدة الخرسانية الأمريكية الصلبة التي يُمكن على أساسها رسم خريطة التوازنات

الاقتصادية، أو ممارسة ضغوط سياسية، أو تنشيط للأعمال الاستخباراتية السرية التي تستهدف زعزعة النظم السياسية.

وربما تكون حالة كوريا الشمالية أكثر الحالات تعقيداً في التعامل معها، لأن درجتها ضريات عسكرية جوية لمنشأتها النووية والصاروخية سيناريو يصعب تنفيذه لما سيترتب عليه من مواجهات بين عدة أطراف كبرى قد تُشتر بإشغال المنطقة بأكملها بشكل قد يجعل نتائجها في عداد الغيبيات. كما أن تنشيط العمل الاستخباري السري سيكون أيضاً في عداد المآلات الفاشلة لزعزعة الاستقرار السياسي في البلاد بهدف تغيير نظام الحكم، لعدة أسباب أهمها: القبيضة الحديدية لحكومة بيونج يانغ على مقاليد الأمور في البلاد؛ وعدم وجود قوى معارضة ذات فعالية يمكن الارتكان إليها أو مغازلتها.

ومن ثم، إذا كانت محاولات العمل الدبلوماسي والاعتدج في الحالة الكورية، وذلك من خلال ممارسة ضغوط سياسية ومزيد من العقوبات الاقتصادية، فإن الأمر سيقتطع مزيداً من الوقت ليؤتي أكله. كما أن فرض العقوبات الاقتصادية سيستلزم استصدار قرار من مجلس الأمن، غير أنه من المؤكد أن بواجبة بقيت صينية - روسية يُبطل مفعول المحاولات الأمريكية. ولذا، قد تسعى واشنطن إلى سياسة التهريب والترغيب مع نظم كبرى تستغل بها كوريا الشمالية، مثل الصين. ففي مقابل حسم نهائي المصالح الكورية قد تُعقد واشنطن إلى المناورة على دعم الحركة الانفصالية لإقليم سنكيانج القابع في أقصى شمال غرب الصين، والذي يُطالب سكانه المسلمون (البالغ تعدادهم حوالي ٥٠ مليون نسمة) بدولة مستقلة، علماً أن هذا الإقليم مع التبت يشكلان ٢٠٪ من مساحة الصين ويستحوذان على التصنيع الأعظم من احتياطياتها الإستراتيجية من المعادن والنفط والغاز.

ولذا يجب على صانع القرار في كوريا الشمالية أن يُنوع أوراق اللعب في يده، فيُناوِز على تفعيل دور أطراف أخرى مثل روسيا،

كوريا الشمالية:

بين مطرقة محور الشر وسندان السلام

المستضعفين في المجتمع الدولي على مضمون السيادة القومية
ركيزة من ركائز الحفاظ على الحد الأدنى من الحياة الكريمة
للشعوب.

القاهرة

الإستراتيجية الجديدة في آسيا الوسطى، فإن الإعلان الأمريكي
عن محور الشر، عكس حالة التخبُّط التي أصابت الإدارة
الأمريكية عقب الأحداث، الأمر الذي أثار - وما زال - جدلاً واسعاً
النطاق في الأوساط السياسية يميل في معظمه نحو المعارضة. ذلك
أنَّ النوايا الأمريكية من وراء هذا الإعلان باتت واضحة للرأي
العالم العالمي في أنَّها تستهدف تصفية حسابات قديمة مع الدول
الثلاث تحت دعوى مكافحة الإرهاب، ليتأصل بذلك - أمريكياً -
مفهوم «صراع الحضارات» سياسياً وثقافياً رديئاً بين الحضارة
الغربية من ناحية والحضارتين الإسلامية والكونفوشسنية من
ناحية أخرى. ولعلَّ الضغط الذي مارسه الرئيس الأمريكي على
نظيره الصيني، خلال زيارته الأخيرة لبكين في فبراير الماضي، من
أجل السماح بمزيد من الحرية الدينية في الصين - ولانسيما في ما
يخصُّ قضية الدالاي لاما، للزعيم الريجي للتيبت الذي يعيش في
المنفى، وقضية اعتقال أمريكيين من اتباع طائفة فالون جونج،
واعتقال أساقفة من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية... إلخ - يُعدُّ
دليلاً واضحاً على ذلك.

ولكنَّ تقاطع خطوط المصالح الأمريكية، وتشابكها بالشكل المعقد
الذي سبق ذكره، يوجيان بأنَّ العالم سيَشهد حرباً باردة جديدة
لا تقتصر على الملفات السياسية أو العسكرية فقط، وإنما تتعدى
ذلك إلى الملفات الثقافية والمضاربية والدينية أيضاً. وهذا ما
يوجب على الولايات المتحدة أن تتعامل مع الوضع بقدر أكبر من
الحذر، من خلال السعي إلى فضِّ هذا الاشتباك والتعامل مع كل
قضية على حدة، دون اللجوء إلى لغة التهديدات التي بُنيتْ عدم
جدواها. ذلك لأنَّ ردود أفعال شعوب العالم الثالث المظلمون -
التي تمثل كوريا الشمالية أحد أبرز أعضائه - إزاء الوجود
المصري الأمريكي في الكثير من أقاليم العالم وإنشاء التدخل
الأمريكي في شؤون أعضائها، لا يمكن التنبؤُ بها، خاصة أننا
في عصر الألفية الثالثة بصدد حرص أشد من جانب الأعضاء

ريجون ماهر كامل

باحث في مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام. له عدد
كثير من المقالات والدراسات.

أبعد من إيران:

محور الشر «صناعة» أميركية بنكهة العولمة

□ أحمد منيسي

ستبدأ صفحة جديدة تنهي أو تخفف من حالة العداء التاريخية بين البلدين.

ولكن الأزمة الجديدة التي نشبت بين الدولتين وأدت إلى هذا التدهور الحاد في علاقاتهما جاءت لتتسبب في هذه التوقعات، بل ولتعود بالعلاقات إلى أكثر أوقاتنا توتراً منذ عام ١٩٧٩. وقد نشبت هذه الأزمة عقب التصريحات المثيرة التي أدلى بها الرئيس الأمريكي في خطاب حول حالة الاتحاد الأمريكي، في نهاية يناير الماضي، وفيها وصف إيران والمراق وكوريا الشمالية بأنها «محور الشر» وهو ما يعني تقسيماً أميركياً للعالم إلى «مسلطين» أحدهما للخير والآخر للشر وفق تعبير أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة. وثبت ذلك تصريحات مشابهة لبعض قيادات أركان الإدارة الأمريكية: فزعزع وزير الدفاع دونالد رامسفلد أنه متأكد من أن طهران قد ساعدت بعض أعضاء تنظيم القاعدة وحلفائهم من مسؤولي حكومة طالبان على الفرار من أفغانستان إلى الأراضي الإيرانية، وأكدت مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس أن الولايات المتحدة ستركز جهودها خلال الفترة القادمة على منع انتشار أسلحة الدمار الشامل والتصدي للدول التي تحاول الحصول على تلك الأسلحة - وهو ما يعني أن إيران ستكون هدفاً للولايات المتحدة في المرحلة القادمة.

مسيرة متخبطة: تقارب وتوتر

كانت الولايات المتحدة قد أطلقت سبب الانتقابات البرلمانية الإيرانية الأخيرة في مطلع العام ٢٠٠٠ مبادرتها الشهيرة بشأن تخفيف الحصار الاقتصادي الذي تفرضه على إيران. وسبق هذه المبادرة وتلاهها العديد من الإشارات الواضحة والاتصالات غير المباشرة بين الطرفين. إذ اعترفت واشنطن للمرة الأولى بدورها في إسقاط حكومة مصدق، واعتذر الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون عن الممارسات الأمريكية التي ألحقت ضرراً بالمصالح

تشهد العلاقات الإيرانية - الأمريكية منذ أوائل شهر شباط (فبراير) الماضي تدهوراً خطيراً، لم يكن في نظر الكثيرين متوقعاً في هذا التوقيت بالذات. فالحرب التي شنتها الولايات المتحدة ضد أفغانستان بدعوى مكافحة الإرهاب قد فتحت الطريق لاحتلال بدء مرحلة جديدة في العلاقات الثنائية بين البلدين، اللذين توافقت أهدافهما في القضاء على حركة طالبان: الولايات المتحدة بسبب انتهائها هذه الحركة بالضلوع في الهجوم على نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر الماضي، وويلائها لتنظيم القاعدة الذي وجهت إليه تهمة تنفيذ هذا الهجوم منذ اللحظة الأولى لوقوعه وإيران بسبب عدائها للمستحکم لطالبان. وقد امتد هذا التوافق ليضمحل تعاوناً عسكرياً بين الطرفين - وهو ما اعترف به مؤخراً الرئيس الإيراني السابق خاشي ورافسنجاني الذي يشغل حالياً منصب رئيس مجلس تشخيص النظام حين قال إنه لولا مساعدة بلاده للولايات المتحدة لفرقت في المستقبل الأفغاني.

والواقع أن أحداث ١١ سبتمبر قد خلقت مزاجاً عاماً إيرانياً مالم ولمرة الأولى منذ قيام الثورة الإسلامية هناك في عام ١٩٧٩، إلى التعاطف مع الولايات المتحدة. وقد تجلّى هذا التعاطف في مؤتمرات عدة، كان أهمها صدور البيانات المنشأة بهذا الهجوم من قبل قمة هرم السلطة في إيران، وبخاصة المرشد الروحي للثورة السيد علي خامنئي، فضلاً عن خروج عدة مظاهرات في الشوارع الإيرانية عبرت عن إدانتها لهذه الأحداث وتعاطفها مع الشعب الأمريكي.

وعندما تمكنت الولايات المتحدة من إزاحة طالبان عن الحكم، وتم الاتفاق على عقد مؤتمر بين في أواخر نوفمبر الماضي لترتيب الوضع الأفغاني في مرحلة ما بعد طالبان، فسمحت الولايات المتحدة المجال لإيران لكي تشارك بفعالية في رسم مستقبل أفغانستان، من خلال مشاركة إيرانية مكثفة في هذا المؤتمر الذي تم الاتفاق فيه على تشكيل حكومة مؤقتة يرأسها حامد قرضاي. وقد أوحى هذا المشهد للكثيرين بأن العلاقات الإيرانية - الأمريكية



كان أهم مؤشرات عوامل
التغيير في العلاقات
الإيرانية - الأمريكية قبل
خطاب بوش فور خاتمي
بولاية ثانية

وجدت إيران نفسها مضطرة إلى التنسيق مع الولايات المتحدة، عدوها اللدود الذي يقود هذه الحرب، لأن إيران تُقيم تماثلاً إن مدى حريتها في الحركة على الصعيد العالمي مرتبط إلى حد كبير بمدى الرضى الأمريكي. وعلى صعيد آخر فإن تأكيد حكومة الرئيس محمد خاتمي والتأييد للمقتل لهذه الحرب، لو حدث، كان بوصفه أن يلغى إلى تغيير المساحة الإيرانية وربما القضاء على مشروع الإصلاح برعته.

في ضوء هذه العوامل المتناقضة كان الموقف الإيراني من هذه الحرب، والذي توافق جزئياً مع المواقف الأمريكي، متريفاً محدوديّة الفرصة التي وفرتها هذه الحرب لتطوير العلاقات مع أميركا مُخرباً لتفادي دخول العلاقات دائرة التوتر لاحقاً. ومن المؤكد أنّ أحداث ١١ سبتمبر قد أضافت المزيد من التوتر على الخلافات القائمة بين البلدين؛ فالموقف الإيراني للمعدّل يُشجع الغزو الأمريكي الذي كان يريد انصياعاً إيرانياً كاملاً لرغبات واشنطن. وهكذا قامت الولايات المتحدة لاحقاً بإدراج حزب الله وحركات المقاومة الفلسطينية في قائمة الحركات الإرهابية التي قد يتم استهدافها مباشرة في وقت لاحق. وبكذلك الدعاية الأمريكية بسبب هول هذه الأحداث على كافة الأصوليات الإسلامية كمصدر قاتم للخطر، لا فرق في ذلك بين نموذج معتدل وآخر متشدد. وأصبح في تصعيد الخلافات بين البلدين قلق الولايات المتحدة من النشاط الإيراني داخل أفغانستان في مرحلة ما بعد طالبان، ومخاوف إيران من التلويح الأمريكية في منطقة آسيا الوسطى ومن أن تكون الحرب الأمريكية ضد أفغانستان بداية للسيطرة على المنطقة ومن ثم محاصرة إيران من الناحية الشرقية والشمالية. وفي تقديره أنه لم يكن مستغرباً في سياق هذا المشهد للعلاقات الإيرانية الأمريكية، ما جاء في خطاب بوش إزاء إيران ووصفه إياها بأنها إحدى دول محور الشر.

أما في ما يتعلق بالدور الإسرائيلي في الأزمة، فإنّ هناك توافقاً أمريكياً - إسرائيلياً على أهمية توجيه خسارة إلى إيران تحقّق

أمالها على وصول بوش الابن إلى السلطة، وانتظرت أن تحسم الكثير من قضايا السياسة الخارجية الأمريكية التي لم تستطع إدارة كلينتون السابقة حسمها، ومنها قضية العلاقة مع إيران.

مناخ الأزمة الجديدة

في تقديري أنه لا يمكن فهم الأزمة الأخيرة التي نشبت بشكل مفاجئ بين طهران وواشنطن دون النظر إلى عاملين أساسيين هما: السياق العام لطبيعة العلاقات بين الطرفين، وطبيعة الدور الإسرائيلي في تهجير هذه الأزمة نفسها. فعلى الرغم من أنّ الحرب الأمريكية ضد أفغانستان كانت فرصة لتطبيع علاقات واشنطن وطهران، فإنّ التنسيق بين البلدين كان لا بدّ أن يكون مرحلياً بسبب الفجوة العميقة في رؤية كل منهما وتوجهاتهما المتضادة بشأن معظم القضايا الإقليمية والدولية إن لم يكن كلّها. أي أنّ هذا التعاون فرضته ظروف مؤقتة تمثلت في اتفاق البلدين على الإطاحة بطالبان. فمن ناحية لم يكن لإيران أن تُدوّل نفسها عمداً يدور على الأراضي الأفغانية أو عن المشاركة في صياغة مستقبل أفغانستان بعد طالبان. ومن ناحية أخرى كانت واشنطن تدرك أنّ لا مجال لعزل إيران في هذه القضية بسبب النفوذ الإيراني الواسع في أفغانستان؛ كما أنّ من شأن التعاون مع طهران أن يعطي مصداقية لحملة واشنطن على ما تسميه «الإرهاب» بسبب توجهات النظام السياسي الإيراني وبنيتها.

والواقع أنّ الموقف الإيراني تجاه الحرب الأمريكية على أفغانستان كان بالغ الدقة. فعلى الرغم من أنّ إيران - الرسمية والشمعية - سارعت إلى إدانة هجوم ١١ سبتمبر على الولايات المتحدة، فإنّ موقفها إزاء الحرب على أفغانستان كان محكوماً بعدة عوامل متناقضة: فهي كانت مع هدف الإطاحة بطالبان، ولكن ذلك لم يكن يعني بحال أنّها على استعداد للتصحية بأفغانستان التي تعني لها الكثير سياسياً وثقافياً وأمنياً واقتصادياً. ومن ناحية أخرى

الولايات المتحدة تكريسه منذ نهاية عصر الحرب الباردة.

بيد أن البعض يرى أن الحملة الأمريكية الحالية ضد إيران تندرج في إطار دعائيٍّ أساسيٍّ، وأنها لا تعبر عن استراتيجيةٍ أمريكيةٍ حاليّةٍ تجاه إيران - أيّ أنها حملةٌ مجرد الاستهلاك المحليّ. والواقع أن هناك العديد من الاعتبارات التي تؤكد الرؤية الأخيرة، إذ إن استهداف إيران لا يبدو أولويّةً أمريكيةً في الوقت الراهن. كما أن تكلفة استهدافها لن تكون سهلةً على صكّ متعددة. فلدَى إيران قدرةً على إلحاق الضرر بالمصالح الأمريكية في المنطقة، وخاصةً في الخليج العربيّ. ثم إن إقدام الولايات المتحدة على ضرب إيران سيُفقد واشنطن المصداقية في الحرب التي أعلنتها ضد الإرهاب، على الأقل لأنّ هذا التصعيد الأمريكي يأتي في وقت تشديد فيه الأمم المتحدة بالجهود الإيرانية لمكافحة الإرهاب. وبعبارة أخرى فإنّ الولايات المتحدة تُهدّد من وراء حملتها على إيران إلى ابتزازها وتوجيه نفوذها في المنطقة، لا إلى مواجهتها في الوقت الراهن. فالولايات المتحدة تشنّ هذه الحرب الكلاميّة ضد إيران من أجل إعادة فرض طرق العزلة عليها، بعد أن تمكّنت السياسة الخارجية الإيرانية في ظلّ تنامي التيار المعتدل من الانفتاح على العالم، كما أن واشنطن تسعى إلى تغطية فشلها في القبض على قادة تنظيم القاعدة وحركة طالبان، الأمر الذي يوجب بذلّ هذه الحرب الكلاميّة قد تهدد قريباً.

لكنّ ذلك لا يعني أنّ في وسع البلدين تطوير علاقاتهما أبعد ممّا هو قائم حالياً. كما أن إيران تظلّ هنا مؤجّلاً للولايات المتحدة، ويُنعم هذا القول تلك التناقضات العميقة بين الطرفين، وكلّها تشير إلى أن إمكانيات التلاقي الإستراتيجي بين البلدين وهم حقيقيّ. كما أن السهام الأمريكية سوف تصوب إلى مجموعة الدول ذات النظم السياسيّة البنيّة على أسس أيديولوجيّة، وإيران إحدى هذه الدول.

حزماً من الأهداف المشتركة للجانين، ومنها: الوقف الكامل لبرامج التسليح الإيرانيّة التي طوّرت العديد من الأسلحة المتقدمة بفضل الدعم الروسيّ وتمت ضغط التيار الإيرانيّ للتشديد؛ وإضعاف الدعم الإيرانيّ للقضيّة الفلسطينيّة وبمعها لحزب الله لإتاحة المجال لتسوية هذه القضية وفقاً لما تراه واشنطن وتل أبيب. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ إيران تُعتبر عمقاً استراتيجيّاً لسوريا، وأضامها يُقلّق يد إسرائيل في الجولان. ويستند هذا التوافق الأمريكي - الإسرائيليّ ضد إيران، بالإضافة إلى أسسه التقليديّة، إلى ما أفرزته أحداث ١١ سبتمبر من رؤية أمريكيةٍ جديدةٍ لمكافحة ما تسميه واشنطن الإنهاب. ولحدي ركانت هذه الرؤية هي التوجّه الأمريكيّ إلى تشكيل محور هنديّ - تركيّ - إسرائيليّ لضرب ما تعتبره واشنطن حركات متطرفة في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، وإفادته إسرائيل بضرب حركات المقاومة في فلسطين. وقد نشط اللوبي اليهوديّ في الولايات المتحدة لمعالجة أيّ تطوير للعلاقات الإيرانية - الأمريكية على خلفيّة توافق البلدين الجزئيّ في الحرب ضد أفغانستان. ومن المؤكّد أن إسرائيل قد لعبت دوراً كبيراً في إشغال الأزمة الأخيرة بين البلدين.

حدود التصعيد

في ضوء هذا التصعيد المستمرّ تُضاهيه الأزمة الإيرانية - الأمريكية، فإنّ التساؤل الملحّ هنا يدور حول ما إذا كانت الولايات المتحدة سوف تُقدم على ضرب إيران في إطار ما تسميه المرحلة الثانية للحرب ضد الإنهاب أم لا ؟ للإجابة عن هذا التساؤل نقول إنّ هناك عدة عوامل تدفع إلى إنزال هذه الضربة بإيران ذلك أن الرئيس بوش في حاجة إلى خلق عدوٍ جديد بعد أفغانستان، ومن هذه الزاوية تبدو إيران الأكثر جاذبيّة من بين دول محور الشر لتحقيق هذا الهدف الذي يُخدم الخطة الأمريكية الرامية إلى ترويض الدول الخارجيّة على النظام العالميّ الجديد الذي تريد



إيران تُعتمر عملاً استراتيجياً سورياً، وإضعافها يظلم يد إسرائيل في الجولان

أي مستقبل؟

والسؤال المطروح الآن هو: هل يمكن تصوّر سيناريو آخر لتطور العلاقات الإيرانية - الأمريكية في المدى البعيد مخالفاً لنطق الصدام الحتمي المؤكّد أنّ الأزمة الأخيرة التي انفصلت بين الطرفين سوف تُحيط للجهود الحثيثة التي بذلها الرئيس محمد خاتمي إبان ولايته الأولى لإذابة الجليد المتراكم بين البلدين، ولأسيما أنّ التيار المتشدد الذي يتقاسم الساحة السياسية مع المعتدلين في إيران يركّض من الأصل ميلاً فتح ملفّ العلاقات مع أمريكا إذا لم يحدث تغيير جوهري في الرؤية الأمريكية تجاه إيران، وسيقتد هذا التيار من هذه الأزمة حجةً قويّةً لتصميم موقفه، على الرغم من أنّه سبق أن غضّ الطرف عن التعاون الإيراني - الأمريكيّ الجزئيّ في الحرب ضد أفغانستان انطلاقاً من مصالح قوميّة. على هذا النحو يبدو مستقبل العلاقات الأمريكية - الإيرانية في المدى القريب مرشّحاً للدخول إلى حالة الجمود، إنّ لم تُصنّف إليه عواملٌ توتر جديدة. وفي هذا الإطار نشير إلى أنّ المزيد من الفزيت سيُضخّ على النار المشتعلة بين البلدين بسبب التقرير السرّيّ الذي أعده البيتاغون وتمّ الكشف عنه أوائل مارس الماضي ٢٠٠٢، وجاء فيه أنّ إيران هي إحدى الدول المهدّدة بتوجيه الأسلحة النوويّة الأمريكيّة ضدها. ومن غير المتوقع أن تُقدّم إيران على اتخاذ إجراءات ما من شأنه دفع العلاقات إلى وضع أفضل بعد أن كان التيّار المعتدلّ مستعدّاً للإقدام على خطوة من هذا النوع. ويضع ذلك الكرة مجدداً في ملعب الأمريكي. وهكذا ارتوت الولايات المتحدة بعلاقاتها بإيران إلى نقطة التوتر مرّة أخرى، وعلى واشنطن الآن إذا أرادت دفع العلاقات إلى وضع أفضل أن تُقدّم مبادرةً سياسيةً جديدةً كذلك التي أطلقها عقب الانتخابات البرلمانيّة الأخيرة في إيران.

والواقع أنّ فضيحة رفع الحصار الذي تفرضه الولايات المتحدة على إيران ليست مرتبطاً بالفرس في تسييس علاقات جبهة قويّة بين الطرفين. فالمبادرة الأمريكيّة المطلوبة لتحقيق مثل هذا النوع من

العلاقات لا بدّ أن تنطلق من مبدأ احترام دور إيران كقوة إقليمية لها أولويّاتها الشروعة في المنطقة، وتصرّ إيران على أن تقوم علاقاتها مع الولايات المتحدة على مبدأ التكافؤ. وعلى هذه المبادرة أن تليها المطالبات الإيرانيّة الأساسيّة تجاه الولايات المتحدة، ومنها: تحرير الأموال الإيرانيّة المجمّدة في البنوك الأمريكيّة منذ سقوط الشاه؛ وشطب إيران من قائمة الدول التي تهمها الولايات المتحدة بالإرهاب؛ وتعهّد واشنطن بعدم التدخل في شؤون إيران الداخليّة؛ إضافةً بالطبع إلى إلغاء الحصار.

والحقّ أنّ هناك ضغوطاً على الولايات المتحدة لتقديم مبادرة كهذه من قبل إدارة بوش شخصيّة التي عارضتّ تنفيذ قانون العقوبات، وضغوطاً مماثلة من لوبي الشركات الأمريكيّة العاملة في مجال النفط بإيران. ولكنّ هناك في المقابل رؤية أمريكيّة أخرى متشددة تُركّض تقديميّة تنازلات من هذا النوع لإيران انطلاقاً من أنّ إيران تدعم الإرهاب وتعارض التنسيوية في الشرق الأوسط وعلى الرغم من أنّ الأسباب التي يُدّعى عليها هذه الرؤية المتشدّدة قد أصبحت جزءاً من الماضي، فإنّ إصحابها ما زالوا يتمسكون بها، مبرّرين ذلك بأنّ أسراع مساحة الاعتدال في الساحة السياسيّة الإيرانيّة لا يعني حدوث تحوّل في بنية النظام السياسيّ الإيراني نفسه وأطره الأيديولوجيّة.

وعليه ففي حال ثبات أسس السياسة الخارجيّة الإيرانيّة، وعدم ميل إيران إلى تقديم تنازلات من النوع الذي يطالبها به المتشددون، بما فيها تخيير جوهري النظام الإسلامي نفسه، فإنّ تطوير العلاقات الثنائية بين البلدين يظلّ مشكلة حقيقية. المحضلة إذن، تكمن في أنّ الدولتين تحتاجان إلى خلق صيغة علاقاتهما المشتركة في المدى القريب تجلّب الطرفين منطق المواجهة التعمّية في المستقبل البعيد.

أحمد منيسي

مشتق برنامج الدراسات الخليجيّة في مركز الدراسات السياسيّة والإستراتيجيّة بالأمرام.

□ باسيل يوسف

أخرى على أنها دول شريرة أو مارقة أو ملعونة. وجميع هذه المصاهيم المتصلة بالشر في علاقات الدول تتركز على قيم ميتافيزيكية ذاتية تجاوزها العصر، بعيدة عن المعايير الموضوعية التي تعارف عليها القرن العشرون بعد تجربة حربين عالميتين.

وفي ضوء هذه الخلفية يمكن تسليط الضوء القانوني الدولي على سياسة محور الشر الأمريكية. فإذا هي مبنية على منطلقات تعيد المجتمع الدولي إلى الخلف لترسخ النظرية الذاتية على حساب الموضوعية، وتنظر إلى الشعوب والدول نظرة عنصرية، وتستبعد كافة أسس القانون الدولي للتعامل بين الدول والشعوب - وهي الأسس التي تمثلت في ميثاق الأمم المتحدة والصكوك الدولية وخاصة تلك المتعلقة بحقوق الإنسان وحقوق الشعوب.

قواعد القانون الدولي لعلاقات الدول والشعوب في القرن العشرين

أقرت حضارة القرن العشرين مجموعة من مبادئ القانون الدولي أصبحت تشكل قواعد أمر Imperative Norms في العلاقات الدولية. وقد ترسخت هذه المبادئ في ميثاق الأمم المتحدة وفي الصكوك الدولية الصادرة عن المنظمة الدولية، وأهمها:

- ١ - المساواة في السيادة بين جميع الدول (الفقرة الأولى من المادة الثانية من الميثاق).
- ٢ - لكل الشعوب الحق في تقرير مصيرها بحرية ومن دون تدخل خارجي (الفقرة الثانية من المادة الأولى من الميثاق).
- ٣ - فض المنازعات بين الدول بالوسائل السلمية. وعدم تعريض السلم والأمن الدوليين للخطر (الفقرة الثالثة من المادة الثانية).

عن الجذور الفلسفية والدينية لتعبير «الشر» وانعكاساته السياسية والقانونية الدولية

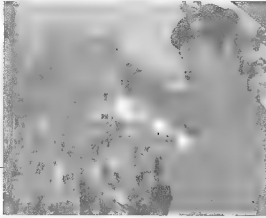
كانت مسألة الشر كقضية للغير محل اهتمام كبير من الأديان والعقائد الفكرية والاتجاهات الفلسفية منذ القدم. ونظراً لاهتمام هذه الورقة بالنظير الأمريكي بعد خطاب الرئيس بوش الابن الذين صنف ثلاث دول ضمن «محور الشر» فإنه يجدر الإشارة إلى تأثير الحرب بآراء اللاهوت الكنسي، وخاصة أطروحات القديس أوغسطين في القرن الرابع ونوما الأكويني وما تلاه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من آراء فلسفية. وضمن هذه البيئة الفلسفية طرحت فكرة «الحرب العادلة» Just War لكنيها الية للرد على الشر، بالرغم من أن هذه الفكرة تخلى عنها المجتمع الدولي بصورة متدرجة. إذ حدثت أوجه استخدام القوة في العلاقات الدولية بموجب اتفاقيات لاهي عام ١٩٠٧، وبعدها ميثاق عصبة الأمم، ثم جاء ميثاق الأمم المتحدة ليحرم استخدام القوة كما سيبدأ تفصيلاً في هذه المساهمة.

وجاء القرن العشرون ليشهد حربين عالميتين وصفت المتسي الناتجة عنهما بأنها تمهيد عن ممارسة الشر، وأدرج بين أفعال الشر ما أطلق عليه في الغرب والشرق ضد اليهود (أو الهولوكوست) إبان النازية. وراحت الدراسات المتعلقة بالصناعة الإعلامية للهولوكوست تركز على أن حل هتلر شكل اليهود كان شرراً للشر.^(١)

وما يجدر التأكيد عليه عند الحديث عن أثر مفهوم الشر في العلاقات الدولية هو موضوع نظرية الفرد والمجتمع إلى الآخر، وما تكنهها من مفاهيم قد تصل إلى توصيف الآخر بأنه الجانب الملعون لاتعبارات عنصرية أو دينية.^(٢) وهذا المفهوم انتقل إلى علاقات الدول بعضها ببعض، فأخذت بعض الدول تنظر إلى دول

١ - نورمان فنكلسنت، صناعة الهولوكوست - قاصات في استغلال المعاناة اليهودية، ترجمة الدكتور سماح إنريس بمشاركة آيمن حنا حداد (بيروت: دار الآداب ٢٠٠١)، ص ٦٠.

٢ - حول صورة الآخر يُراجع كتاب صورة الآخر العربي، ناظرًا، ومنظورًا، إليه، تحرير الطاهر ليب (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩).



كودالير رابيس: إنَّ العالم سيصير الفضل إذا لم يعد صدام حسين في السلطة

يجبر التفكير هنا بأنَّ النظام القانوني الدولي الراهن يحظر الحرب ومصلحة في العلاقات الدولية، ويمنع استخدام القوة، وهذا ما نصت عليه الفقرة الرابعة من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة، إلا إذا كانت هذه القوة ممارسة لحق الدفاع الشرعي بموجب المادة ٥١ من الميثاق وضمن إطار الآليات الواردة في هذه المادة للتحصّل بسلمة مجلس الأمن في اتخاذ التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدوليّين. ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم «الحرب العالفة» بعيد وغريب عن فلسفة ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي^(١) ويندرج التصرّف في الشؤون الداخليّة للدول ضمن استخدام القوة في العلاقات الدوليّة، وهذا ما ورد في الصكوك الدوليّة التي عالجت حظر التدخل في الشؤون الداخليّة للدول.

سياسة محور الشر الأمريكية وقواعد القانون الدولي
تتملّ الأهداف للظنة من سياسة محور الشر الأمريكيّة في التحدّي في الخيارات الوطنيّة للشعوب في تقرير مصيرها ونظامها، ورفض انتمية تابعة للولايات المتحدة، واستخدام القوة ضدّ الدول التي أدرجت ضمن محور الشر وفي العراق وإيران وكوريا الشماليّة. نال العراق اهتماماً وثيقاً كبيرين في سياسة محور الشر الأمريكيّة. فقد استصدرت هذه السياسة حوله قانوناً خاصاً، وصدّعت له مبلغ ٩٧ مليون دولار تحت اسم قانون تحرير العراق، وكلّ ذلك يوجي، وربما يؤكّد، أنّ الهدف للركن من سياسة محور الشر الأمريكيّة هو العراق، وأنَّ إيراد باقي الدول ليس إلّا تغطية للهدف الحقيقيّ إلا وهو للعراق. كما نشرت مجلة Foreign Affairs الأمريكيّة في عددها الصادر في آذار ٢٠٠٢ مقالاً حول العراق ورد فيه قول مستشارة الأمن القوميّ الأمريكيّ كوندالير رابيس إنَّ العالم سيكون أفضل إذا لم يعد صدام حسين في السلطة^(٢).

٤ - الامتناع عن التهديد باستعمال القوة، أو استخدامها ضدّ سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسيّ لأيّ دولة، وعدم التصرّف في شؤونها الداخليّة (الفقرة الرابعة من المادة الثانية من الميثاق).

٥ - تعزيز واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسيّة للناس جميعاً، بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين، ولا تفريق بين النساء والرجال (الفقرة الثالثة من المادة الأولى من الميثاق).

٦ - جعل ميثاق الأمم المتحدة مرجعاً لعلاقات الدول (الفقرة الرابعة من المادة الأولى من الميثاق).

وتشكّل هذه القواعد كلّاً مترابطاً في العلاقات الدوليّة لا يبيح لأيّ دولة التصرّف الانفراديّ خارجها. وتشكّل الإطار المرجعيّ الموضوعيّ لتوصيف تصرّفات أيّ دولة، ضمن الآليات الواردة في ميثاق الأمم المتحدة - سواء الآليات القضائيّة المتعلّقة بمحكمة العدل الدوليّة، أو الآليات السياسيّة في مجلس الأمن، أو الجمعية العامّة أو المجلس الاقتصادي والاجتماعي واللجان المنقّرة عنه.

وهكذا فإنَّ النظام القانوني الدوليّ المستقرّ في القرن العشرين استبّعد التقويم والتوصيف الذاتيين اللذين لا يستندان إلى مرجعيّة موضوعيّة. ومن ثمَّ فإنَّ وصف الشر أو تقييده يتعيّن أن يستند إلى الإطار الموضوعيّ المستقرّ في القانون الدوليّ، لا إلى تقدير ذاتي لدولة أو مجموعة دول بناءً على منظورها الذاتي والذاتيّ. وإذا كانت لأيّ دولة وجهة نظر حول تصرّف دولة أخرى فإنّه يتعيّن أن تُقرّحه عبر الآليات التي تقرّها لاتخاذ الإجراءات وفقاً لميثاق الأمم المتحدة. وبخلاف ذلك فإنّ تقويم تصرّفات أيّ دولة برأي انفراديّ خارج مرجعيّة الأمم المتحدة واليائتها يشكّل خروجاً عن أحكام الفقرة ٤ من المادة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة، ويقود إلى سلسلة من الانتهاكات الخطيرة للقانون الدوليّ تبدأ بالتدخل في الشؤون الداخليّة للدول وتصل إلى العدوان المسلّح بالإضافة إلى ممارسات للتمييز العنصريّ.

السياسة الأميركية

حول محور الشر في ضوء القانون

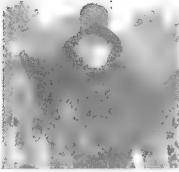
مسألة أسلحة الدمار الشامل وسياسة محور الشر الأمريكية
وضمن مبادرات سياسة محور الشر الأمريكية طُرحت مسألة أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها بعض الدول. ونشرت مراكز البحوث الأمريكية دراسات حول هذا الموضوع لتبرير تلك السياسة. فقد اصدر مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٢ تقريراً تناول موضوع أسلحة الدمار الشامل في الدول الثلاثة (٦).

ولكن لو كانت سياسة محور الشر الأمريكية بصدد امتلاك الدول لأسلحة الدمار الشامل ملتزمة قواعد القانون الدولي والمبادئ الأمم المتحدة، لكان يمكن أن تكون موضع نظر. إذ إن سياسة القضاء على أسلحة الدمار الشامل يجب أن تكون ملتزمة قاعدة المساواة بين الدول، وعدم الانتقائية وأزواجية المعايير. والمثال الحي على ذلك هو امتلاك إسرائيل أكبر ترسانة من مختلف أسلحة الدمار الشامل، ومع ذلك تسكت الولايات المتحدة عن إسرائيل، بل تدعّمها وتشجّعها. ونشير في هذا الصدد إلى إصرار الولايات المتحدة على الانتقائية في موضوع القضاء على أسلحة الدمار الشامل بحسب الفقرة ١٤ من قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ / ١٩٩١ التي تنص على أن القضاء على أسلحة الدمار الشامل في العراق هو ضمن القضاء على أسلحة الدمار الشامل في منطقة الشرق الأوسط بأكملها. وما قد مضى على اعتماد قرار مجلس الأمن إحدى عشرة سنة ولم تتخذ أية تدابير للقضاء على أسلحة الدمار الشامل في دول الشرق الأوسط إلا في العراق، بينما تنذر كافة التقارير إلى امتلاك إسرائيل أسلحة نووية وكيميائية وبيولوجية وغيرها من الأسلحة. وفي هذا الوقت شجّلت الأمم المتحدة اللجنة الخاصة التي تجسّس أعضاؤها لحساب الولايات المتحدة

ولا يختلف اثنان من المعنيتين بالقانون الدولي على أن السياسة الأميركية قد سبق أن انتهكت القانون الدولي بقرارها التدخل في الشؤون الداخلية للدول. ونشير من قبيل التوثيق إلى قرار محكمة العدل الدولية حول تدخل الولايات المتحدة في نيكاراغوا، إذ اصدرت المحكمة قرارها المؤرخ في ١٩٨٦/٧/٢٧ القاضي بإدانة الولايات المتحدة بسبب تدريب وتسليح وتمويل قوات الكونترا وتشجيع ومساعدة النشاطات العسكرية وشبه العسكرية الموجهة ضد نيكاراغوا. وقد قصّت هذا القرار تعليقاً قانونياً معكناً لطبيعة التزام الدول عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى. ومن أهم ما ورد فيه ما جاء في الفقرة ٢٨، ومفاده أن استخدام القوة ليس الأسلوب المناسب للتحقق من ضمان احترام حقوق الإنسان وخلصت المحكمة إلى أن الدافع المبني على حماية حقوق الإنسان في نيكاراغوا لا يمكن أن يبرّر قانونياً (٧).

كما أن سياسة محور الشر الأمريكية تنطوي على تهديد الدول بشنّ عدوان عليها. وهو ما يشكل خرقاً خطيراً لميثاق الأمم المتحدة، وخاصة الفقرة الرابعة من المادة الثانية منه. ويشكّل العدوان جريمة ضد الإنسانية بموجب قواعد القانون الدولي العرفي. وقد ردت جريمة العدوان ضمن الجرائم المعاقبة عليها في النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية الممتدة في شهر تموز ١٩٩٨ في روما. وتشمل الولايات المتحدة على استبعاد هذه الجريمة من النظام الأساسي للمحكمة بداعي الخلاف حول تعريف العدوان الذي كانت قد اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٤، إذ تحاول الولايات المتحدة قصر تعريف العدوان على احتلال الأرض دون الأشكال الأخرى للعدوان بالأسلحة الموجهة والطائرات وغيرها من الوسائل.

١ - Resumé des arrêts, avis consultatifs et ordonnance de la cour international de justice 1948- 1991 (New York: Nations Unies 1992), p. 202.
٢ - www.csisa.org



الريس البيك الدولي
او منظمة التجارة
العالمية او صندوق
النقد عصا مصر
الشـ ر

تخلص الرسالة إلى انطباع للمتقفيين الأمريكيين بأن حادث ١١
ايلول ٢٠٠١ هو شكل من أشكال الهولوكوست ضد الأمريكيين.
وهذا تأكيد لصناعة الإعلام لتسيويع العنوان على الدول، إذ أصبح
العالم أمام سلاح دمار شامل إعلامي، على نحو ما ورد في مقال
في مجلة Foreign Affairs في عديدا الصادر في آذار ٢٠٠٢
تحت عنوان «Weapons of Mass-Communication».

وفي المقابل نشرت جريدة le monde diplomatique الفرنسية
في عديدا الصادر في شهر آذار ٢٠٠٢ مقالاً كتبه السيد
Ignacio Ramonet طرح فيه منظوراً موازياً لمسور الشـ ر
الأميركي، فذكر أن ما يجب أن يخلق عليه محور الشـ ر هو صندوق
النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية، وأشار المقال
إلى التصرفات الانفرادية الأميركية للدول على العراق دون
التشاور مع حلفائها، وخلص إلى ضرورة وهي الجميع للتحدي
الأميركي ومجابهته.

خلاصة

ما يمكن استخلاصه أن سياسة محور الشـ ر الأميركية تُلهم
أمنس القانون الدولي، وأنها بُنيت على مفاهيم تتجاوزها الزمن
وتعبد المجتمع الدولي إلى الخلف. ويتحمل المتقفيين العرب، وبينهم
القانونيون، مسؤولية التعقيد في المنظر الأميركي لمحور الشـ ر في
العلاقات الدولية لكونه صيغة تدور عن ممارسة عنصرية تنظر إلى
باقي الدول والشعوب نظرة استعلائية ولزوقية وعبدانية يجب
مواجهتها بمختلف الوسائل وبينها البصوت والدراسات التي
تخاطب العقل الغربي المناهض للمنظر الأميركي، وحشد جبهة
فكرية واسعة في العالم ضد المنهج الأميركي المعادي للشعوب.

باسيل يوسف

رئيس قسم الدراسات القانونية في بيت الحكمة - بغداد.

واسرائيل، باعترااف رئيسها، ثم انسحبت في كانون الأول ١٩٩٨
قبل العدوان الأميركي - البريطاني على العراق. كما أنهت اللجنة
الخاصة أعمال القضاء على أسلحة الدمار الشامل في العراق،
ولكنها تمسكت بالبقاء لمجرد التفتيش عن معلومات لخدمة
أغراضها التجسسية بهدف تسيويع العنوان على العراق.

ثم شكل مجلس الأمن لجنة جديدة بموجب قرار مجلس الأمن
١٢٨٤، أطلق عليها اسم «لجنة التحقق والرمدة» ويرأسها السيد
هانز بليك السويدي. ويجري العراق حواراً مع الامانة العامة للأمم
المتحدة حول موضوع هذه اللجنة.

وهذا يعني أن الولايات المتحدة تصصرف بصورة انفرادية دون
انتظار نتائج الليات الأمم المتحدة تجاه العراق. أما بالنسبة إلى
باقي الدول فإن طرح مسألة امتلاك الدول لأسلحة الدمار الشامل
يجب أن يتم ضمن الليات نزع السلاح في الأمم المتحدة، لا
بتصرف انفرادي.

الثقافة الأميركية في خدمة سياسة محور الشـ ر

بعد انقضاء حوالي اسبوعين على خطاب الرئيس الأميركي بوش
حول محور الشـ ر أصدر ستون مثقفاً أميركياً رسالة موجهة إلى
الرأي العام الأميركي والدولي تصب في المحصلة في خدمة
السياسة الأميركية في الحرب ضد الإرهاب وما تبناها من طرح
مفهوم محور الشـ ر. وتكونت الرسالة بـ دعا الذي تقابل من أجله -
رسالة من أمركاء صادرة عن معهد القيم الأميركية بتاريخ ١٢
شباط ٢٠٠٢. وما يهمن في هذه الرسالة هو تبني موقعها المفهوم
الحرب العالمية لتجديد الحرب الأميركية على دول العالم، رغم أن
هذا المفهوم قد عفا عليه الزمن ويتعارض مع القانون الدولي الناهذ
كما بيّن سابقاً. وما ورد في هذه الرسالة يؤكد ما جاء في الفقرة
التمهيدية من هذه الوثيقة حول الترابط المفاهيمي بين المنظر
الفلسفي إلى الشـ ر ومفهوم الحرب العالمية.

الاستراتيجية الأميركية تجاه محور الشر: مثال العراق

□ أحمد التهامي

حدثه أمام لجنة الموازنة في مجلس النواب في ٢٠٠٣/٨ عندما أكد أن الولايات المتحدة لا تخطئ في الوقت الراهن لأي هجوم على دول محور الشر باستثناء العراق، الذي أكد بوش أنه لن يتسبح له بتهديد مستقيل أمريكا. وجاءت جولة نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني لإحدى عشرة دولة، من بينها ٩ دول عربية ليحلّ الطور الأول في الحرب، وهكذا، وبعد أن حققت الولايات المتحدة في لحظة انكسارها بعد أحداث ١١ سبتمبر انتصاراً في أفغانستان، وبعد انصياح العالم كله لومها ورميها، جاء الدور على العراق في ظلّ نشوة النصر الزائف.

موقع العراق في الاستراتيجية الأميركية

صدر عن البيت الأبيض في ديسمبر ١٩٩٩ تقرير عن استراتيجية الأمن القومي الأمريكي للقرن الجديد، حدّد فيه أبرز مصادر تهديد الأمن القومي الأمريكي: في التهديدات القادمة من دول وإقاليم معادية تشكل خطراً على الدول المجاورة لها وعلى الولايات المتحدة في الوقت نفسه، وهي تلك الدول التي تحاول التمدّد بقدرات هجومية وحيازة أسلحة مدمّرة نووية أو كيميائية أو بيولوجية والوسائل الحاملة لها؛ ثمّ الإرهاب كتهديد عابر للقوميات؛ وأعمال الخابرات المعادية. واعتبر التقرير أن القوة العسكرية تلعب دوراً رئيسياً في تنفيذ استراتيجية الأمن القومي الأمريكي، ولهذه الرؤية الاستراتيجية أسس ثابتة في ما يتعلق بالمنطقة العربية والإسلامية أو منطقة الشرق الأوسط، وهي تقوم على أساس إبقاء المنطقة في حالة «فراغ استراتيجي» يجعلها أكثر اعتماداً على القوى الدولية الكبرى ومنطقة نفوذ لها. ويستلزم ذلك تحقيق هدفين أساسيين في التصور الأمريكي للمنطقة هما حماية أمن إسرائيل وضمان تفوقها العسكري التوحي من ناحية، وحماية منابع النفط وطرق مواصلاته من ناحية أخرى. وتبنت الولايات المتحدة حزبة من السياسات لتحقيق هذه الأهداف تقوم على أساس تحقيق تسوية

قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتدشين المرحلة الثانية من الحرب ضد الإرهاب بإعلان الرئيس جورج بوش أن الاستراتيجية الأميركية تركّز على استهداف دول محور الشر الثلاث، وهي إيران والعراق وكوريا الشمالية. وقد جاء مفهوم «محور الشر» كغطاء معانني وإيديولوجي يخلّف الأهداف الاستراتيجية للولايات المتحدة في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، وذلك بعد أن رفضت الإدارة الأمريكية تبني نظرية «مصراع الحضارات» كمسوّج للعلاقات الدولية نظراً لما تشهده هذه النظرية من إمكانية صراع شامل مع العالم الإسلامي، في حين أن مفهوم «محور الشر» يشكل إطاراً ممتدداً يمكن أن تندرج تحته أي دولة تعتبرها الولايات المتحدة بمثابة تهديد رئيسي لمصالحها الاستراتيجية دون أن يثير ذلك صداماً شاملاً بين الحضارات كما تنبأ منتقدون. وقد أدركت الولايات المتحدة إيران والعراق وكوريا الشمالية باعتبارها عناصر «محور الشر» في الوقت الراهن، ولكنّ المفهوم يمكن أن يتسع أو يضيق بتغيّر الظروف والأحوال وتغيّر مصادر التهديد، على عكس مفهوم «صدام الحضارات» الذي يسمّ بنبأت وجود واضح.

وقد أصبح العراق بمثابة الهدف الأول والأقرب في مثلث محور الشر لأسباب عديدة، فهو يقع في دائرة الحصار السياسي والعسكري بالفعل، ودولته مشلولة ومنكشفة عسكرياً أمام التهديدات الخارجية، وعلاقاته متوتّرة ببعض دول الجوار. وقد صارت التهديدات العسكرية الأمريكية وأخصاً وخطراً عديداً، وهو التهديد الأكثر جنّةً خطورة منذ حرب ١٩٩١، على الرغم من غياب أي دليل على تورّط العراق في أحداث ١١ سبتمبر. وفي حين تقوم السياسة الأميركية نحو إيران وكوريا الشمالية على أساس الاحتواء السياسي والردع، فإنّ الاحتواء العسكري واستخدام القوة المسلحة لتغيير النظام هما أبرز عناصر السياسة الأميركية تجاه العراق. وقد أشار كولين باول إلى هذه الاستراتيجية في



من عواشق هجوم أميركا
على العراق مصارفة
حلفائها: غلاف ديرشيدل
اللائنيّة نهاية شبهاط

٢٠٠٢

العقوبات، ومن استمرار عمل لجان التفتيش دون بارقة أمل، بالتهديدات العسكرية والهجمات الصاروخية. لكن عام ١٩٩٨ شهد تغييراً في السياسة الأمريكية بعدما أوقف العراق تعاريفه مع اللجنة الدولية للتحقق إزالة أسلحة الدمار الشامل (اونسكوم) وما أعقبها من قصف أميركي كثيف للعراق خلال عملية دغلب الصمصرة في ديسمبر ١٩٩٨. وركزت الاسفرايتيبيّة الأمريكيّة على بعدين أساسيين هما: التحول من الاحتواء السياسيّ شعب السلمي الذي يتشدد للتفتيش والرقابة الدولية من خلال الأمم المتحدة، إلى احتواء عسكري عن طريق القوة المسلحة بصورة فريدة دون بناء تحالف دولي من ناحية أولى، والافتقار بمحاولات إسقاط النظام العراقي أو الإطاحة بالرئيس صدام حسين من ناحية ثانية. ويمكن القول إنّ البعد الثاني لم يكتسب أولويّة متقدمة بسبب الصعوبات التي تكتنف تحقيقه في المدى القصير على الأقل. وإنّ ذلك ظلت الأولويّة للاحتواء باستخدام القوة العسكرية بغطاء دولي إنّ أمكن توفيره، وبدون ذلك. أما الإطاحة بالنظام عبر التورط في حرب بره فإنها مهمّة شعبة مستحيلة بسبب تكلفتها البشرية الباهظة.

وقد واجهت الولايات المتحدة منذاً متعدياً الأبعاد في تعاملها مع العراق نظراً لاستمرار النظام، وعدم قدرة القوة العسكرية على إخضاع العراق أو التمكن من عدم تطوير قدراته العسكرية. فالقوة لا تكفي لحل مشاكل معقدة، والأسلحة الذكيّة لا تعني سياسة ذكيّة، والقوة العسكرية لم تمشّح للتخلص من النظام ولا التخلص من الأسلحة وإنما أثارت انقساماً دولياً وغضباً عارفاً في الشارع العربيّ يهدّد بعدم استقرار المنطقة. وقد جاءت انتفاضة الأقصى في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ لتضعف من الموقف الأميركي الذي يساند آلة القمع الإسرائيليّة في مواجهة الشعب الفلسطيني. وعادت إسرائيل لتتورط باعتبارها هي، لا العراق، الخطر الرئيسي على الدول العربيّة. وبناءً على ذلك أخذ نظامّ العقوبات في التآكل،

شاملة سلميّة للصراع العربيّ - الإسرائيليّ، والاحتفاظ بوجوه عسكريّ أميركي في الخليج العربيّ والمياه للجسورة، ودعم استقرار الأنظمة العربيّة المعتدلة، والاحتواء للزويج للعراق وإيران. وتركز الولايات المتحدة أنشطتها لمواجهة «قوس الأزمات الممتد من إيران والعراق واليمن وليبيا وأفغانستان، وتشمل هذه الأنشطة إجراء الاحتواء العسكريّ والفنق الاستراتيجيّ والعقوبات الاقتصادية، مع الأخذ في الاعتبار أنّ إيران هي التي ستشكل في المدى المتوسط التهديد الإقليمي الرئيسيّ بسبب تطوير قدراتها العسكرية خصوصاً صواريخ شبهاط ١ و٢. وقد دفعت الولايات المتحدة في اتجاه توسيع حلف الناتو شرقاً، وتبني فكرة الخطر الذي يأتي من دول الجنوب وخاصّة من العراق وإيران، وذلك كبديل عن الخطر السوفييتي السابق. وفي جميع هذه المراحل تمّ تنفيذ الاستراتيجية السياسية والعسكرية بديجات واعتبارات ثقافيّة وإيديولوجيّة تارة باسم صراخ الحضارات وتارة باسم «مصور الشر». وطوال العقد الأخير من القرن العشرين كان العراق يشكل هدفاً استراتيجيّاً أساسيّاً في الرؤية الأمريكية يذفي حصاره وعزله واحتوائه سياسيّاً أو عسكريّاً. فالعراق كان يسعى باستمرار إلى حيازة أسلحة الدمار الشامل، كما أنه يشكل أحد أهم مصادر تهديد الأمن الإسرائيليّ بتدخله طرفاً رئيسيّاً في العديد من الحروب العربيّة - الإسرائيلية، وبإطلاعه الصوريخ في العمق الإسرائيليّ أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١.

من الاحتواء السياسيّ إلى الاحتواء العسكريّ: تغيير النطاق

بعد انتهاء حرب الخليج ١٩٩١ بذلت الولايات المتحدة قصارى جهدها من أجل احتواء العراق بالأساليب السياسيّة من خلال الحصار الاقتصاديّ والسياسيّ وفرق التفتيش عن الأسلحة العراقيّة. وقد واجهت واشنطن التعلّم العراقيّ من استمرار

وتهديده الجيران، وعلاقته بالإرهاب. كما تمّ تجريّب الأسلوب العسكريّ في أفغانستان من خلال الحرب الجوية دون الحاجة إلى حشود بريّة، ومن خلال استخدام النظم العسكريّة الحديثة - وأهمّها القنابل الذكيّة والاعتماد على المعارضة. وتولّى الظروف الداخليّة في الولايات المتحدة أفضيّة مناسبة لهذا العمل العسكريّ الذي يُلعب نحوه بقوة صقور الإدارة الأمريكيّة في وزارة الدفاع ونائب الرئيس، معتمدين على نفوذ اللوبي الصهيونيّ، وتيار اليمين المسيحيّ القويّ داخل الحزب الجمهوريّ. وقد بدأ الإعداد سريعاً للمسرح الدوليّ والرأي العام الأمريكيّ والعالميّ من خلال الدعاية وأساليب الحرب النفسية. وبدأ العمل الاستخباراتيّ، وجسّ نبض المعارضة، ومغانلة الجنرالات السابقين في الجيش العراقيّ الذين يُعتبرون عنصرًا أساسيًا في أيّ تحرّك أمريكيّ - وبخاصّة الجنرال نجيب الصالحي الذي كان يشغل منصب رئيس أركان وحدة في الجيش، ويُعدّ من أعلى القيادات التي انشقت عن الحرس الجمهوريّ.

وعلى الرغم من كل ذلك فالهجوم الأمريكيّ ليس وشيكًا، بسبب ما يراه بعض المحللين من نقاط مخزون الأسلحة الدقيقة، وتركيز حلفاء واشنطن، إلى جانب الرغبة في ضمان أن تنتهي المهمة على النحو اللائق الذي يحقّق الأهداف الأمريكيّة. فإدارة بوش اتخذت القرار بالفعل وقررت إسقاط النظام العراقيّ. ولكنّ القرار هو مجرد خطوة أولى، ولا يعني بالضرورة أنّ الطريق نحو إسقاطه سهّل واضح للعالم. وإذا كان من الممكن أن تبادر الولايات المتحدة إلى هجوم عسكريّ متدرج من دون حاجة إلى تحالف دوليّ واسع، فإنّ هناك عوائق وفجوداً عديدة تعرقل ذلك التحرك. ومن هذه العوائق المعارضة الدوليّة الواسعة، حتى من حلفاء واشنطن مثل ألمانيا وكندا وفرنسا. فقد ورد في وسائل الإعلام الألمانيّة نقد حادّ لسياسة واشنطن عبّرت عنه صحيفة دير شبيغل في نهاية فبراير، حيث تصدرت غلافها صورة بوش بريشاش، وصدره

واستعداد النظام السيطرّة على جانب من عائدات تصدير النفط وتهريبه بوسائل مختلفة عبر دول الجوار. كما استعاد جزءًا من النفوذ السياسيّ الإقليميّ والدوليّ من خلال بيع النفط بأسعار تفضيليّة مخفضة لبعض الدول مثل الأردن وسوريا، ومن خلال فتح الأسواق أمام البضائع الواردة من دول الجوار مثل تركيا ومصر، فتشكّل شبكة واسعة من المصالح الاقتصاديّة اتّاحت له هامشًا أكبر للمناورة. وحاولت الولايات المتحدة ترفيع ثوب العقوبات المرفق من خلال اقتراح نظام جديد للعقوبات يسهّل وصول السلع التي يحتاجها المواطنون العراقيون، ويحاول - في الوقت نفسه - تشديد السيطرة الدوليّة على عائدات النفط، وعلى واردات العراق من السلع المحظورة التي يُمكن استخدامها في المجالات العسكريّة. وأطلق على هذا النظام اسم «العقوبات الذكية»، ولكنّ ماله كلّ الفشل الذريع بسبب المعارضة الدوليّة والإقليميّة. وتهديد روسيا باستخدام حقّ النقض في مجلس الأمن ضد القرار. وفي ظلّ هذه الظروف شهدت الاستراتيجية الأمريكيّة ارتباكًا واضحًا وانتكاسات بريئة. ثمّ جاءت أحداث ١١ سبتمبر لتعود الولايات المتحدة بروح هيوينيّة عسكريّة أكثر قوة، خصيصًا بعد ما بدا من مظاهر انتصار عسكريّ سريع في أفغانستان، ووجود تحالف دوليّ واسع ضد الإرهاب. فجاء الطرح الأمريكيّ الجديد الذي يركّز على مفهوم محور الشر، واعتبار العراق الهدف التالي لحرب الإرهاب، على الرغم من عدم وجود أيّة أدلة على تورّطه في أحداث ١١ سبتمبر.

الضربة العسكريّة المتوقّعة: الحدود والقبو

في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر جاء الطرح الأمريكيّ الجديد حول محور الشر ليبرّط الولايات المتحدة في العراق، ويُقرّر عليها استخدام القوة العسكريّة من أجل الإطاحة بالنظام هناك، والذرائع والمبررات جاهزة وتدرج حول تطوير العراق أسلحة نوويّة، شامل،



سيفي الإقليم العراقي موحداً ولكنه غير قادر على الخروج من قواعد اللعبة الأميركية

صفوف الجيش العراقي، ولكن النظام أثبت قوة غير عادية في السيطرة على الجيش والتحكم فيه. ويبقى سيناريو تقسيم العراق قائماً باللجوء إلى صف جوي مستمر يؤدي إلى تمرد الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب، ولكنه غير وارد نظراً إلى إدراك القوى الدولية والإقليمية للمشاطر الحقيقية لتقسيم العراق على استقرار الإقليم بأكمله.

والواقع أن المحتوى المحلي للسياسة الأميركية يؤكد أن العديد من التغيير الكامل للنظام أمر لا يتجاوز دائرة الاعتبارات الدعاية وحسب. أما مركزها الأساسي فيتحسن إنهاك النظام، وإرباكه، وإبقائه في إطار محدّد قواعده: الاتواء العسكري، والتعرض للدائم للضغط الخارجي والعزلة السياسية، وذلك من أجل عدم الإخلال بالتوازن العام في المنطقة. وعليه يبقى الإقليم العراقي موحداً، ولكنه مقيد وغير قادر على الخروج من قواعد اللعبة الأميركية. أما محور الشر فهو الحلاف الإيديولوجي والدعائي الذي يخفي جوهر هذه الاستراتيجية، ويحيطها بحاللة رقيقة من أجل استمرار سياسة الفداح والمناورة طبقاً لقواعد اللعبة السياسية.

القاهرة

أحمد التهامي

باحث في العلاقات الدولية في المركز القومي للبحوث الاجتماعية وله عدد من الكتب منها التكلفة الإنسانية للصراعات العربية.

نصف عالم، ورامته مريباً يحزام على غرار رامبو، ومن خلفه يقف معاونوه حاملين السيوف والبنادق وهم تشيني وهاول ورامسفلد ورايس. كما ظهرت انتقادات داخل مجلس الشيوخ والنواب حول استراتيجية الحرب في أفغانستان وبدء حرب عصابات ضد القوات الأميركية، وحول المواقف المتعصبة من الحلفاء الأوروبيين، وحول استخدام تعبير «محور الشر» الذي قد تترتب عليه عواقب وخيمة. وتشير المعارضة الدولية، وخصوصاً الأوروبية، إلى أن قادة العالم بدأوا يسمرون بحسبهم في إعلان الاختلاف مع السياسة الأميركية، وذلك بعد ستة شهور من العنجهية الأميركية.

أما الرأي العام العربي والإسلامي فتسوده موجة كراهية شديدة للولايات المتحدة أشارت إليها «غالوب» من خلال نتائج استطلاع للرأي في العالم العربي والإسلامي أظهر تنامي المشاعر العدائية للسياسة الأميركية، وأن الغالبية تعتبر أن أمريكا تسعى إلى تحطيم مراكز الإضمار التاريخية في العالم الإسلامي. وأما المواقف الرسمية العربية فهي تفصل الصمت أو تعلن خلاف ما تضرعه، لأنها تخشى من تقسيم العراق في ظل أيّة ضربة عسكرية للجيش العراقي. وقد عملت واشنطن على احتواء المشاعر العربية للتهبة بسبب المواقف الأميركية للمناصرة إلى إسرائيل، من خلال طرح مبادرة سلمية جديدة في موضوع الصراع العربي-الإسرائيلي.

وتبقى المشكلة الأكثر أهمية، وتتعلق بقدرة الولايات المتحدة على إحداث تغيير حقيقي في النظام العراقي أو الإطاحة برئيسه، خاصة بعد أن تبين في ضوء خبرة سنوات الحصار أن الرهان على انقلاب عسكري رهان خاسر. كما أن الرهان على انتفاضة شعبية رهان خاسر بدوره، فلم تعد لدى الشعب العراقي الرغبة أو القدرة على التمرد، وأصبح أكثر إدراكاً لمواقف القوى الدولية التي تتلاعب به ولا يريد أنها جادة في إسقاط النظام وأنها تكفي بإبقائه ضميماً مزقلاً. صحيح أن ثمة احتمالات تمرد عسكري في

جريمة بحق الإنسانية

تدمير مجلس الأمن للعراق مستمر منذ ١٩٩١

□ عمر نشابة

محور الشر والبعد عن الديبلوماسية

اعلنت الإدارة الأميركية مؤخراً أن «محور الشر» يتألف من كوريا الشمالية وإيران والعراق. وبسبب هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) لذلك الإعلان والتهديدات الأميركية الموجهة إلى قوى «الشر» (وإلى من يساندنها) بأن يعتمّ بغزو ويزعم إعلامي وسياسي لافت، وتهديد الإدارة الأميركية اليوم بضرب العراق بوجه خاص، وتُصفي على تهديداتها عنواناً جديداً ذا عبارات مثابولية وثقوبولوجية بعيدة عن السياسة والديبلوماسية. فالعراق بالنسبة إلى الإدارة الأميركية يمثل «الشر» وبمباراة «الله أكبر» التي اضافها صدام حسين على العلم لندل على إسلامية العراق قد تساعد الإدارة الأميركية على التأكيد للاميركيين وللعالم أن العراق السكلم يجب أن يمتد كما دُمرت افغانستان الإسلامية. ذلك لأن الإسلام والمسلمين، من وجهة نظر الاميركيين، امران مترابطان، بل مسؤولان عن نمار ١١ ايلول. وهذا يعطي «مصادقية» اميركيّة (وغربيّة إلى حد ما) لخطة تجرّيع العراقيين التي بدأت منذ مطلع التسعينيات وسازلت مستمرّة حتى اليوم، وتتخذ مظهر مجلة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

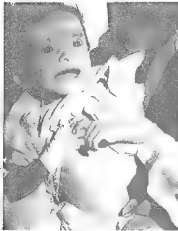
خلال الخمسين سنة الأولى من وجود منظمة الامم المتحدة قام مجلس الأمن، بناءً على الفصل السابع من ميثاق المنظمة، وفي عشر مناسبات مختلفة، بفرض عقوبات اقتصادية متفاوتة القسوة ضدّ عدد من البلدان. ولعلّ أشدّ تلك العقوبات هو ما فُرض على العراق. لا بل إنّ العقوبات التي فُرضت على هذا البلد منذ عام ١٩٩١ تبدو وكأنّها تهدف - أكثر من أيّة تجربة سابقة في هذا المجال - إلى تدمير البنى التحتية البشرية والمادية في هذا البلد.

في النص التالي ساقدم بعض النقاط التي تدلّ على حقيقة الهدف من عقوبات مجلس الأمن على العراق

السبب الحقيقي للعقوبات وإدراج العراق في محور الشر

تبكّت الأمم المتحدة مشروع عقوباتها المتكامل والإلزامي ضد العراق وفقاً للفصل السابع من ميثاقها، وكرّر مرزوم على الاجتياح العراقي للكوييت في الأول من آب (أغسطس) من العام ١٩٩٠. وفي السادس من ذلك الشهر أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٦٦٦ الذي يثبّت استيراد السلع من العراق وتصديرها إليه، ويحدّد ودائع الحكومة العراقية والمواطنين العراقيين في الخارج، كما أوقف كلّ العقود التجارية الجارية مع العراقيين والمؤسسات العراقية. ونصّ القرار نفسه على إنشاء لجنة عقوبات تضمّ ممثلين عن الدول الأعضاء في المجلس، وهنّأها الإشراف على تطبيق العقوبات بشكل كامل وصارم. وسرعان ما تمّ تعديل برنامج العقوبات وتوسيعه: ففي القرار ٦٦٦ أوكّل مجلس الأمن إلى لجنة العقوبات مهمة تصديق ما يعلّ «الظروف الإنسانية» ضمن موادّ القرار ٦٦٦ لتقليص فرص «التهريب» من تنفيذ العقوبات. وأمر مجلس الأمن بموجب القرار ٦٦٦/ ١٩٩٠ أن يتمّ شحن الأدوية والمواد الغذائية إلى العراق تحت إشراف المؤسسات الإنسانية الدولية بدلاً من المؤسسات التابعة للحكومة العراقية. ولتنفيذ الحظر التجاري بشكل كامل، أمرّ مجلس الأمن الدول باعتراض السفن للشحن الداخلة إلى العراق والخارجة منه، وتفتيش حمولة السفن المشبّعة باتّها تمارس التجارة مع هذا البلد. وتمّ مجلس الأمن أيضاً حركة الطيران من العراق وإليه، وتطلّب إلى الدول الأعضاء منع الطائرات العراقية من ممارسة حطّها في المغادرة (قرار ٦٧٠/ ١٩٩٠).

وقرّر مجلس الأمن، بعد أن اتّعى أنّ نظام العقوبات المفروض فشل في حصد النتائج المطلوبة لإخراج القوات العراقية من الكوييت، منحّ الدول الأعضاء حقّ استخدام كافة الوسائل لتحقيق ذلك الهدف بموجب القرار ٦٧٨. فاعقدت على العراق جيوش دول



الطفل العراقي زعيم
«محور الشر»

عينه تمنع إسرائيل في تطوير برامج أسلحة الدمار الشامل لديها، وفي تطوير برامجها النووية في صحراء اللقب، وتستمّر في خرق قرارات مجلس الأمن من خلال احتلالها المستمر لأجزاء من جنوب لبنان والجلولان وغزة والضفة الغربية، وتتلقّى مبلغاً هائلاً (مساعدات) لدعم مقرّاتها الاقتصادية والمؤسّساتية والخدماتية وتحديثها.

رفض العراق سياسة إزواجية المعايير التي يطبقها مجلس الأمن، فرفض الرضوخ للكامل للقرار ٦٨٧، ولاسيما المواد المتعلقة بتمهيد أسلحة الدمار الشامل التي (ريّسا) يملكها. ومع استمرار الرفض العراقي لا تزال نصوص الفصل السابع من ميثاق هيئة الأمم قيد التطبيق من دون تغيير جدي منذ عام ١٩٩٠.

ورغم العقوبات القاسية وسياسة التجويع والتصف الأميركي-البريطاني للقطع للعراق، ظلّت القيادة العراقية تُهذّر إسرائيل وتنادي بزلول الاحتلال الإسرائيلي عن الأراضي العربية (كما تنصّ قرارات مجلس الأمن)، بل راحت تؤمّن في بغداد - ثم تستعرض - جيشاً لتحرير القدس. وهذا هو السبب الحقيقي لاعتبار العراق جزءاً من «محور الشر»: فكلّ مرّة يعادي إسرائيل يُعتبر شريكاً أو إرهابياً ضمن المعايير الأميركية المائلة. وليس صحيحاً أنّ الأميركيين والأوروبيين حرصوا على احترام حقوق الإنسان في العراق، فهناك أمثلة كثيرة من أنظمة ارتكبت أبشع الجرائم بحق الإنسانية وحظيت بالدعم الكامل الأميركي (والأوروبي أحياناً)، ومنها إيران زمن الشاه وتركيا وإسرائيل وعدد كبير من دول أميركا اللاتينية الراسمالية الديكتاتورية القامعة للشبيبة والميسار عامة.

«التحالف» تحت أمرة العمّ سام (وهي جيوش مازالت منتشرة في الخليج)، وقامت بهجمات جوية وبرية وبحرية ضدّ المنشآت العسكرية والمدنية والاقتصادية العراقية، تبعها انسحاب الجيش العراقي من الكويت، ومع ذلك، لم يَحْزَ خروج القوات العراقية من الكويت دون استمرار للعقوبات، فما هو الهدف الحقيقي للعقوبات المستمرة على العراق حتى هذا اليوم؟

على الرغم من الانسحاب العراقي وتوقيع اتفاق وقف إطلاق النار، قرّر مجلس الأمن بموجب القرار ٦٨٧/١٩٩١ استمرارّ العقوبات على العراق. فبات واضحاً أنّ مطالبة مجلس الأمن بانسحاب الجيش العراقي من الكويت لم تكن سوى ذريعة لرفض هذه العقوبات وأبست هدفاً حقيقياً لها. وقد تجلّى إصرار مجلس الأمن على تدمير العراق إثر الانسحاب من الكويت، كما تبين أنّ أعضاء مجلس الأمن الدائمين كانوا (ولايزالون) قلقين إزاء التهديد الذي قد يشكّه العراق لإسرائيل، خصوصاً بعد انتهاء الحرب الإيرانية العراقية، أكثر مما كانوا «قلقين» على الكويت ودول الخليج العربية. وللاسف فإنّ الكثير من الكويتيين والخليجيين لم ينتبهوا إلى هذا الأمر.

أنهى مجلس الأمن أنّ العقوبات على العراق تنتهى حين ينقذ العراق العراق ٦٨٧ الذي يصرّ على ضرورة تدمير العراق لأسلحة الدمار الشامل التي قيل إنّّه يملكها، وحين يُمنَحَ بمراقبة دولية لتنفيذ التزامه صدمَ مصادرة إطلاق برامج التسلّح النووي - الكيمائي والبيولوجي. وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢ أُنقِعت الولايات المتحدة مجلس الأمن بإصدار القرار ٧٧٨ الذي يجعّد ما تبقى من المصائب المصرفية العراقية في الخارج، التي كان العراق يستخدمها لشراء الحاجات الإنسانية للملّة^(١) وفي الوقت

Eric Rouleau, "The View from France: America's Unyielding Policy Toward Iraq," *Foreign Affairs* (January/February 1995), pp. 64-65.

العقوبات خرقاً للسيادة وجريمة ضد الإنسانية

لُحق عقوبات الأمم المتحدة الإلزامية ضد العراق أدنى قاسياً بالشعب العراقي. ويُعَلَّم مجلس الأمن ولجنة العقوبات التابعة له معاناة الشعب العراقي المعائب منذ أكثر من عشر سنوات والمحروم من العيش في كرامة وسلام. وتحت وطأة الضغط الإنساني، ومع العرض الأول للصورة الفظيعة لمستشفيات الأطفال في بغداد، طلب مجلس الأمن من لجنة العقوبات تخفيفاً شكلياً لحدّة العقوبات على المدنيين العراقيين، وبمَنَح لها بإدخال بعض الاستثناءات على الحظر الشامل للفروض. وهكذا أُوْجِدَ مجلس الأمن مَخْرَجاً يقضي بالسماح للعراق بتصدير النفط مقابل شراء الغذاء والولازم الإنسانية الأخرى بموجب القرارين ٧٠٦ و ٧١٢.

لكن مشرّوح النفط مقابل الغذاء يخرق سيادة العراق لأنه لا يُسمَح بحرية تصرف العراقيين بأموالهم. فهو يَبْقَى السيطرة الخارجية على اللوارد العراقية، فيودع المبلغ المخصص لتزويد العراق بالأغذية والأدوية في حساب مصرفي في نيويورك بإشراف الأمم المتحدة التي تدبره. كما أنه يَحْصُص مبلغاً كبيراً من أموال النفط (التي كان يُفترض أن تكون مقابل الغذاء) للتعويض عن ضحايا الاجتياح العراقي للكوييت، كما يَحْصُص مبلغاً آخر لنفقات اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة والمشرّفة على نزوح العراق لأسلحة الدمار الشامل. وهذا يعني أنّ الشعب العراقي الجائع يضطر إلى دفع جزء من المبلغ المخصص لغذائه إلى العائلات

الكويتية الثرية، وإلى الخبراء العسكريين الغربيين كما أعلن الصليب الأحمر الدولي في ورقة كان قد قدّمها إلى الأمم المتحدة عام ١٩٩١، وأعاد التأكيد على معقوفها عام ١٩٩٩، أنه لا يُمكن للمساعدات الإنسانية للرسلة إلى العراق - مهما كبر حجمها - أن تؤمّن الحاجات الأساسية لـ ٢٢ مليون عراقي^(١)

أدت العقوبات إلى تدهور ملحوظ في الوضع الاقتصادي والاجتماعي والصحيّ للشعب العراقي، وإنهاء الاقتصاد أنهباً شبة كامل. فقبيل فرض الحظر، كان النفط يشكل ما نسبته خمسة وتسعون في المئة من عائدات العراق التجارية. أما الخدمات الطبية المميّزة وغيرها من الخدمات الخفّضة فكانت تؤدّى من قبل رعايا أجنبيّين. وتراجع الدينار العراقي من ٠,٦ دولار أميركي إلى ألف ومئتي دينار للدولار الواحد في نيسان ١٩٩٥. وبُليت نسبة التضخم، استناداً إلى (أسعار ذلك العام، ستة آلاف في المئة. وانخفضت الصناعة إلى نسبة متدنّية تراوحت بين عشرة وخمسة عشر في المئة من مستوى تشغيلها للمهود. وارتفعت نسبة البطالة إلى حدود السبعين في المئة^(٢)

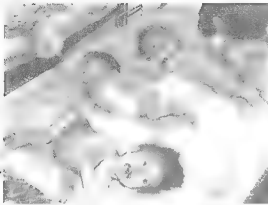
طلّت العقوبات شريعة الفقر بشكل قاس ومباشر، إذ ارتفعت أسعار بعض السلع الأساسية كالخبز والفاكهة والخضار عدة آلاف بالمئة على نحو ما أشارت أرقام برنامج الغذاء العالمي. أما فئات المهنيين والخبراء فوجدوا باجورهم تتآكل، واضطروا إلى بيع ممتلكاتهم الخاصة والعائلية للحصول على لقمة العيش^(٣). وهبط مستوى المعيشة إلى حد أنّ قيمة الدخل الشهريّ تراجعت

١ - ICRC, "Iraq: A Decade of Sanctions," www.icrc.org.

٢ - Reuther, "UN Sanctions Against Iraq," in D. Cortright and G.A. Lopez (eds.), *Economic Sanctions: Panacea or Peace Building in a Post-Cold War World?* (Boulder: Westview Press, 1995), p. 121 - 127.

٣ - ICRC, op. cit.

٤ - المصدر السابق.



ما الفرق بين الإبادة باستخدام الحرب، والإبادة باستخدام العزل والحصار والتجويع؟

عشرة سنة، وستان وثلاثون ألف امرأة حامل أو مرضعة - يواجهون خطر سوء التغذية الذي قد يؤدي إلى الوفاة بسبب العقوبات. وذكرت منظمة الصحة العالمية وجود نقص في الأدوية والأجهزة الطبية والمواد الغذائية وتكرير المياه والتعقيم^(٤)، فما لا يزيد عن عُشْر حاجات العراق من الأدوية متوفر للمرضى. وبعض العمليات الجراحية الصغيرة كانت تتم من دون بلع لعدم توفره^(٥). وذكر الصليب الأحمر الدولي أن المستوصفات الطبية تُقتصر إلى أبسط الأدوات الطبية ووسائل التعقيم، بل وإلى أوراق التتوِين أيضاً^(٦).

وأشارت الأمم المتحدة نفسها إلى أن ثلاثة وعشرين في المئة من الأطفال دون خمس سنوات يعانون سوء التغذية، وأن إعمال أجهزة معالجة مياه الشفة أدى إلى تعطيل هذه الأجهزة وتسبب بأمراض كثيرة - مصدرها المياه - كالسُّل والملاريا.

ودعت مجموعات بحث طبيّة بريطانيّة والمانيّة، إضافةً إلى منظمة الصليب الأحمر الدولي، ناقوس الخطر حول الأزمة الصحيّة في العراق. وفي ظلّ هذا التدهور، تشير الأمم المتحدة أيضاً إلى أن واحداً على خمسة من الطلاب يتأخر المدرسة بسبب النقص في المعدات والتجهيزات التربويّة ويسبب الصعوبات الماليّة

إلى ما يساوي دولارين أمريكيّين. ولإزالة الوضع يزداد سوءاً منذ ١٩٩١^(٧)، وإن ظهرت بعض الانفراجات المحدودة هنا وهناك من جرّاء التهريب.

وأنتج تدهور الاقتصاد العراقي ارتفاعاً مذهلاً في معدلات الجريمة، ولاسيما في المدن. كما أدّت العقوبات الاقتصادية على العراق إلى أزمات غذائيّة وصحيّة وتربويّة. فقد أظهرت دراسة نشرتها إحدى المجلات الأكاديميّة أن عقوبات الأمم المتحدة سبّبت ارتفاعاً كبيراً في معدل وفيات الأطفال في العراق منذ بدء الحصار^(٨). وهذّرت المؤسسات الدوليّة، بما فيها الصليب الأحمر الدولي، من أن خمسين في المئة فقط من معامل تكرير مياه الشفة ومعالجة المياه المبتذلة تعمل حتى اليوم. وفي الإنطار نفسه وجدت اليونيسيف أن ما لا يزيد عن خمس وعشرين مضخة مازالت تعمل من أصل مئة وخمس وثلاثين مضخة للمياه المبتذلة في البصرة^(٩). ونقل خبراء منظمة الأغذية والزراعة العالميّة (الفاو) أن العراق على مشارف مجاعة حقيقيّة في ظل الارتفاع الجنوني للأسعار، وشيخ للداخلين الخاصّة، وازدياد أعداد الفقراء. كما نقلت اليونيسيف أن ثلاثة ملايين ونصف مليون عراقي - بينهم مليون وخمسمائة وثمانون ألف طفل تقلّ أعمارهم عن خمس

١ - المصادر السابق.

٢ - Ascherio et al., "Effect of the Gulf War on Infant and Child Mortality in Iraq," *New England Journal of Medicine*, September 24, 1992, p. 931.

٣ - ICRC, op.cit.

٤ - Clark, "Sanctions on Iraq Take Toll on Children," *NY Times*, January 21, 1991, p. 22 (letter to editor); Gibbs, "A Show of Strength: Clinton's Charge Sends Saddam into Retreat, but Taming Him is Another Matter," *Time*, October 24, 1994, p. 34; "Easing of Iraq Sanctions Urged," *Christian Century*, March 1, 1995, p. 231.

٥ - "Down but Not Out," *Economist*, April 8, 1995.

٦ - ICRC, op. cit.

جريمة بحق الإنسانية

تدمير مجلس الأمن للعراق منذ تحرير

الشعب العراقي، وعلى تدمير بطريء للسند والقرى العراقية من جزء عقوبات مجلس الأمن.

لا يجوز السكوت عن أي مشروع إبادة يتعرض له أي شعب، أيًا تكن قيادته، وينبغي على دول الغرب التي تتباهى بتخلافيتها وإنسانيتها الكف عن استخدام مسألة حقوق الإنسان وسيلة سياسية تميز بازنواجية المعايير. فلا يجوز أن تعتبر دول الغرب إبادة الشعب العراقي مسألة تنحصر في إطار مكافحة الإرهاب، ويعتبرها الرئيس بوش حربيًا على «الشرق» العراقي، في حين أن الصميلة هي ملايين الأطفال العراقيين الذين يموتون جوعًا ومرضًا في المستشفيات، وبشرات الفلسطينيين الذين يُنبحون كل يوم على يد الجيش الإسرائيلي والعصابات الصهيونية.

لكن قضية أميركا على حقوق الإنسان «تزداد كل يوم، وإسرائيل» على تدمير «قوى الشرق» والإرهابيين» (والكثير منهم لم تندرج بعد اسماءهم في لائحة الإرهابيين المطلوبين لدى الپنتاغون)، يستدكان إلى حد طلب البيت الأبيض من العسكريين الأميركيين وضع خطة عاجلة للجوم مستعمل إلى السلاح النووي ضد الصين وروسيا والعراق وكوريا الشمالية وإيران وأببيا وسوريا.

ولكن ما الفرق، يا ترى، بين الإبادة باستخدام آلة الحرب والقنابل النووية، والإبادة باستخدام العزل والمصار والتجويع؟

بيروت

عمر دنشابة

كاتب لبناني، مُحاضر في مائة حقوق الإنسان في الجامعة اللبنانية - الأميركية، وفي مادة العلوم الاجتماعية في الجامعة الأميركية في بيروت.

الطفل العراقي ضمن محور الشر

مارس عدد من الدول الأوروبية ضغوطًا لإنهاء العقوبات على العراق. لكن الهدف الأساسي لعظم هذه الدول كان الاستفادة من التبادل التجاري مع العراق، لا اللق على مصير الشعب العراقي أو المحرص على حقوق الإنسان كما يدعي بعضهم.

وفي المقابل حرص الديبلوماسيون الأميركيون على جعل أمر خرق العقوبات من جانب العراق مهمة شديدة الصعوبة. فقد قال نائب ممثل الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة في إحدى كلماته: «لقد صمّمنا نظام العقوبات هذا على قياس ضئيل» [المقصود الرئيس هدام صميم؛ فلنن نعرفه جيّدًا].^(١) لكنهم لو كانوا فعلاً يُقرّون هدام حسين لعلمو أنه لا هو شخصيًا، ولا كل رجال السلطة العراقيين، يعاونون العقوبات؛ فكلّ الرسميين العراقيين يتهدّون بشكل جيّد. والأرجح أن ما كان يقصده نائب ممثل الولايات المتحدة في مجلس الأمن هو أن الشعب العراقي لن يتمكن من التهرب من حرب التجويع التي يشنها مجلس الأمن ضده، والمؤسف أن هذا الشعب غير قادر على ذلك حقًا.

تدعي بعض السلطات الغربية أن معاناة الشعب العراقي تُكرح عائدًا طبيعيًا أمام تطبيق نظام عقوبات متكامل وفعال وتجزم تلك السلطات أن النظام العراقي يسمى عن قصد إلى تشديد العقوبات وأثرها على الضعفاء لينبي علاقاته عالمًا عندها خدمة حملته التي تستهدف شرعية هذه العقوبات.

غير أن دور الحكومة العراقية وإجبتها، بغض النظر عن سياسة النظام العراقي، هما كدور وكواجب أي حكومة أخرى خاضعة للظروف نفسها: أن تسعى وأن تنادي بصوت عالٍ لإلغاء العقوبات على شعبها، فالأرقام والإحصائيات تدل وبشكل واضح على إبادة

هوس الشرف في غسق الجحيم الأميركي هيروشيما، ملجأ العامرية؟ رام الله وأرض البشر

□ لطفية الدليمي

هكذا سَأَلَبَ الناسُ ثروة من ضوء منطع، وسحباً ببهجة جزييرة طافية في الهواء بدرجة حرارة صامدة. سوف أُمْنَح البشرُ مصائرُ تُقْلِنهم من رياء للمضي ويوجع الذاكرة، وتقود ما يتبقي منهم إلى حظيرة الحرية. سيُقبِرون معي من الموت إلى الرقاد، ومن الألم إلى حرية الخرس. هكذا نُصْنَعُ سلطةً السلام ليمع الخبزُ عالمًا جاحداً أُنشِعه التفتُّنَةُ والفتحُ والسلاخُ فيطعنُ في غلغلٍ من طقوس الشكر أبراجاً للنار في ميثقي الكوزموپوليتانيَّة العظمى.

هيا، إنْ لم تساندوني فأبني كفيلاً بتحويل الأمل إلى حرب مؤبَّدة. سوف أُرْهِمكم مستقبلَ الكارثة، وأُطْعَمكم كعكة الشَّرِّ المرْفُشة بالبقواتِ عصري، كعكة لم تتذوقوها قبل سلطةِ الصورة وفخاخ الرمايا. سوف تتحولون من رهاب الحياة وإرهاها في بلدانكم إلى عقلة الموت اللامرئي. هي ذي نهايةُ التاريخِ الرثِّ لوصولكم المنقرضة. وستعترفون بأبوابتي الخيرة وبديوني بداية تاريخ جديد للعالم ينمو في قبضتي النووية. أنا مَنْ يُصْنَعُ النهايات والبدائيات والتحولات من حقبة إلى أخرى، وأنا مَنْ يُطْفِرُ ويُسَمُّ التأسيس الجديد على لحوم الأمم.

فأفتمنوا السلامَ المنزَّعَ عن إرهابكم، وتجولوا بين انقراض مايبكم وأطلال حصاراتكم البائدة وماضيتكم البهتِ الذي انقضى تاريخه وغيبته الزمانُ في الدوئاتِ الخرافية.

خُذُوا حركيتكم. فإنتم الآن أصرأ في قُصَم فُتاحة المستقبل إذا وارتبم جئتُ أوماكم وثقافاتكم اللطيفة ومضيتكم في مسار المعاصفة الضوئية، حيث يتطابق للعقول مع الواقع وتمتدُّ نهايةُ التاريخ في لحظتها المطلقة إلى ما لانهاية بعد انهيار الإيديولوجيات والبروتوكولات والتشكلات الزائفة لأحلامكم.

هيا اتفمسا معي في التسايل، وحركوا بذباتِ النضاح الأخيرة في زمن بلا حدود. ما لنتم تُرْثِنِي اُصْغَمُ لكم الحاضرُ في قنابلٍ وقبضة طحين، لتصفقوا في الخلود وتساندوني في نسج سلام العالم من خشفة الكائن ورصنه الواقع واحتضار التاريخ.

مفتونةً بياضها الكوني ومتطرفة في التائنس الشوري، تُشَلُّ أميركا عماء الصعاب في غسق حضارتها الأخير.

عصرها العنيف يبيدُ موسيقى الفوضى والخراب في أقاليم الشرق والعرب، ليُكسِّرَ الجنسَ البشريَّ إلى احتمالات الانقراض.

عندما تتحدثُ أميركا المستفينة في ١١ أيلول عن الشرِّ، تُهْمَلُ المغايرُ من كلماتها، وتُطْعَمُ الأفاقُ المالميةُ لعموشاً تُطْفِقُ ورامها أعلامُ الدول متبوعةً بصهيل القذائف.

تتحدثُ أميركا هنا وهناك مع نُصَبٍ ومومياءات تُزْطِقُ القولَ وتُصْنَعُ. تتحدثُ أميركا مع الأشباح، مع سَنَكَة مزيلين. فيُترْجم الحاضرُ العربيُّ في يومه اللربية، وتُسَمَّى أصابعُ أطرافِ الكويكبات على العينِ اللطيفة، وتُفْعَمُ الأصواتُ الوسانةُ بنبرة مُلْكَرَةٍ متوسكة:

... هَلْ كُفِفَتْ يا سَيِّدَتنا المباركة عن العبدية؟ بصينا نكملُ نومنا الشهيبي على نراح أحلامك. هَلْ تَرَكْتنا نَسْتَلْقِي في فرايس ممالكنا قبل زوالها ونملكُ توكيلاً إلهياً مؤبَّداً للمفعول لتتدبرَ عَنَّا شُرُوننا وشؤونُ العالم بكفالة ما تشتهين من الثروات والمناجم؟

وتُصْغِي أميركا في حديث الشَّرِّ اللثير، حاكمةً بأمر اللفاء. وتُتَعَالَى صاحبُ البيت ما بين كُفْيٍ بغداد وقلبِ رام الله. عنقذ تُطْفِرُ ذاكرةُ المقاومة أولاداً يترنحون ما بين الدم والحقارة، ورجلاً يُسْغُون نظريةً للشر من أول تاريخ الكهانة حتى شرافات هانتتفون ونوافذ فوكوياما الموصدة. تُطْفِرُ ذاكرةُ الأسمى، وذاكرةُ الرسالات والهدم بانترسجركُ تاريخ الأمم اللتئيب بدلائل من شهداء وأسمفر ومستقبل.

تقول أميركا في هنر للصعوق:

– الناس هنا ليسوا في حاجة إلى شيء سوى قنابلنا النووية الرحيمة التي ستهبهم موتاً مجانياً صاعطاً بديمقراطية فذة.

الناس ليسوا في حاجة إلى شيء غير واحة احتضان في بهاء الإشعاع الكبير الذي سيخشيء ما بين النهرين وودي رَم وما بين جبل الأرز وشلباب مكة وغربة الأمويين وودي اللؤلؤه وسَمَ مَرَب.

قرّخت في بلداننا وأجسادنا كوارث السلام لأنّ الحروب فقدت
دلالة المعنى وماتت اللغات بموت المدلولات.

هيروشيما صهرها نوويّةً ذاتية، والمصور الأميركي يلتقط صور
الحدث مهوّرًا بالنتائج.

يقول أحدهم:

«لم يكن امرأ عاديّاً. لقد مات مئآت الآلاف، ولكنّ أميركا انتصرت،
ولو طلبوا منّي اليوم أن ألقى قنابل هيروشيما، إنّني لفعلت من
أجل أميركا. وأيمت مئآت الآلاف من جديد.»

شمس القتل باهرة، والمدينة محيّطة بضخلة زرّ على جهاز إرسال
لاسلكي، أنّ سِلّ القنبلة لتفتّح بابّ الهجوم على مصاريحه الأميّة.

ضفائرُ النساء تساقطت على رصيف الموتى. كتسوا شعرُ النساء
وبسطُ الساحة، وحَبّكو منه ليلاً يابانيّاً حالِكا، وتوجّوا الليل
بجمجمة طفل مفزوع وقمر جريح.

فراغُ السلام لم يكن أبيض. فراغُ القنابل كان رماداً حاولوا إخفاؤه
بتلالر من زهور الأقصوان البيضاء. قطعان زهور مألحة ترعاها
فتيات عمياوات يُرضعن أطفالاً خرجوا للترّ من زحم سحابة الموت
النووية باظلالفر ونبيل. وعن قريب، امرأة تمرّتْ أحشائها وانسلقت
مع جنين تدرج على التراب الملح بالإشعاع.

من فنانين ملاحظات طامق طائرة إينولاجاي التي ألقت أول
قنبلة نريّة على هيروشيما

«... قال فيرني: بقي من الوقت دقيقتان - أوكي، لقد تلتّ منها.
وجلس أمام زناد قنبلة التائمة على جحيم محبوس.

كانت الطائرة على بعد أربعين ميلاً من الهدف لحظة إطلاق
الإشارة اللاسلكيّة. ولم يكن أحدٌ يُعلم ما سيحدث بعد في اللحظة
التالية. اختفى ضوءُ خاطف كالمسحاة نهاراً اتينا الجليديّة، وغمر هذا
الضوء للكان بأسره ثم انتشرت في السماء أشعة رهيبة ونفذت
حرارتها إلى قمره الطائرة مثل سيل جارح أعمى أنهزم فوق

مئتا إينيك بعلمة الظفر. مئتا أصابعكم من تقويب النعوش،
واشيروا إلى طرقاتي الساطعة. اصطفاهاً اصطفاً وراء دلالاتي،
ويشروط إنكاركم لإقامتكم العتيقة في اللّغة؛ فانت كائنات الصوت
والصدى والغياب.

اتيقوني... أو البها في ضلّة محور الشّر، وعندئذ لن تتلاوا مفترتي
ولا لقمة الزاد ولن تفرّوا حتى بلّدة النوم على شطاي قنابل حنون.

هيروشيما

كتب القائد الياباني جاساتاكي إكيري في تقريره عن رحلته إلى
هيروشيما مساءً قصفاً:

«عندما وصلنا هيروشيما كانت الشمس قد جنت للمغرب. ولكنّ
في اليوم الثاني كان يعلّم من المدينة ضوء مرّغ مخيف: إنّها
هيروشيما المشتعلة، ونيرانها تكس أضواءً قانية كالأضاء المرتجة
المصمومة بالخزان الأسود وهو يتصاعد من الأرض.

اختفى المطار تماماً، وشاهد رجالنا المصلّون فوق أواكوني
الانفجار الرهيبة على مبعدة ضمسّة وخمس مئة كيلومتراً. فقد
أرسلناهم لنجدة القوات ولكنهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى
هيروشيما لأنّ اللهب طوّق المدينة من كل الجهات وعابوا وقد
احترقت جلّوتهم.

وفي الصباح التالي اقتحمنا هيروشيما ولم يعد هناك أي شيء.
كان العدوّ يطلّ الزمن الجديد.

أفنت القنبلة هيروشيما، ولم يتبقّ في الفضاء بعد رحيل نبتة الفطر
النووية العملاقة سوى مخرشات عشرات آلاف الضحايا التي
تجّحت من غوث ومنقذين. واخطط رمادُ المباني بالأجساد المحترقة.
والثوت عظامُ الضحايا، وأصوت الأثرع، وجفّ الماء من المدينة،
ولبت الضحايا يحترقون أحياءً ويكفون على موتاهم. ثم جرى
تدويرُ الأحياء، وتبيّرت الجثث صفوفاً صفوفاً حتى نهاية للوت.

هيروشيما التي سبقت، هيروشيما التي بقيت، هيروشيما التي



البطولة الأميركية في هيروشيميا: مئة وثلاثون ألف ضحية في اللحظة الأولى

فضيحة للعصر ما بعد الحداثي. وأميركا مُنكّلة الآن بتطهير الأرض من البشر والفضيحة، مثل رسول دجال يرى العالم بعين واحدة، ويُطلق رصاصة الخير على فصيل الأشرار الذي يشكل ثلثي سكان العالم. ويعضّ مكا، نحن العرب، هنا وهناك، في البلاد التي تتأخى في التصريحات مع جنرالات السلام والخير، يتوقون إلى النجاة بإعلان البراءة من الصهاة، وإعلان البراءة من القيعاء وإعلان اليأس من جذورهم وعصر الظلام، ويتوقون إلى إنشاء مستقبلهم الغامض بين أصابع الحلم الذي تهاوى.

العاصرية

الساعة تشير إلى محاق الهول الأخير. البلاد في محاق القمر. القمر يغفو منسجماً إلى رمانه وينام على سادة من أحلامنا المسروقة وأسماء موتانا. الموت يخلعون فوق جميع النصف. سبعون ساعة من النصف: هل بقيت السماوات سبياً طاباً؟

الأبواب تتسائل من رجة الانفجار:

- هل لديكم معاطف وأقنعة من الخلوة؟

يصرخ جلعاش من وراء مياه الموت:

- هل تملك الصغار مرميماً ضد الدود، أو طوافاً مطاطية ضد الفرق في الدم؟

تقول له البنت الصغيرة التي تساقط شعرها بالعلاج الكيميائي:

- اكثري يا هم جلجاش أنهم ابتكروا براقي البورانيديم؟ أتري ما أخمل بيدي. لقد باعت أمي قميصاً أبي الميث لتشتري لي مرآة تأخذني إلى المستقبل.

- الأشجار تمتص الليل بدل الأكسجين، وتخزين النجوم في جذورها. المسقوف تصير شفاة لفرط الوميض. السقوط تسمى وثايفتها فتتضامن معنا، ولا تترك أهدأ الخوف بالإنجاء علينا إذا داعبها فذيلة لامة. أين نهرب من مسقوف لا تدير اللعبة كما ينبغي لبيبر عزلاء إلا من النصوص؟

سملح الطائرة واقتصمها. لم يكن هناك أي تفسير: فلم يسيق لعين بشرية أن رات مثل هذا الجهم.

وكتب الكابتن لويس مساعد الطيار:

«... إنني أتمنى بينما نلصق هدفنا بالقفلة، أبحث عن الكلمات فلا أجدها. همست: يا إلهي ماذا فعلنا؟ إذا ما عشت مائة عام فإن تُسمى من ذاكرتي لحظات للجميع هذه...»

لقد أصبنا بالعمى، ولم نستطيع رؤية شيء لشدة الومج، مع أننا التقينا القفلة من ارتفاع ستة آلاف متر. ثم رأينا ما لا عيّن رات وسعنا ما لا أدن سمعت. لقد حدث برق مرعّج إثر الانفجار، ثم ضوء خاطف، وظهرت هيروشيميا مثل بحر هائج من الانسفلت اللطفي. وبعثت سملح مدينة هيروشيميا مثل بحر هائج من الانسفلت اللطفي. وبعثت سملح فكرت بأمر تلك الخزائير المسكينة التي تلتهما الكارثة تلك اللحظة.

الخزائير للمسكينة التي فكر بها الأميركي «الطبيب» كانت مئة وثلاثين ألف ضحية يابانية احترقت في اللحظة الأولى، ونثروا رمان الضحايا على شرف البطولة الأميركية في ساحات الألم.

وقال الرئيس الأميركي ترومان:

«... لقد جهّنا القفلة الذرية إلى أولئك الذين اعتدوا علينا دون سابق إنذار، وضدّ من لم يقرّموا القوانين الدولية، لنصمى الآلاف من الشباب الأميركي، ونخرج من الله أن يوفّقنا لاستخدام القفلة الذرية في هدفنا المحدد...»

الخزائير اليابانية - التي احترقت في مدينة توكيو - كانت في عريف الأميركي الخبير كائنات دنيا لا يُحسّر بها أن تحيا في عالم واحترم الأميركيان السويبرمان. الياباني، وكذلك العربي والمسلم، العراقي والفلسطيني والأفغاني والفلبيني والمصري والليبي والسوري والصومالي والصيني والإفريقي والكوري، إنشأ هم كائنات رقيقة لا وجود لها حقيقة على الأرض، وإنشأ لها موقع مُسّع في الآخرة - اعني الصحيح، لأنها كائنات شريفة يشكّل وجودها على الأرض

هوس الشر في غسق الجحيم الاسمي

هيروشيما، ملجأ العامرية؟ رام الله

أستمع أثنى تنوح على الوارثين. الصواريخ الفاتكة ميراث ألف عام من الفلسفة والديمقراطية. وأثنى تنوح على الوارثين. أين بيانات أرسطو؟ أين عبادة افلاطون، وكأس سقراط الأخيرة؟

للنفس السبع المقصوفة تتفطر في فضاء اللهيب. زوايا البيوت تتفلق على عثمانياتها وتطوي الجدران على كنوزها، حيث خُبنا الواح المعرفة ونصصنا المخطوطة ورسائل الحب وبيانات الغد ولوائح الموتى وصور المهاجرين وتذكارات الصبا. تتفلق الزوايا على وثائق وجودنا قبل أن تقع الواقعة.

العامرية ضحكة اليورانيوم

قبل يوم أو اثنين، ربما بالأمس في ١١ شباط ١٩٩١، حوِّمت الطائرات الأميركية فوق حي العامرية - حيث أقيم. حوِّمت طوال النهار، ولم تُلق قذائفها. جحيم الطائرات يدنو من قمم النخل وأسطح البيوت - تنور الطائرات حينها فوق الملجأ. يربُّها من شارعنا، ومن باحة مسيح الرشيد، أو من سطح مدرسة سعد بن معاذ. تنور خطأ، ثم تحطفي وتغيب. لكن الموت كان يتحاشى في الذنائب المؤجلة. تصير النساء والصغار في المركب الليالي في الطرقات المظلمة إلى ملجأ العامرية، وهم يُغفلون البرق عن أجسادهم. لكن الرقعة تجري في الجوارح، لا من يهربل من تفلح الموت عند كل خطوة وهدير. القصف لما يبدأ بعد، ولكلهم يصلون الملجأ. وعند الباب يوصمون فكرة الموت على حافات الطريق، يذبونها مع أعقاب السجائر وقشور البرتقال.

في الساعة العاشرة يُخيون حفل عيد الميلاد لفتاة في الخامسة عشرة. يرقصون للشموع على كعكة العيد، وتوزع الأم قطع الطوى، ويُقرَّب فتى جليل على الأورع أغنية «طولي يا ليلة». زغاريد وخافز وحسوس. والأشياء تزكّن البنات والأولاد وهم يسكبون الضحكات في جوف الملجأ المضاع كأنها التينيين تسيل من أعالي الحياة. تنفي الطائرات على متن الظلام، ويقادأ وحشة يلا كهرياء.

- عند الانفجار العاشر يتصدع جدار. ينهمر زجاج. تتفلق الأرض، وتسري وربة كالدخان. نفر ضاحكين لفرط الهلع. الروح تهجئ السؤال بين الجدار المطور وصدى الانفجار:
.. هل نعرفون لماذا كُتِ الموت ولا نعرف؟

لا أحد يُعنى بالإجابة، فكلنا نعلم أننا الوارثون!

سيمون وقتاً للقتل. خمسمائة غارة. مائة ألف فرصة للتخطف من الجسد والتحوُّل إلى مياكل من طباشير تنتبّ البيضاء على أروقة الأمم. خمسون ألف اقتراح لمساير عصرية تُدخل إلى دوراتنا الدموية فتُزفر شاهداً نترن وخام وكاليل من زئبق مدني.

يقول الأميركي الأشقر للأميركي الأسود، وهو يلمس الجسد المملح لصاروخ مهتر للإطلاق من سفينة في بحر العرب:

- التمس في الحماق. حسناً منفضي، ليهم بملابن الدولارات الحارقة. هل تكفي مائة صاروخ ليلية واحدة؟

- اظلمها تكفي. أجل تكفي لإضاعة المدى بين درب التبانة ونهر الفرات.

- لعلها تكفي. دع المتبقي من الذنائب لنزهة تالية فوق برج بابل وبيّات ينوي والقصر العباسي.

الآن، وفي كل أن، كان للزمان أن يبقى. تهر أميركا جبيلة الهندي الأصغر وجلة رأسه للديبورغ على عصا من الالكتروم. ثم تضع قدميها على ظهر الصحراء ولسان العرب.

تقيم سراقداق ملكية لقادة الموت، تحرسها قوافل من كائنات الرمال. وترسل قاذفاتها على فواد لها محرّكات إلكترونية مركبة في راس جمل من طراز باترويت مجهزة إلى بغداد.

ابنة الجيران يُكسى على صمها في انفجار آخر الليل، فلا تقوم من تلج جسمها. شفيرة صغيرة تنام في زهرة الجوري على صدرها. دعوها.. فعيناهم مفتوحتان على بياض النهاية.



يخترق الصاروخ سقف المدجج وينفجر، باندا فاجعة «العامية»

بالدهور العتيقة والكوارث المصائب، لم تتربط الأرض بالدم؛ فقد جف كل شيء، وتيسر واسود كل جسد، وتفككت الأحداق، وقطع الوقت بالعار الدرامي.

من العامية إلى رام الله

فاضت أرواح الضحايا نحو الاعالي، كنت أحلق معها. رايت كل شيء، رايت البحر والرياح تدوم حول المدن وتلها بدوامات من غبار وأشداو يرتقل، وكما ارتفعنا في فيوض أرواحنا السديمية كنت أكتشف أعجوبة جديدة. رايت الظلمات الأميركية تُحذف على الكوكب الأرضي، بينما يتقدم النهار على النصف الآخر. ثم شاهدت الطفان والبراكين والحرائق. رايت معهم في الفضاء الطوي الأرواح كثيرة تنفجر على بؤس كوكبنا. راينا ما راينا، ثم أبصرنا أطفال القدس يجتمعون الحجارة المسجّل من انقراض الحضارة ويُقرون على قتل مدججين بالخوف من سجيل الأمل.

ثم راينا أطفالا يقومون بخفة الرثيا من صبرا وشاتيلا وفانا وتل الزعتر، والخليل. ونهض صف طويل من البشر من رام الله، حتى ارتفعت السماء بأسراب الأرواح الراحلة إلى الاعالي وهم يُشعلون المراتي للكوكب الرامي.

كنا نلير والقذائف تلاحقنا، والصاروخ العابرة القارات تتبع مسارتنا متوسمة أننا نقره في الهواء اثرا حاريا يمكن أن تقتفيه عقولها الإلكترونية، وكانت تنهاري في الفراغ ورانا.

قام أطفال من كل بلاد الشرق المهودرة الدم. لحق بنا أطفال من كابول، وأطفال من الشيشان، وأطفال من تيمور الشرقية، حتى سدت جمر الأرواح أفق الأرض، وتيمنا سرب صفائر من كلهم. وأخطت الليل بالنهار، والشرق بالغرب، في أوبة القيامة الطفولية.

كنا نحقق من اعالي الجور، ونرى الحروب تتقدم في العاصري مثل الضواري المعما. كنا نرى المصائم تدر إلينا وتُشمسي بأرواحنا التي آلت إلى غمام.

وهيه الموت، ويموت الموت، لكننا نُقدح شرر الوجود من شمكاتنا وأعبى الشرطنج الحراس يدخلون قلعة الشرطنج مع الفتيان العاشقين. لدى برآة اللجج، تنحني البنت على حيرة اللاعب الجميل، وتكنس ملك الموت عن فئي أيقظ فيها الفراديس، ثم تُعطي الفيل في بهجة العرس. وقبل أن تُشمسي إلى هناك، نلقي إليّ بكتاب الأمل.

تجيء الضواري

تجيء طائرات الضواري الأخيرة وتُلق في الساعة الرابعة فجر الثالث عشر من شباط ١٩٩١ صاروخا يُطلق عن قنبر ليزري لرامي يخترق سقف المدجج، لهُدث عصفا هائلا تُغلق بفعله أبواب اللجج الفولاذية العملاقة. ويمر الصاروخ الثاني من خلال الفرق الذي أحده الصاروخ الأول، وينفجر باندا فاجعة للعامية. يبتئ جميع علامته «صنّع في الولايات المتحدة»، ويجري تصويله عبر المتاجر العالمية والعربية. موت، جميع، خراب، فناء، جث وأشلاد، دم وأعصاب، لحم متناثر لاربعانة شخص أو أزيد قليل (فقد مات عشرات الناجين بعد أيام). أجساد احترقت وانتفخت متفجرة لتلتصق بالجدران، ودرجة الحرارة بلغت الألف من الدرجات المئوية. مصهور نوي يغلي أذاب كل شيء: أذاب الأسمنت والأجسام الصغيرة، وتلصحت الأخرى في الحفرة أو نضجت في الرجل الجحيمي.

الموت كان متجلا وهو يُشر وجهه الكثيرة في زوايا المدجج. فقد حدث بوصلة القصف وتوقيت الفاجعة، وعقد أنقادا داميا مع أميركا، ورس لها - ومعا - شكل الحرق، ونُد عهد الوحشي بالتمام. تحالف الموت للبت مع القاتل البت، ولتتسما الزمن.

انخدع الموت بخطته ذاتها. انخدع بها حتى آخر قطرة دم وإلخه نفاخ انفجر على جدران المدجج.

انفجر الليل عن جهنم من ابتكار أميركي، وانفجر الوقت، وتناثرت الشواني مع الدم. مات الزمن. في لحظة الصق تفسر الليل

هوس البشر في نفس الحقيقة هيروشيما، ملجأ العامرية؟ رام

ويُصرّخ الأسرى الرقوميون باغتياباتهم ومصير الأعين.
تؤنس أميركا القتل، وتسلم مفهوم الشر، وتؤمل الإرهاب،
وتؤلفن للعراق، وتطعن الجريمة، ويشهر حكماً صهيونياً لثالث
البروتوكولات منظرين العصر بتحقيق الرصايا.



خلاصة حديث الشر هي شر ما يقال. وشر ما يقال هو أن الشر
شرق يفيض من جهات الشمس ويشير إلى بداية تاريخ القهر مرة
أخرى رغم غسق النهايات الهيجلية.
فهل نحن أشراؤ بامتياز مغاومين للفاشية الجديدة التي تفتزم
الترويج لديموقراطية الموت بالأسلحة النووية؟

إن أمركة الأرض هي آخر مرحلة أو طابعة للفاشية الديكتاتورية التي
لا تسمع سوى خضخضة الأكفان وحشرجة الموتى. إنها نهاية تاريخ
الانطباع، وبداية تاريخ المشروع الذي لا تاريخ له: مشروع صياغة
العالم على وفق شهوة حنفر كل ثقافة وكل فكرة وكل مقاومة
لينفخس العالم في سيولة دفاق دولنا وبوصلات أو نجمة قطب. هذه
هي بداية الفوضى الشريفة – عندما تُغنى كل النظريات، وتُسقى
كل المشاريع، من أجل طرح فكرة الدولة العظمى الواحدة المُضمعة
للامركة التي تقتصر مراع ومراير بعروبيها وأوامها عن خير مطلق
تلتصق إليه دول الغرب وعن شر مطلق تدب به دول الشرق
وحاضنات الإسلام والقويّات والمقاومة.

إن مقولة أحد صانعي الجديا الأميركيكان حول ضرورة أن تبقى
أميركا في قمة العالم يُكلمها قول آخر عن أهمية اجتثاث كل نزع
قومية باعتبارها عَرَضاً لمرض نفسي يُدعى علاجاً بالجراحة.
ليُكرج الجميع في مدى مركزية تقاس بمعايير واحدة.

يفداد

لطيفة البليمي

روائية وقصاصات ومبدعة عرافية.

مرنا فوق ناهي وكوالالامبير، ومضينا إلى نجمة القطب. ثم
دفعتنا أمواج خفيفة نحو القاصي الشمس، فرائنا بركان فوجي
ياما... لا إنها هيروشيما التي تشرق. استمدنا وعُدنا إلى
فضاءات بلادنا، وانصدنا جنوباً نحو بحر العرب الذي تعوم فيه
البوارج الأميركية، وإحداها ثلثت النيران من ثغره في جانبها وقد
توهمت وجوه جنة عدن هاهنا، لكنّها برقت بجميمات الثار.

رائنا ما رائنا، ورائنا ما لم يحدث بعد. وكنا نرى الأحداث تأتي
من الغيب مكتملة بالأسباب والظوائف. فلم نشأ أن نفهم. لأننا لا
نرى أن نكتر حيزونا الروحي ونحن نطوف فوق عالم الحروب
والطوفان والحرائق.

الساعة لم تُخطئ

بل نترننا الساعات بخاطر قادمة. حروب الإبادة تتواصل، والقتل
الابديون يُحرقون مرايا الموت إلى ذاكرتنا. والصفاء يتكررون
ويتكاثرون في الحياة والموت ما بين بغداد والقدس ورام الله وبيت
لحم وبيت جالا وقزرة. مرايا الوجود تكررهم في كل مدينة، ملغما
تكرهم غرضات الموت. والساعة ما الخطأ أبداً، إنما هي تدق بقنفا
المثيرة لتوقظ من ينام على الخنيفة. نُذره بما لم يحدث بعد لا يُأسنا.
يمر صف من شباب مصصوبي الأعين وقد وَشَم السجانون
الصهاينة على أذرعهم أرقاماً ووقعا تحتها باسم معظمهم هنتر أو
تلميذ شارون، وساقهم نحو السجن أو المحرقة.

يمرّون الآن في رام الله، وكثّلمهم أسيرة خرافة الهوساوكوست.
يساقون إلى معتقل أوشفيتز: فالخرافة صنعت كتمطيق على سواهم
فيما بعد... والأسطورة أزلحت من أمكنة وأزمنة لتسهيل في أمكنة
وأزمنة أخرى.

المقاومون للرقوميون يمرون على الشاشات وقد رُبطت أيديهم وراء
ظهورهم على طريقة أسرى غوانتانامو. في الجهة الأخرى من
شاشات التلفزة يرجع الآخرون مرفعين جباههم في تراب التسويات،

أرقام الآداب

إعداد: لدش.

نسبة الميزانيات العسكرية لدول ومحور الشرّ مجتمعة، إلى الميزانية العسكرية للولايات المتحدة وحدها: ٤٨,٦ : ١

النسبة المئوية من الصراعات الدولية الحالية التي تُشنّ بأسلحة أميركية: ٩٢٪

المبلغ التقديري الأدنى للأسلحة التي أرسلتها الولايات المتحدة عام ١٩٩٩ إلى دول تنتهك حقوق الإنسان انتهاكاً صارخاً: ٧,٦ بليون دولار
عدد منتهكي حقوق الإنسان الذين عُيّنوا في مواقع عليا في الإدارة الأميركية بعد طرد أميركا من مفوضية حقوق الإنسان في الأمم المتحدة: ٣

العدد التقريبي للإيرانيين الذين قُتلوا على يد الشاه المدهوم من أميركا في عام ١٩٧٨ وحده: ٤٥,٠٠٠

العدد التقديري للمدنيين الأميركيين الذين قُتلهم «إرهابيون» أجانب منذ عام ١٩٦١: ٢٦٦١

العدد التقديري للمدنيين الأفغان الذين قتلهم أميركيون «بثأرون» لأحداث ١١ سبتمبر خلال ٥ شهور من قصف أفغانستان: ٣٦١٢

المبلغ الأدنى الذي دفعته CIA لكل قائد عسكري أو إداري دعمها لتنفيذ انقلاب عام ١٩٥٣ ضد مصدق: ٥٥٠,٠٠٠

نسبة العجز في الميزانية الإيرانية الذي تفت نظفيتها بيع امتيازات لشركات نفطية أميركية: ٩٦٪
السنوات التي ضمن حكم الشاه لادعائها الهيمنة الاقتصادية والعسكرية الأميركية في الشرق الأوسط: ٢٥

الأيام التي احتجز خلالها ٥٢ أسير كويتي السفارة الأميركية عام ١٩٧٩ في طهران: ٤٤٤

المبلغ الذي قدّمته CIA لوزارة الدفاع الإيرانية لوقف إطلاق النار مع العراق: ١٩٨٠
عدد الحروب التي خسر فيها أميركا: ٢

عدد المدنيين الكوريين، من أصل ٣٠ مليون كوري، الذين قُتلوا بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٣، بسبب القصف الأميركي: ٣ ملايين

عدد الماسي المائلة لـ ١١ أيلول التي كان من تساويها القويان الشيوعيين: ١٩٥٠ و ١٩٥٣
عدد الماسي المائلة لـ ١١ أيلول التي كان من تساويها القويان الشيوعيين: ١٩٥٠ و ١٩٥٣

عدد الماسي المائلة لـ ١١ أيلول التي كان من تساويها القويان الشيوعيين: ١٩٥٠ و ١٩٥٣

عدد الماسي المائلة لـ ١١ أيلول التي كان من تساويها القويان الشيوعيين: ١٩٥٠ و ١٩٥٣

عدد السنوات بين تأميم العراق لنفطه وانسحابه من العراق: ٣

عدد السنوات التي قُتل فيها أميركيون في العراق: ٣

عدد الشهور، قبل غزو الكويت، منذ انقضى العام في أميركا أي تحقيق في استخدام العراق النفط كذاتالية الأميركية المخصصة لشراء الغذاء، من أجل بناء ترسانته العسكرية: ٦

النسبة المئوية من النفط الأميركي الحالي القادم من العراق: ٢٥

المبلغ الذي تخصصه الأمم المتحدة لكل فرد يومياً لتغطية جميع حاجات الشعب العراقي (الدوائية والطبية...): ٣٧,٥٠

عدد الماسي المائلة لـ ١١ أيلول التي يجب أن تحدث شهرياً لتعادل عدد الأطفال العراقيين الذين يموتون شهرياً بسبب العقوبات الأميركية: ٢,٢٥

نسبة الأطفال في العراق وفي كوريا الشمالية الذين عانوا سوء التغذية آخر التسميعات: ٣٢٪ و ٥٧٪

عدد البلدان التي وقعت ميثاقاً للأمم المتحدة يُقر بحق الإنسان الأساسي في الطعام، ولم توقعه أميركا: ١٣٩

نسبة ما تقبّره المنظمات الإنسانية للخارج، إلى ما تصرفه أميركا على مساعدات شبيهة: ١ : ١٠

عدد المرات، منذ الحرب العالمية الثانية، التي فرضت فيها أميركا عقوبات اقتصادية من جانب واحد: ٩٢

عدد المواقف أو الاتفاقيات الدولية التي ألغتها أميركا عام ٢٠٠١ أو علّتها بالذلة: ١٣

من بين ٣ قرى إقليمية (السعودية وإيران والصين) وكان يسكنون و كيمسجر قد ساعدها على النمو، لكي ولا تجازف أميركا بتدخلات في ما وراء البحار، العدد الذي مازال يؤدي هذا الدور اليوم: ١

إعداد: لش.

- 1 + 16) BBC, "Analysis of 'Axis of Evil' capabilities," Feb. 13, 2002, <http://www.bbc.co.uk>.
- 2+3) Federation of American Scientists, "Facts & Figures," <http://www.fas.org>.
- 4) **Al-Adab Research**: John Negroponte, Otto Reich, and Elliott Abrams.
- 5+18) Ramsey Clark, "Fire and Ice", International Action Center, Jan. 10, 2002, <http://www.iacenter.org>.
- 6) US Dept. of State, Office of the Historian, Bureau of Public Affairs, Oct. 31, 2001, <http://www.fas.org>.
- 7) Marc Herold, "Update to Appendix 4 - Daily Casualty Count of Afghan Civilians Killed in US Bombing Attacks, Oct. 7 - Present Day," Feb. 12, 2002, <http://pubpages.unh.edu/~mwherold>.
- 8) "CIA History of Operation TPAJAX," ed. Malcolm Byrne, National Security Archive, Nov. 29, 00, <http://www.gwu.edu/~nsarchiv>.
- 9) U.S. Library of Congress, "Country Study - Iran," <http://lcweb2.loc.gov/frd/cs/irtoc.html>.
- 10+14) Gilder Lehrman Institute of American History, <http://www.historyonline.com>.
- 11) **Al-Adab Research**
- 12) Robert Parry, "October Surprise: Finally, Time for the Truth," The Consortium, <http://www.consortiumnews.com/archive/xfile9.html>.
- 13) Zoltan Grossman, "From Wounded Knee to Afghanistan," Internet's Progressive Gateway, <http://www.igc.org>.
- 15) Robin Miller, "Washington's Own Love Affair with Terror," Znet, <http://www.zmag.org>.
- 17) John M. Swormy, "North Korea: The Land Americans Aren't Permitted to Know," in **Humanist**, May, 1999.
- 19+20) Russ Baker, "Iraqgate: The Big One That (Almost) Got Away; Who Chased it - and Who Didn't," **Columbia Journalism Review**, March/April, 1993.
- 21) Energy Information Administration, Department of Energy, <http://www.eia.doe.gov>.
- 22) Hadani Ditmars, "Iraqis Fear it Can Only Get Worse," **San Francisco Chronicle**, Feb. 14, 2002.
- 23) World Trade Center & Pentagon Memorial, <http://www.WorldTradeCenterMemorial.com> and Ramsey Clark, op.cit.
- 24) UNICEF, Nov. 1997, <http://www.unicef.org> and Nicholas Eberstadt, "Disparities in Socioeconomic Development in Divided Korea," **Asian Survey**, Berkeley: University of California Press, Nov. - Dec. 2000.
- 25) Committee on Economic, Social, and Cultural Rights, "The Right to Adequate Food (Art.11) : 12/05/99. E/C.12/1999/5, CESCR General comment 12," United Nation Human Rights Website, April 26 - May 14, 1999, <http://www.unhchr.ch/tbs/doc>.
- 26+28) Richard DuBoff, "Rogue Nation," Znet, Dec. 21, 2001, <http://www.zmag.org>.
- 27) National Association of Manufacturers, <http://www.nam.org>.
- 29) Gilner Lehrman Institute of American History, "Détente," <http://www.gliah.uh.edu/database>.

كتاب الخبر والحب

• عبد الإله عبد الرزاق •

لقد تمّ كل شيء بهدوء. جاء بمُشتَرٍ بسيط من شارع المتنبي، وقف الوسيط طويلاً أمام المكتبة الضخمة، وظلّ يتأمل عناوين الكتب. كان يقرأ عناوينها بترؤّ عنواناً عنواناً، يقلّب بعضها، يضرب على أغلفتها الجليدية والكارتونية بإصبعه ضربات خاصة كما لو أنّه يُفحص أنبى زجاجيّة. كوّم بعضها على الأرض وترك بعضها في رفوفها دونما ترتيب، ولم يتوان في أن يدوس على بعضها بهذاه المُفْزِع ليعلم بجسمه قليلاً فتحتها له رُؤية الرّف العلويّ. كان يعلم أنّه ما يزال يدوس عليها، وكان يصل إليه شيء من كلمات التحذير من اللبانع. اصمّ انذنيه، وأشاح بوجهه عنه كما لو كان الأمر لا يعنيه بشيء؛ فالهمّ أن يتأكد من سلامة البضاعة.

كلّ ما في داخل نفسه كان قاحلاً يسكنه الهدوء. ذلك ما كان قد قرّره منذ لحظة بدأ يفكر ببيع مكتبته، لأنّ أيّ محاولة لإظهار شيء من الحزن أو الألم سيؤسّد عليه هذه الصفة، التي لا مفرّ الآن من الإقدام عليها؛ فذلك وحده هو الكفيل بأن يكون في بيته شيء من الطحين والسكر والحليب والزيت. لقد باع الكثير الفائض عن الحاجة وأبقى القليل في بادئ الأمر، ولكنّه بعد سنوات قليلة باع جزءاً ممّا هو في حاجة إليه. والآن لم يَدُ ثَمّة ما يبيعه غير مكتبه.

ليلة اتّخاذ هذا القرار لم يبتْ مؤزّراً كما هو شأنه لدى اتّخاذ القرارات الحاسمة. غرّمْ فجأةً على أن يذهب صباح اليوم التالي ليتفكّر مع مُشتري ما على بيع مكتبته. كان مُشاعراً: ينبغي لنا أن نعيش، وبعد ذلك يمكن التعويض عن كل شيء. المهم أن نعيش! رأى الوسيط كتاباً مطوّباً على وجهه يحتم على كرسيّ مهترئ غير بعيد عن المكتبة. وكان هذا الكتاب هو الذي يعنيه على فُتر عنايته بالكتب الكثيرة التي عبثت بها يده، فاندفع نحو الكرسيّ ليحيط بالكتاب للقلب. لكنّ صاحب المكتبة وضع يده أمامه في إشارة منه أن يتوقّف ويترك الكتاب وشأنه. قال المُشتري وهو يهزّ كتفيه: «أريد أن أراه فحسب» رفع الكتاب إليه، فاستطاع المُشتري أن يقرأ بسرعة على غلافة الأوّل ويخطّ كوفي: **العراق في...** ولم يستطع قراءة باقي العنوان إذ إنّه صاحب المكتبة أعاد الكتاب بسرعة إلى الكرسيّ.

ظلّ يتأمل الكتاب بشيء من الدهشة. كان كتاباً قديماً جداً تمرّقت فيه الزوايا الأيمن من غلافه الورقيّ غير السميك، وكانت أوراقه الصفراء المفككة يبرز بعضها من زخّته. كان المُشتري يحدّق في وجه الرجل كأنّه ينتظر منه أن يقول له شيئاً عن هذا الكتاب الذي يرفض التفرّيق به، بصيحت رفض السماح له بتقليبه أو في الأقلّ قراءة عنوانه كاملاً قال الرجل بهدوء كأنّه يخاطب نفسه:

«إنّه إرث عزيز تركه لي والدي، يرحمه الله، قبل أكثر من خمسين سنة.»

هزّ الوسيط رأسه ليُعبّر عن عدم فهمه لِمَا سَمِعَ، واستدار إلى المكتبة ليعاود تقليّب الكتب.

اتّفقاً على السعر دون تأخير. قال الوسيط بسرور لا يخفى. «اترك كل شيء في مكانه. سأتي بعد قليل بالمال وبسيارة.»

غادره بعد دقائق. وجد رجله لا تتواءم. رفع كتابه وقعد على الكرسيّ، وعيناه على الكتب المبعثرة على الأرض بطريقة بدت له انتهاكاً لمشاعره هو فضلاً عن إهانة للكتب نفسها – إذ لم يسبق له أن رآها بهذه الطريقة العدوانية أبداً. بعض هذه الكتب انفتحت غلافه فاستقرّت عليه كومة أخرى من الكتب، وبعضها انزلق تحت المكتبة، وبعضها ما يزال يحمل آثار أقدام مُترّبة ويقع ماء من الكاس التي شرب منها المُشتري قبل قليل كان يتفحصها بشيء من عدم الاهتمام؛ فقد أحسّ أنّها لم تُعدّ تعنيه في شيء، لأنّها لم تُدْ مُلْكاً له. غير أنّ كُومها بهذا الشكل هو الذي ضايقه وكان يستعجل الوقت ليحيي صاحبها ويحمّلها كي يخلصها من هذا العذاب.

♦ - كاتب من العراق.

• عبد الإله عبد الرزاق

قال له وهو يُلقي بين يديه بكيس من النايلون «كل رزمة بخمسة وعشرين ألفاً. تستطيع أن تعدّها بهدوء. ريثما ننقل الكتب.» كان معه سائقُ السيارة، واستطاعا بعد أقل من ساعة رُقْع الكتب وحَمَلْ المكتبة الفارغة إلى السيارة. كانت يَدُه اليسرى على كيس النقود، ويَدُه اليمنى تُمسك بكتابه بقوة كأنه يخشى أن تغفلَ عيناه عنه فيحملَه أحدُ هذين الرجلين كما حَمَلَا أكوامَ الكتب إلى السيارة. وبوعي مقتول كان يقربُ الكتابَ من صدره، في الوقت الذي ارتخت فيه أصابعُه على كيس النايلون فسقط في حجره بإهمال. تركه على الكرسيّ وخرج إلى الباب الخارجي وهو يحمل كتابه إلى صدره. لوح له المشتري بالتحية وعيناه تنظران إلى كتابه. شعر بحرارة نظراته تسقط على الكتب كما تسقط على يده. حين غادرته السيارة رأى رأسَ المشتري يطلُّ منها وهو يرمي بإصبعه إلى صدره كما لو أنه يرمي إلى الكتاب. وترأى له ظلُّ ابتسامة ساخرة مُشفقة ترسم على وجهه. واختفت السيارة بعد أن استدار من فرج جانبي من الشارع.

وضع الكتاب على الكرسيّ وحمل كيس النقود. دخل على زوجته في غرفتها. رمى أمامها بالكيس. نظرتُ إليه زوجته باهتمام. لم ترَ بهجه أكثر هدوءاً مما تراه الآن، خلافاً لما توقّعتُ. اشعرها ذلك بشيء من الاطمئنان. وضعتُ يداها على يده قبل أن تضعها على كيس النقود. حاولتُ أن تُثبِّئَ على وجهها ابتسامة ما. رأى في عينيها شبه دمعتين، واختلاجةً بطيئةً تُلبِّس في شفتها السفلى كأنها تقول له شيئاً: كلمة تشجيع، أو امتنان، أو تعزية.

شلَّه اهتمامات البيت والسعي إلى شراء حاجاته الضرورية عن الاهتمام بكل شيء، حتى نسي كتابه الذي تركه على الكرسيّ في الصلاة. بعد يومين، وقد استقرَّ كل شيء في نفسه، راح ينظر بعين الرضى إلى كيس الطحين والسكر وصفيحة الزيت والصابون واكياس الحليب الصغيرة الملونة. تذكر كتابه الذي نسيه على الكرسيّ. بُعِث حين لم يَرَه في مكانه. سأل زوجته وأولاده، أنكروا رؤيته وإن كانت زوجته قد أكدت أنها رائته قبل ليلتين في مكانه على الكرسيّ. مضوا جميعاً يفتشون البيت. تملكه غيظٌ اكتظت به نفسه وجعله يلمّ قبضته كما لو أنه يريد أن يَهْطع شيئاً ما وهو يدخل من باب ويخرج من آخر، متعلّماً بقطع الأثاث القليل. لكنّ درهما فائدة. لقد بدأ كتابه وكأنه قد اختفى تماماً وطريقة يستحيل العثور عليها. سأل نفسه: «ماذا لا يكون المشتري قد اختلسه في غفلة من؟» غير أنه استكت في نفسه هذا الوهم لأنه مطمئنٌ تماماً إلى أن كتابه بقي على الكرسيّ مع كيس النقود عند خروجه وراء المشتري وسائق السيارة.

في كل ليلة حين يضع رأسه على الوسادة لينام، يقول لنفسه: «في الغد قد أعثر على الكتاب.» إنْ أخفاه غير المعقول لا يمكن أن يغطّي حقيقة أنه هنا موجود، في زاوية ما، أو تحت شيء ما لكنه يعلم أنه لم يعد ثمة شيء لم تعثر به يَدُه أو يدُ زوجته وأولاده. غير أنه يظلّ يكرّر «لا بُدَّ أنْ أعثر عليه.»

لقد بدا الأمر كما لو أنْ بدأ خفيةً أرادَتْ أن تعثر بهم فلخفت الكتاب. وإلاّ فإين ذهب؟ ولمَ لَمْ يعثر عليه أحد إلى الآن؟

عشر سنوات والرجل - الجورُ الآن - يظلم بأن يجد كتابه. في هذه الليلة كان نفسه يتقطع وكان صدره ثقيلاً. وكانت زوجته إلى جانبه تجفّف نضج عرق وجهه وتُمسك عن عينيها هطول دموع. تُشع صوتُ المتقطّع إليها من بعيد. عيناهما على شفتيه اللتين لا تتحركان. غير أنها كانت تسمع صدى صوت ضعیف متقطع يملأ كيانها وهو يقول: «إذا عثرت عليه فسلميه لابني علي.» وإلاّ فليبحث هو عنه. يجب أن تعثروا عليه.. يجب!

بغداد

فلسفة التَّداول

• الأزهر الصحراوي •

كان سيدي أحمد يدفن وجهه بين صفحتين من صفحات جريدة القدس بتاريخ ١٠ أبريل ٢٠٠٠. وفجأة رمى بها على الأرض بحركة عصبية. همَّ النَّادِلُ بإعادتها إليه، غير أنَّه تراجع عن ذلك حين غمزه صاحبُ المَقهى أن «أتْرَجه وشأنه». كانت يده اليمنى التي قُطعتُ سببُها في حرب ١٩٤٨ تبدو ككناشة وهي تُزيل القذى عن عينه اليسرى وقدايح شاربيه المفتولين الأشيبين فُكَّوْحُ عينَي اليمنى العمراء التي فقدتها في تلك الحرب أشبه بجمرة مُعَمَّمة في جدار. غير أنَّ رمية الجريدة لا يمكن أن يُعَدَّي احتمالين اثنين: فإمَّا أنَّه غضب من زيارة وفد الكنيست إلى موريتانيا، وهي زيارة تُوَجِّهُ بتشكيل جمعية برلمانية موريتانية - إسراييلية؛ وإمَّا أنَّه انزعج من أصوات الطبول التي كانت تُنقِّى في المدينة منذ ثلاثة أيَّام معلنة قدومه.

فقد كان انصامه يجوبون الشوارع هاشينَ باشينَ مبشرينَ بسجيته، وكان هاتِفُهُم يُهتَفُ في الجموع قائلاً: «سيشرِفُ مدينتنا... سيجي، وحيدٌ زمانه وفريدٌ عصره... سيجي الديموقراطيُّ الأول والأخير...» وكانت الألفات القماشية مُثَبَّة في الأشجار وأعمدة الكهرباء، وعليها اسمه وبعضُ كلمات الترحاب وكانت جدرانُ المدينة مزدانةً بالملصقات الحائطية التي عليها صورُه الأنيقة، وكانت النسوة الجميلات يحفظن عن ظهر قلب بعضَ كلمات الترحاب القصيرة التي تُقَطَّرُ ودناً ورقاً وانونةً أمَّا النسوة الأثقلُ جمالاً فكانَ منشغلات بإبعاد البخور والتدرب على الزغاريد الأنيقة الصَّافية. وإمَّا الأطفال فكانوا منتظمين فِرْكَاً فِرْكَاً ومنهمكين في التدرب على ذلك التشديد القديم الحديث. «أَقْبَلُ البدر علينا» غير أنَّهم حرقوه بعضَ التحريف فاستبدلوا: «المبعوثُ نينا» بـ «الآي نينا».

وعصراً كانت تلك الأيام الثلاثة كغيلة بإعداد السكان إعداداً نفسياً وذهنياً ودينياً لتقبُّل الحدث الجلل. فكان الناس ينضمُّون طائعين إلى المواكب التي تجوب الشوارع يعمياً، فيبهتون باسمه، ويرقصون، وينظمون الصفوف، ويلبسون قبضاتهم في الفضاء، ويُحَرِّصُونَ الواقفين على الأرض على الانتماء إلى الجموع المتدافعة، ويُسحِّون العرق المنصبَّ من جباههم ووجوههم وما إنَّ جاء اليوم المنشود حتَّى قُدَّت المنصةُ الكبيرة، وزيَّنت بالورود والقرنفل والتُسمرين، ووضعت مضمخات الصوت بعناية دقيقة ليصل صوته بكلِّ صفاة إلى كلِّ الناس الذين توافدوا إلى ملعب كرة القدم، وتُصِبت نحوه الأثُ التصوير الثابتة والمتحركة، وحضر ممثلون عن الصحافة المكتوبة والمسموعة لتوثيق الحدث المهيِّب. كانت ساحة الملعب ومدارجه غاصَّة بالخضور، حتَّى إنَّ سيدي أحمد الذي لم يعثر على مكان شاغر جعل يُريدُ مدهوشاً: «كلُّ النَّاس هنا! ألم يبق أحد في بيت؟» فاضطرَّ إلى الوقوف مع الواقفين ولعل الصدفة وحدها جعلته ينفق قريباً من صحفٍ وطالِب من طلاب الفلسفة كان الناس ساكنين ينتظرون ويتعدون الكناشك عداً، وعيونهم مركزة على المنصة الجميلة.

فجأة صعد المنصة أربعة رجال، أحدهم يحمل بين يديه حقيبة سوداء كبيرة، والثاني يحمل على كتفه حقيبةً بيضاء كبيرة، والثالث يتأبطُ حافظة أوراق صغيرة، أمَّا الرابع فقد أخذ المصنَّخ وجعل يقول والناس خُشَّع: «أيُّها الملا الكريم، أيُّها الجمع الغفير. تسمعون اليوم محاضرة الشيخ العلامة والخبير الفهامة الأستاذ الدكتور... أستاذ الكرسي... الدكتور الزَّائِر... أيُّها الناس اسمعوا وعوا. إنَّه رضع الديموقراطية رضاعة، وقد شرَّق في أرض الله وغرَّب ليشربها من نعيمها الصافي ويقطعها من منابها الأولى...»

بدا الرَّجُل المُجَلِّد من على المنصة أسمرَ البشرة طويلاً أصلع الرَّأس، يرتدي نظارات سوداء وعليه بلغة سوداء كان ينتمس ويُحرِّك رأسه راضياً عن الإطار الذي كان المتكلم يخلعه عليه. ثمَّ أومأ المتكلم برأسه إلى حامل الحقيبة البيضاء أن افتتح الحقيبة، ففعل، ووضعها فوق المنصة، وجعل الخطيب يقول: «أيُّها الإخوة الأعزاء، هذا وسام الحوار الديموقراطي - يُعرض أمام الملا - وقد أحرَّزه من مملكة النرويج. وهذا وسام الاستحقاق الديموقراطي أسنده إليه حاكمُ بوسطن. وهذا نيشان الكفاح الديموقراطي

استحقَّه من القائد الأعلى لعاصفة الصحراء... وكان يُوسِّمه بالأسمة والنباشين حتَّى كاد الرجل ينهار بفعل الثَّقَل. ثُمَّ أوماً إلى حامل الحقبة السوداء أن افتح الحقبة واجعلها على المنصة، ففعل، فجعل يُخرج الكتب ويرفعها ليُشاهدنا النَّاس وهو يقول: «هذا كتاب الديمقراطية في العالم الثالث. وهذا ديموقراطية الثورة أم ثورة الديمقراطية؟ وهذا موقف الحجاج بن يوسف من الديمقراطية. وهذا مائة نصيحة لتعلَّم الديمقراطية». علت موجة تصليق ومناقف فرغ الفيليب صوته على أثرها قائلاً: «أيُّها النَّاس، أيُّها النَّاس، لم تبق إلا محاضرة دكتور الدكتور وشيخ الشيخ، حاصر الأسمة، ويُصنِّف هذه الثَّصانيف، ومؤلِّف هذه التاليف. وقد حدَّد مدخلته بنصف ساعة، وخصَّص حضرته ثلاث ساعات للمناقشة والإجابة عن الأسئلة المحيرة والقضايا الغامضة. أمَّا عنوان المحاضرة فهو فلسفة التَّداول الديمقراطية. ولم يبق لي إلا أن أفسح المجال للاستاذ الدكتور...»

تناول الديمقراطي المصدِّح فداعيه بأنامله فتجاوَيْتُ أصدوقي في الأرجاء، وهمس بصوت ناعم مُخَنَّن قد غلَّته لكنةً أفرنجية: «مساء الخير...» فردَّد الجمع الغفير: «مساء الخير...» ساد بعض الصُّمْت ثُمَّ انبرى يقول: «نحن أربعة مسافرين، ولنا جحش واحد، والمسافة التي سنقطعها تقدَّر بأربعين ألف متر، فيجب أن يركب كلُّ واحد مسافة عشرة آلاف متر. هذه هي فلسفة التَّداول الديمقراطي». إنفلتت بعض الصُّحُحات العفوية. واصل يقول: «إنَّ الخليفة عمر بن الخطَّاب عادل، لكنَّه لا يؤمن بفلسفة التَّداول على الحكم، فسعى النَّاس إلى قتله من أجل هذا البِدال...» تعالت بعض الفهقات والتعليقات الساخرة. إجمرت عيناه وغلَّظ صوته واحداً، وراحت قبضته تنقُ المنصة دقاً وهو يقول: «إنَّ الديمقراطية هي العصا الغليظة. فلا ديموقراطية لأعداء الديمقراطية. إنِّي أرى رؤوساً أينعت. اقتلوا أعداكم واغزوهم قبل أن يغزوكم. إنَّ هذا لا يفهم إلا بفهم المادية التاريخية وتحديد مسألة الهوية وصراع الإمبرياليَّات. وإنِّي - والقول لي - قد مرَّجتُ بين الديمقراطية البرجوازية وديكتاتورية البروليتاريا، فيجب أن نجعل من القمع أشدَّ قمعاً بأن...»

تجاوز المحاضر الوقت بساعتين دون أن يتوقَّف عن الكلام. وصعدت زوجة أحد أنصاره إلى المنصة وجعلت تُجفِّف وجهه وصلَّته بمنشفة. واخذ النَّاس يُفادرون المكان بأعداد كبيرة، ذاهلين منكسرين. كان المحاضر يُخطِّب قائلاً: «والله، لولا الخوف والحياء لنقبَلُها... إنَّ الديمقراطية الأخلاقية هي أن تُقبَلْها بين الرُّصافة والجسر، وأن تُسَقِّي خمرًا وتقول لي هي الخمر، ولا تسقني كأس الحياة يذلة...»

اشتعلت الأضواء الكاشفة في الملعب، وجعل النَّاس يعودون إلى بيوتهم، ولم تبق إلا فئة قليلة لا تتجاوز العشرة وقد احاطوا بسيدي أحمد والصُّحفي والطَّالِب وهم يصرخون مطالبين بالنِّقاش وإبداء الرِّأي. غير أنَّه واصل يقول: «سأبادلكم أدباً بأدب... إنَّ المصدِّح معي، والنَّاس معي، وصوتي سيبلغ كلَّ أرجاء الأرض. لن أناولكم الكلمة يا أعداء الديمقراطية...»

مضت أربع ساعات وهو يخطب في النَّاس، ومضت على سيدي أحمد وجماعته ساعتان ونصف وهم يُطالِبون بالنِّقاش والحوار وإبداء الرِّأي قائلين: «ناولنا الكلمة يا عدو الديمقراطية...»

فجأة انقطع التَّوَرُّ الكهربائي، ففرق الجميع في ظُلْمة حالكة، وساد صمْت نظيف.

تونس

الحسنة

♦ منار إدريس ♦

«نحتاجك غداً الساعة الثانية عشرة ظهراً. حملُ حُرْز. فيه رزقة جيدة. اتفقنا؟ الساعة الثانية عشرة في الساحة سلام» ربت على كتفه واتصرف.

«هيه. شغلة محزنة. يعني كم؟ مئة ليرة؟ مئتان؟ يعني ثمن الخبز والبصل؟ تفتا! ولكن الحمد لله على كل حال يعني يا علي، ما الذي تفكر عليه ولم تفعله؟ أنت في آخر المطاف عقال، شيال، كل رأسمالك هو ظهورك. . وكيس خيش»

اقترب من واجهة محلّ للملبوسات، ابتسم عندما رأى السعر مضى في الشارع المضاء بالمصابيح وأضواء المحلات. نظر إلى الناس. رجال ونساء، شباب وبنات، كلّ منهم لديه ما يشغله: عائلة، حبيب، أو مجرد أمل. رأى رجلاً في متوسط العمر، له كرش خفيفة وصلمة خفيفة؛ ربما كان موظفاً، وربما كان راتبه خفيفاً أيضاً لا بدّ أن يشتري لابنته بنظلاً ما؛ عيب لقد أصبحت في الجامعة طفل يمسك بقوة بيد أمّه حتى لا يأخذه الغريب ويمضي. حبيبة تمرّ بسرعة متجهمة. هكذا الأصول. تسمع كلمة غزل من هنا، وكلمة من هناك، وتمضي.

كانت الحركة في السوق نشطة. المحلات ملأى بالناس. الهواء طليل. الطقس دافئ. الناس تمشي وتبتسم.

أخيراً، وصل إلى بيته... أو بالأحرى إلى غرفته؛ فالبית أحياناً يكون أكبر من ساكنيه.

«يوماً ما سأُفْرَج»، نظر إلى صورتها. ابتسم. جميلة. بريئة. عيناهما خضراوان واسعتان. فمها صغير ومبتسم. شعرها الأشقر متهدل على كتفها كاميرة نائمة. من عنيفها ترى روحها، حنونة كمطر نيسان يحيي قلبه. رائحة الورد تدخل أنفه. خلع ثيابه. استلقى على سريريه. كان حقاً يشعر بالفرح.

في صباح اليوم التالي، وقف أمام المرأة. لاحظ نطقه اللبنة. ارتدى قبعة الصوف الزرقاء وخرج.

الزمن لا يزال يتحرك. أناس يتحركون، وآخرون يتوقفون، والباقي يموت. طلاب يذهبون إلى مدارسهم. موظفون يرتدون بذلات رتة. سيّارات فخمة تسير حولهم وتمضي، وحياتهم تسير وراءهم وتمضي.

– حملُ بياض. شغل جيد، اجر كبير.

– لا بأس. إلى أين؟

– قاعة الاحتفالات في...

– كم رجل معنا؟

– ثلاثة، وأنا وأنت.

عندما رأى البياض، توقفت الدهشة أمامه. بياض كبير أسود مزركش، له ثلاث أرجل، يُرِيض أمامه كملاب متوجّج. حملوه برفق. وضعوه بالشاحنة، وانطلقوا.

في القاعة استقبلهم رجلٌ له لحية صغيرة، وشعر أبيض طويل. يضع نظارات صغيرة، ويتكلم بما لم يفهمه. ولكن يبدو أنّه إنسان طيّب. يرافقه رجل سمين، وجهه مدور، وفي يده عدة خواتم ذهبية لماعة كان الرجل السمين يُصدر أوامره هنا وهناك: «احملوه ببطء. بهدوء. هذا بياض، لا كيس بباطما».

♦ كاتب شاب من سوريا.

عندما وضعوا الملك على الأرض، اقترب الرجل ذو الشعر الأبيض منه، فداعب قطعه البيضاء والسوداء، وعاد للتحدث مع الرجل السمين بكلام لم يفهمه. خلع طائفتيه الصوفية الزرقاء. أمسكها بيديه، عصرها، ودنا منهما.

– استاذ، يعني يمكن إذا سمحت، هل ستقيمون حفلة عزف؟

نظر إليه الرجل السمين كأنه ينظر إلى حشرة:

– وما شأنك أنت؟

– يعني استاذ، ممكن لو تكرمت أن تعطيني بطاقتين. وسأدفع ثمنهما. يعني أنا أحب الموسيقى وأريد .. أريد أن أحضر الحفلة.

كان الرجل السمين ينظر إليه وكأنه لا يصدق ما يسمعه. كانت عيناه تقولان: «أنت تسمع الموسيقى يا حثالة؟»

اقترب الرجل ذو الشعر الأبيض. تكلم مع الرجل السمين. هز رأسه. ابتسم مدّ يده إلى جيب معطفه. أخرج منه بطاقتين وأعطاه إياهما.

– يقول إنه سينظرك.

نظر إلى الرجل ذي الشعر الأبيض. ابتسم له. شكره بانصناة. لم يصدق عندما رأى البطاقتين بين يديه. قلبهما. قراها. كاد أن يقيهما. أسرع إلى أول هاتف وجده أمامه. «ألو، سلمي؟ هل ترافقيني إلى حفلة عزف؟ حسناً. سالتنظرك في الساعة السادسة في الساحة.»

في الساعة السادسة كانت هناك: جميلة كأنها الحياة، دافنة كأنها شمس، خضراء كأنها بستان، شقراء كأنها ملاك، حبيبة كأنها حبيبة.

ابتسم. كان لون السماء مختللاً. سار وقد أمسكت بكوعه شاهداً للناس كلهم سعداء. حتى الطفل الرث الثياب، المشعث الشعر، الذي ألح عليهم أن يشترى منه علكة كان سعيداً.

سألته وهما يسيران: كيف العمل؟

– لا بأس. قريباً سأشتري غرفة النوم، وربما كنبة أيضاً.

احمر وجهها وداعب النسيم وجنتيها. رأى بقلبه الفراضات تطير في مساحات عينها الخضراوات.

– هل تُجهّد نفسك في العمل؟

– يعني... حتى أتزوج بسرعة.

– انتبه على نفسك.

أمام صالة العزف، وقف أناس ينتظرون. كان الجو عبقاً بروائح مختلفة: عطور، رائحة أدوات زينة. لكن رائحة القلوب كانت غائبة. كانت هناك سيدات كثيرات. أجساد كثيرة. ثرثرة كثيرة. شباب وشابات، الله يعلم من أين أتوا. ربّات بيوت واسعة، فيها غرف واسعة، ومطبخ واسع، وخادم أو خادمة. نخلوا إلى الصالة. جلسوا على مقاعدهم. كان البيانو في منتصف المنصة. جليلاً مهيباً.

قال لها: «أنا والشباب حملناه إلى هنا، اليس جميلاً؟»

وأخيراً ظهر الرجل ذو الشعر الأبيض غنى للجمهور صفقاً له بشدة «هو الذي أعطانى البطاقتين، رجل مليح بروفيسور»
جلس الرجل ذو الشعر الأبيض على كرسيه وبدأ العزف. خرج النغم هادئاً ناعماً، انسابت معه ذكريات قديمة. أحسَّ أنَّ النغم
يدور حول نفسه كغرافة تدور حول زهرة، ثم أصبح أقوى وأسرع. أحسَّ به عميقاً كالبحر في عينيها. وما لبث النغم أن أوصله
إلى الشاطئ، وعاد هادئاً كليلة صيف.

الأمم القديمة المدفون في قلبه أحسَّ به يتبعث فرحاً غامراً يحيط به أغمض عينيها. رأى قلبه يستأنس في شمس صغيرة تنقسم لهما،
وكروخ جميل صغير يعيشان فيه مع طفل صغير، ذي شعر أشقر وعينين خضراوين كأمه، وساعدين فولانين يظهر كالصخر مثل
أبيه. ورأى قرب الكروخ جدولاً صغيراً، وحوله أشجار كثيرة كرز، خوخ، تفاح، والطفل يلعب ويركض وصراخه يملأ المكان.
أحسَّ يدها في يده. أمسك بيدها وقربها إلى وجهه وقبلها.

استمرَّ العزف رقيقاً وعذباً، إلى أن توقف العجوز ذو الشعر الأبيض، وانحنى للناس. حينها أدرك أنَّ النغم توقف. والحلم توقف.
ولكنه صنف بحرارة شديدة. رأى العجوز ينظر إليه ويبتسم، وما لبث أن غادر المنصة.

في الطريق الفارغ كانا يسيران، وكلُّ منهما يحمل قطعة من البوظة كانا يضمكان من طريقة أكلهما. أخرجت من محفظتها منديلاً
مسحت به فمه. أحسَّ بأناملها خالف المنديل تتحرك على فمه.

— كانت أمسية جميلة، اليس كذلك؟

— أجل، جميلة.

— هل ستذهبين إلى العمل غداً؟

— نعم.

— لن أراك إلا أيام الخميس المقبل.. أتعرفين؟ سأشتاق إليك.

نظرت إليه. حدثت في عينيها لأول مرة.

— وأنا سأشتاق إليك.

في اليوم التالي ارتدى بنطال العمل، وقمصان العمل، وطاقيّة العمل الصوفيّة الزرقاء، وعندما راه أبو محمد في الساحة هتف
بصوت عالٍ:

— نحتاجك اليوم، حمل محرز. فيه رزقة جيّدة.

وربت على كتفه، ومضيا.

دمشق

لم نقرأ مثله منذ اندلاع الانتفاضة الثانية

لملّني لا اجازف في القول البتّة إنّ الملفّ الذي أعده كلٌّ من سماح إدريس وعمر البرغوثي، ونشرته مجلة الآداب في عددها المزدوج (كانون الثاني - شباط/يناير - فبراير ٢٠٠٢) ربما كان من أفضل المساهمات الفكرية في الجدل السياسي الدائر اليوم على الانتفاضة الفلسطينية ومستقبلها ووعودها الخلفاء. وربما لا أبالغ في الكلام أيضاً إذا قلت إنّنا لم نقرأ، منذ اندلاع الانتفاضة في ٢٨/٩/٢٠٠٠ حتى اليوم، تحليلات ووجهات نظر ذات إحاطة وشمول، مثلما قرأنا في هذا الملفّ المتشعب والمتكامل معاً. وقد تابعنا، بالتأكيد، الكثير من المقالات والدراسات المهمة هنا وهناك، ورصدنا، يشغف، آراء بعض الكتاب اللامعين في هذه المجلة أو تلك: غير أنّ الآداب كانت، من بين جميع رصيفاتها، الوحيدة التي سارعت إلى تدشين هذا الجهد النقدي الثاقب الذي يتمثل، أكثر ما يتمثل، في صوغ اثنين وثلاثين سؤالاً ميثاقاً في الأبعاد الثلاثة للكفاح المسلّح الفلسطيني: البعد الأخلاقي، والبعد القانوني، والبعد السياسي. وهذه الأسئلة، في حدّ ذاتها، شائقة وشديدة الأهمية معاً، وهي تُضوئ معظم المشكلات الشائكة التي تواجهها الحركة الوطنية الفلسطينية اليوم.

إنّ هذه الأسئلة من شأنها، بالفعل، أن تُلحق بابّ المبارزة في هذا المحقل من المعرفة، مع ما تعنيه كلمة «مبارزة» من شجاعة فكرية ونزاهة نقدية ورعاية في السجال والمواجهة. لكنّ هذه الأسئلة نفسها قد تُلحق، في الوقت ذاته، صنفين يائسون في ما لو جَنَحَ الحوار إلى الغرافيات التي طالما أُنشئت بها آراء بعض التيارات السلفية الصاعدة، أو جَنَحَ إلى الطابعية التي ما فتئت بعض الشُّعَبِ القومية المهزومة ممسكة بها فلا تصيد عن مفرداتها أو تتبدّل. وبهما يكن الأمر، فهذا الملفّ يضع بين أيدينا، إحصائياً، آراء أحد عشر كاتباً (ثمانية من العرب - لبنانيّان وستة فلسطينيّين، وثلاثة من الأميركيّين). لكّنه لا يتضمّن، في الحقيقة، ثمانية أراء عربية بحساب المطابقة مع عدد المشاركين، بل خمسة أراء فقط بحسب التصنيف السياسي. فثمة وجهة نظر يمارية (بالمعنى الضيق جداً لكلمة «يسار» تبعاً لمفهومها الراهن في الواقع الفلسطيني) عبّر عنها كلٌّ من عصام مخلوف وسهيل الناطور؛ ووجهة نظر إسلامية استخلصها كلٌّ من السيّد محمد حسين فضل الله وإسماعيل حداد؛ ونعيم قاسم؛ ووجهة نظر قومية تقدمية تستند إلى تجربة عميقة

♦ عضو في هيئة تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية، وكاتب في جريدة السفير.



وخبرة نضالية ضاربة في التاريخ المعاصر للثورة الفلسطينية عبر عنها الدكتور جورج حبش؛ ووجهاً نظر وطنية لبرالية مع ميل إلى اليسار عبر عنها مصطفى البرغوثي؛ وآراء قومية تقليدية مع ميل إلى الشعبوية تكلم فيها إبراهيم علوش.

ملحقات أولى: بين السروح الجبني والسياسات المتغيرة

لغثي في الملف أن الأسئلة أعمق بكثير من بعض الإجابات. وأكثر من هذا، فقد راعني الفارق الكبير جداً في المستوى النقدي وفي طريقة عرض الأفكار بين أجوبة الأميركيين وأجوبة بعض الكتاب العرب. فريتشارد فالك، على سبيل المثال، يقارب موضوعه بتفكير منهجي وبنية علمية ومستوى رفيع من المهادلة النقدية، بينما الإجابات العربية - في معظمها - ما انفكت تتجرد للقضية الفلسطينية بممارات بدعوى لا تضيف شيئاً إلى معرفة تفصيلات الواقع الملتبس والنقشابة؛ حتى أن البعض تصدى للإجابة عن أحد الجوانب وهو لا يمتلك الحد الأدنى من المعرفة به. لذا احتدمت بعض الإجابات بمعارات سياسية عامّة وفقرية بلا مشكلة نقدية مع الأسئلة العروضة، على طريقة: «لا تفرق بين المدني والعسكري» في إسرائيل، والإعلام والراي العام لا يهتمان للبناء ولا سلام للمدنيين الإسرائيليين بوجود الاحتلال واستمرار قتل المدنيين الفلسطينيين (سهيل الناطور) أو «نحن لا نعمل كثيراً على خلافات اليمين واليسار في إسرائيل» (نسيم قاسم). لكن ما راعني، حقاً، هو استسهال الكلام على المدنيين الإسرائيليين بطريقة تستحلب شهوة الدم كالقول: «إن الأتواد اليهود الموجودين في فلسطين اليوم أعداء للمجتمع العربي حتى لو أئسوا أنهم يساريين أو إنسانيين النزعة أو مؤيدون لحقوق الشعب الفلسطيني» (إبراهيم علوش). وبحسب ما أرى فإن فكرة «المسؤولية الجماعية» هي فكرة فاشية باحتيان، لنظفها الفلسطينيين - إلا القليل منهم - منذ فترة طويلة. فإذا كان الإسرائيليون ذقنة، فإن الفلسطينيين مقاتلون، وطرانقهم في للقتال تخالف - بل يجب أن تخالف على طول الخط - طرائق الإسرائيليين الهمجية ولا نحتاج في هذا الشأن إلى تفصيل. ثم إن الكثير من الإسرائيليين اليساريين أو غيرهم من مؤيدي حقوق الشعب الفلسطيني، حتى لو سكنوا الأراضي الفلسطينية، لهذا السبب أو ذاك، هم أرفع مقاماً من بعض العرب الناقمين يومياً بشعارات المقاومة ومولجة التطبيع، والذين يُخدمون، في الوقت نفسه، النظم الديكتاتورية العربية.

هؤلاء العرب هم، فضلاً عن خدمتهم السلاطين والنسب وهراس ماويوسهم، فاشيون؛ وإن وصلوا إلى السلطة فثقوا شعوبهم تقيلاً. ولا أجد وجهاً للمفاضلة قط بين هذا الربط من المثقفين العرب، وشخصيات يهودية من طراز أميرة هاس وسيمون بيتون وشولاميت ألوني ولجنة تسيميل وفيليتسيا لانغر وإيهود أديف ورامي ليفنه وأوري الفريدي وأوري نير وإسرائيل شاحاك وإيلأ شحاحط فهذه الأسماء، ألفت حياتها دفاعاً عن الفلسطينيين، وأمضى بعضها أعواماً في السجون بتهمة مخارعة الصهيونية، والجا للصهيونيين عدداً منها إلى مبادرة فلسطين.

والحقيقة أنني دمعت، قليلاً، لبعض العبارات الواردة في جواب السيد محمد حسين فضل الله مثل قوله: «يَستعَب جداً أن نجد امرأة في الكيان الصهيوني أو المستوطنات لا تمثل حالة عسكرية». إن هذه العبارة تُشبه، في بعض جوانبها، الكلام الشائع في الأقواء والسائر على الأسماء، والذي يُعتقد أن لا مدنيين في إسرائيل مادام كل فرد منها يُخدم في الجيش؛ فما لإسرائيلي بحسب هذا الكلام مرصود، منذ ولادته، لهذه الخدمة، وسيبقى عسكرياً حتى بعد تسريحه. إن هذا الكلام يلائم التمييز الصهيوني تماماً، فالصهيونيين يقولون الأمر نفسه عن السورين مثلاً: ليس ثمة مدني في سورية مادام أي مواطن فيها يُخدم في جيش بلده؛ والفن في سورية يتدرب في المدارس والجامعات؛ والشاب هو عسكري بالضرورة؛ والكهل هو احتياط بالغل.

مهما يكن الأمر، فإن إجابات العرب كانت، في بعض جوانبها، نوعاً من البديعيات التي لا تقيّد شيئاً في السياسة، بل ربما تكون لها فائدة في المدارس فقط فالبادئ العامّة والمواقف البديعية تريح الضمير، ولعل فيها أهمية ثقافية أو دلالات أخلاقية، لكنها لا تقدّم شيئاً في العملية السياسية ولا تحرّج، ومن أسهل الأمور على المرء أن يتمسك وراء مواقف أوّلية أو مبادئ مجرّدة ولا يمدد عنها حتى لا تتلوذ مواقفه أو مواقفه بالسياسات المتغيرة. غير أن الكائن الجبني لن يكن، في المحصلة، أكثر من رواية للواقع وللتاريخ وأجدله.

قصارى القول إن السياسة، بما هي فعل مباشر، هي الأساس في أي حركة للتغيير؛ وهي فن معرفة الحقائق، وفن اجترار البدائل، وفن الوصول إلى الأهداف لا فن الملاحظة. فني حركات البحث الأكاديمية ربما يكون النقاش في البائد المجربة أمراً مقبولاً أو جديراً بالتأمل، لكن حينما يتعلّق الأمر بمصير الشعوب التي تتعرض في كل يوم للادى وتتطلع إلى خلاصها، يصبح من

الضروري أن يفكر المرء سياسياً، أي أن يفكر بمسؤولية وصيرية، لا في المبادئ وحدها، بل في التبعات الناتجة عن اتخاذ هذا القرار أو ذاك أيضاً.

فن التفكير

إن قراءة مصوص نورمن فيكتامستين وريتشارد فالك ونوم تشومسكي تزودنا، فضلاً عن المتعة المعرفية، بطراز رفيع من فن التفكير. واللغات في أجوبة هؤلاء مدى الاهتمام بالتفاصيل الكثيرة والجوانب الغامضة من الكفاح المسلح الفلسطيني، وهو ما يدل على الجدية المالية والتعمق المنهجي. وفي أي حال، فإن أفضل ما تزودنا به آراء فيكتامستين وتشومسكي وبالك هو حث العقل العربي النقدي على التفكير فيها، وتقليب وجهها، وتعرين التهمة العربية على مبدأ إيمان النظر في آراء الآخر مهما تكن هذه الآراء مخالفة لما استقرت عليه الذهنية العربية، ثم رسم خطط المرجحة، لا تطبيق العادة العربية للمعهودة، أي إدارة الظاهر. وسيمط الكثيرون شفاههم، بالتأكيد، حينما يقرأون آراء تشومسكي في الكفاح المسلح الفلسطيني. فهذا الكاتب الشهير للسجالات كان أحد المصادر الحاسمة للشعبيين العرب حينما يتصدون لنحس الأفكار الصهيونية. أو لإدانة إسرائيل وسياساتها في فلسطين. وهنا، في مجلة الأداب، سيترقى القارئ أكثر على تشومسكي، الإنساني النزعة، وكأده من يمارس حزب العمل؛ فأرائه السياسية في فلسطين تظهر كأها يمينية مقارنة بأرائه الجذرية في الإمبريالية والديمقراطية والغرب. ثم إنه لا يترك في الإفصاح عن هذه الآراء كالتالي:

المزارع الذي يعمل في الحقل، والمرء الذي يتبضع في الشارع، والطفل الراجح من مدرسته إلى بيته، كل هؤلاء مفيدون حتى لو كان المزارع يتكلم بنقدية ويعيش على أرض محتلة. إن نصف باص يؤخذ مستوطنين هو عمل إرهابي إجرامي. إن الكفاح المسلح لتحقيق البرنامج الرسمي لنظمة التحرير الفلسطينية كان ولا يزال وسيبقى مشروعاً انتصارياً. الكفاح المسلح في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ مضرب بقضية التحرير، وهبة للمتشككين الإسرائيليين؛ إنه أمر يبعث على السخيرة أن يتخذ المرء أن المقاومة الفلسطينية المسلحة ستهزم جيش الدفاع الإسرائيلي؛ المقاومة الفلسطينية المسلحة ستشكل وحدة داخل إسرائيل داعمة لأكثر العناصر وحشية وقسوة؛ أعمال الهجوم على المستوطنين شنيعة أخلاقياً ومعوقة تكتيكية؛ العمليات العسكرية الفلسطينية ضد إسرائيل بحدودها المعترف بها دولياً ستكون بالغة الضرر على الفلسطينيين.

يدع تشومسكي الميانات بقره إن بعض الكتب المقصية هي أكثر الأدبيات إبائية. ثم يقرض أفكاره السلامية بالقول إن المقاومة غير العنيفة هي أكثر الوسائل فاعلية في دفع قضية التحرير قدماً؛ الكفاح المسلح وصفه للباس والكارة. ويضرب لنا تيموز الشرقية مثالاً على صحة آرائه. فالولايات المتحدة الأميركية دعمت علناً العدوان الاندونيسي على تيموز الشرقية، وسكنت عن الغطاء الهائلة فيها طوال ربع قرن، وعن طرد ٨٥٪ من السكان من بيوتهم، وعن تدمير البلاد وقتل الآلاف من السكان، ونقلت دعم الجيش الاندونيسي حتى أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩. وفي ذلك التاريخ أصدر الرئيس كليتتون أرامره إلى الجنرالات الاندونيسيين، تحت ضغط دولي ومحلي متواصل، بأن اللعبة انتهت. وخلال ٤٨ ساعة قلب الجنرالات مسارهم ١٨٠ درجة، وبدأوا الانسحاب من هذه الجزيرة لتندخل إليها قوة سلام دولية تقويها إسرائيل من لوى أن تلقى معارضة الجنرالات.

في هذا المقال لنا تفصيل وكلام؛ فالحق أن بعض آراء تشومسكي فيها الكثير من الديماغوجية، وعلى سبيل المثال، لم يدع أي فلسطيني قدماً للمقاومة الفلسطينية المسلحة ستهزم الجيش الإسرائيلي. وجل ما طلعت إليه الحركة الوطنية الفلسطينية، مثلها مثل أي حركة تحرر وطني في العالم، هو جعل تكلفة الاحتلال باهظة جداً بحيث تصبح إسرائيل غير قادرة على احتمالها، تماماً مثلما حصل في فيتنام أو الجزائر أو جنوب لبنان؛ فلم يتخذ أحد البتة أن الفيتكونغ أو جبهة التحرير الوطني الجزائرية أو حزب الله أقوى من الجيش الأميركي أو من الجيش الفرنسي أو من الجيش الإسرائيلي، على التتابع. لكن كان كل طرف من هؤلاء، في صراع الإزادات المرير، يتشبث بإيقاع أقصى - بل أقسى - الخسائر بالخصم كي يطمح خصمه على الصعود لحطابه، ولأنهما بعد أن يوقفن أن لا سبيل إلى كسر إرادته. وعندما يصل الخصم إلى هذه النقطة من التفكير تفتتح أبواباً كانت مغلقة تماماً، كالتفاوض السياسي على الجلاء أو حتى الجلاء من غير تفاوض.

أما نورمن فيكتامستين، فمع اختلافه الواضح عن نوم تشومسكي في موقفه الميمن من الكفاح المسلح، إلا أنه يتفق معه في أن تهجير الباصات المليئة بالمجنين عمل خاطئ. وهو يعتبر الأطفال والشيوخ في خانة المدنيين حكماً، بينما يرى أن مفهوم «المسؤولية الجماعية» غامض تماماً، وفي الديكتاتوريات لا يتكلم المواطنون أي رأي في سياسة حكوماتهم. وفي هذا السياق يبدو فتكستين يسارياً فلسطينياً، فيرى أن المستوطنين أهداف مشروعة للمقاومة المسلحة، وأن اغتيال وزير في الحكومة الإسرائيلية إنما هو انتقام مشروع. غير أن فتكستين (اليساري الفلسطيني) يتطابق موقفه مع تشومسكي (اليساري الإسرائيلي) في أن الأعمال الإرهابية ذات

المشروعة للأجئين يُعرض عائلاً سياسياً حاسماً وربما يُمنع أي عملية تسوية في المستقبل المنظور.

إن الأفكار والآراء التي توصل إليها كلٌ من تشومسكي وبيكستين وبالك تُظهر، لألفاظه الفارقة الكبير في طرائق التحليل والاستنتاج بين الكتاب العرب والكتاب الأميركيين في هذا الملف. ولا ريب في أن النقاط الخلافية التي أثارها نصوص هؤلاء الثلاثة جديدة، لا بالوقوف عندما ملئاً فقط بل بشحن العقل العربي، وإعمال الفكر لاستنباط اجسدية متينة وصحیح قوّة وأفكار تستند إلى المنطق في سفارة الصهيونية. وهذه المقاربة هي مجردة فقط في شروط طويل من تاريخ الصراع المستمر في منطقنا العربي منذ أكثر من مئة عام.

وفي هذه الرحلة المتعمقة في رحاب الأفكار، وبكثيرة في هذا السجل النقدي، أوجز بالقول التالي:

- إن فكرة «المسؤولية الجماعية» لا يمكن تطبيقها على الحال الإسرائيلية نفسها، على الرغم من التاريخ الطويل من الماسي والذئاب، فالفلسطينيون يقاتلون دفاعاً عن حطيم الإنساني في الحياة والعيش بحرية وكرامة. ومن هو الأجدر منهم في فهم هذابات الآخرين وحرية الإنسان وكرامته؟ لذلك فهو، حين يقاتلون ويموتون، ينبغي أن يكون قتالهم من أجل المستقبل، أي من أجل الحياة، فلا تُسَرِّمُ فكرة «عبادة الموت» ولا تتمكّلهم ضريبة قتل الآخرين، كل الآخرين، كيفما كان

- ليس صحيحاً أبداً القول إنه لا يوجد مدنيون إسرائيليون لا يُرغمون في قتال الفلسطينيين. إن هذا الكلام يدل على جهل تام بالتشغقات التي تُعصف بالجموع الإسرائيلي. لقد انتهى عصر القلعة والسور في إسرائيل، وثمة جيل جديد من الإسرائيليين نو صلت وأهيز بجبل الرقاد، وهو جيل مضطرب لا يُبقي في الحياة إلا المال والتجارة والسفر والاتصال والمتعة والسلام.

- إن من لا يرى التشغقات في القلعة الإسرائيلية، هو بكل بساطة، لا يُتَكَلَّمُ أي قدر من المعرفة بالعدو. ومن يرى للجموع الإسرائيلي كلاً موحداً ومتماسكاً إنما هو، في الواقع، غير قادر على رؤية أي شيء. ففي الأوساط الدينية اليهودية، لجماعات معادية للصهيونية، مثل منطوي كراتا، التي ترى في قيام إسرائيل كلفاً لألها عمل من أعمال الرب في الأساس لا من أعمال بن غوريون

- إن فلسطين الحركة والديمقراطية تنسج العرب واليهود معاً. فإذا كان الصهيونيون طردوا العرب في سنة ١٩٤٨، فالعرب لن يُطردوا أي عملية طرد بحق اليهود الذين يعيشون في فلسطين الحرة. فالواقف التاريخي تحقّق حقاً لأجل لم تُكثَر جرمية طرد الفلسطينيين أو احتلال فلسطين.

بيروت

فاعلة مشكوك فيها؛ فهي تمكن إسرائيل من وضع ثقل قوتها العسكرية، وتؤكد المجتمع الإسرائيلي، وتُلبّ الرأي العام العالمي ضد الفلسطينيين. وهو يُعتقد أن العصفاء للعدو الاعتراف هو ما سيأتي للفلسطينيين بالظفر: فلا الحرب التقليدية ولا حرب العصابات تدوان خياراً قابلاً للتطبيق، بل إن عصياناً مدنيّاً لاعنفياً شأن ما حدث في أثناء الانتفاضة الأولى قد يُثَقِّر الجيش الإسرائيلي ويُعطل تأثيره.

في جانب آخر يُشَارِد ريتشارد فالك بالغة المنهجية الرفيعة حينما يصنّف لمعالجة إحدى النقاط التي أثارها أسئلة الأرباب. فهو يقول: «إن القانون الدولي لا يُمنح أبداً باستهداف المدنيين عن سابق تصور وتصميم، لكن العنف الموجه ضد المستوطنين والمستوطنات لا يمكن اعتباره إرهاباً». وبفاجئنا بأن من غير الصحيح أن الأمم المتحدة أجازت المقاومة بكافة الوسائل؛ فهي أثبتت حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم ولكن من غير الموافقة الصريحة على الكفاح المسلح. وهذا الاستنتاج يُكرِّمنا إعادة فحص قرارات الأمم المتحدة على أيدي خبراء قانونيين من عيار ريتشارد فالك.

يُعرف فالك بأن قيام إسرائيل أُوْتِمَ بالفلسطينيين ظمناً كبيراً من الفواحي الإنسانية والأخلاقية والسياسية والقانونية. لكنه يعتقد أن تصحيح هذا الظلم مسألة صعبة اليوم، وأن السعي إلى قلب ما حدث في سنة ١٩٤٨ لا جدوى منه من الناحية القانونية والسياسية - وإن يكن مفهومًا من الناحية الأخلاقية.

إن تطبيق حق العودة، على سبيل المثال، مسألة معقّدة جداً بحسب ريتشارد فالك، لأنّ ثمة فهراً أولياً يوجهه للنظر الإسرائيلية الفاتلة إن ممارسة هذا الحق القانوني ستدفع هوية إسرائيل بوصفها دولة يهودية. والقانون الدولي يعطي أي دولة الحق في الدفاع عن بقائها، وليس فيه ما يُمنع شعباً من إنشاء دولة تُستند إلى معتقدات إثنية أو دينية. ولهذا ليست إيران، بوصفها دولة إسلامية، دولة غير شرعية (وهذا يُطبق على باكستان أيضاً) مع أن إسرائيل كانت شرعية الاستيطان ولم تكن خياراً للكمان الأصليين.

يُحقّق فالك وفنكستين، إلى حد كبير، على أن الترتيبات المُثَقَّف عليها والتي تُبثت عقوداً من الزمن تُكثّر في القانون الدولي مولدة للقانونية (فالك): وعلى الرغم من أن «القوة» لا تُصنّع حقاً، إلا أن القوة، مع مرور الوقت، تُصنّع حقاً بالفعل (فنكستين). إن فالك أقل تشدداً من فنكستين، ولعله يلائم التفكير السياسي للسلطة الفلسطينية؛ فهو يُعتقد أن من الضروري أحياناً التنازل عن حقوق مشروعة من أجل تحقيق أفضل حصيلة سياسية. لأنّ التبعات السياسية قد تُمنع ممارسة الحق القانوني. وفي هذا المجال لا يحوّج فالك عن القول إن إصرار الفلسطينيين على الحقوق

قبل أن تتكسر الأحلام

بقلم: عروبي حر

ولاسيّما حين تسلط «كجمود مخضر حطه السيل» من على «فاحلام الشعوب، حين تظن على سطح إنجازاتها، تُشعد مع تصاعد الأخيرة بشكل طبيعي» ولس. اما عندما تُفصل عن مائها وتُرفع عن عمد فوق قسم الجبال فتفقد القدرة على التواصل أو التماس مع سطح الماء الجاري في العين، فإن من رُفَعها سيتحكم عندها بمصيرها تماما. وعندما يأتي الوقت الملائم يُسقطها ذلك الذي رُفَعها، لترتطم بمنظر على صخور الواقع التي لم تكن ظاهرة من فوق، من السماء، فتتكسر.

إن شعبًا ثائرًا لا يُضغ إلا لنفسه، لجزء منه، لقيادته إذا خانتة ... وهم يدركون ذلك.

إذا، «الأمم» تتكامل استعدادًا للاغتصاب الأخير، لا للفرح . والاب يجهز ابنته لجريمة البيع، حين علمها، ليقبض ثمنًا يسد رمقه ويوقف موله. كان الفلسطينيون قد بدأوا يرون النور يشع تمامًا كما شع في الجنوب اللبناني، بل أكثر. وأصبح النصر «صبر ساعة» كما وعدمه القادة الذين «يعدون الجازة» وانتخاب القصة وأحمد العربي يُصعد كي يرى حيفاء كما يقول محمود درويش. ما لم يلقه المرتبطون هو أن التاريخ لم يشهد انتصار شعب دون قيادة، فما بالكُ شعب تجه قيادة لئيبه في سوق النخاسة؟!

أيها الأبطال، أبطال عين عريك وميون الحرامية ورفح ورام الله وخن يونس وبيت لحم وبلاطة وبولكرم... معذرة، فنحن جميعًا ننحني أمام عنفوانكم ورائدكم الفذة؛ ولكن أجراس العودة لن تُقرع هكذا، لأن قيادتكم قطعت الحبل وفننت الجرس. إنها تستجدي من الجلال أن يخلف ضريات سوية قليلًا لتستجمع قواها وميبتها للوحة فتجاش في تسليم أو اعتقال المطلوبين الذين أعد السيد قائمًا بالسمايح. تأكلوا أن اسم كل واحد منكم موجود على القائمة. وعندما يأتي وقت إطفاء الحراس وجبة أنسم من المعتاد، سنمقلون أو نسلّم مخابكم ونمكلن على منج «بنا الدولة».

إن تتراكم بطولكم لفضيخ الأمم وصعد الطم على قاعدة حقيقية سندامة. لن نُقرع أجراسنا قبل تنظيفها من طبقة الصدأ

لقد فاجأت حرب «الأمم» إسرائيل - وربما فاجأتنا جميعًا كذلك: ففي عين عريك سقط ستة جنود؛ وفي عيون الحرامية سقط عشرة جنود ومستوطنان. بدأ فجأة وكان أعين فلسطين تنفذ بطولاتها قل نظيرها في العديدين الأخيرين. حتى حزب الله - المثال، بل العلم - لم يتمكن من قتل هذا العدد من الجنود بإمكانيات يدائية كذلك التي في يد الفلسطينيين. إذا، هناك صخرة، عربة، بداية جديدة، نهاية سعيدة، انتصار للأصالة على الانحراف السياسي الذي دام عذرا، انطلاق أخرى للمقاومة حتى اقتل الناس قلة بالسلطة الفلسطينية راوا الهجمات المسلحة الأخيرة تغييرًا حقيقيًا في النوع.

ولكن رغم البطولة الحقيقية التي تجسدت في «الأمم» الفلسطينية، فإنني لم أن البداية - الصمود، بل شعرت بالظفرة - الضخيمة . إنها، في أحسن الأحوال، ظفرة، أو محاولة بأسة لتنجيد المقعد قبل الجلوس على طاولة التفاوض. وفي، في أسوأ الأحوال، ضيعة ضرورية تتلاصق بمشاعر الشعب، تمامًا كالمقاتل الذي يُشعل ضميته فترة استراحة فيستريح في حذر هذا الأخير وتلين دافعا، لينفض المقاتل فجأة وليتم جريمته.

قبل حرب الخليج، أو «ام الهزائم»، رُفعت المعنويات العربية والفلسطينية بإفمات أجنبية ومطلة حتى لامست السماء، وحين انتفش الغبار تكشفت العورات، وتبين مدى الإمعان في الكذب والتلاعب حتى بالأحلام. فسقطت الروح للمعنويات سقوطًا فاجعًا، وتسلبت الهزيمة، وانتشر اليأس، وصعد كيسنجر باسما كمن كان يُقرع مسمكًا متى سيُسدل الستار، وكيف سيقتل البطل في المشهد الأخير. والنتيجة الأعظم لأم الهزائم تلك كانت وثيقة استسلام وأعها في أوصلو المنتصرون من جهة والطامعون إلى لعب دور حراس أولئك المنتصرين من جهة أخرى.

لم يكن الفلسطينيون، والعرب عامة، ليوافقوا على تلك الهزيمة لولا هزيمة أحلامهم وتكسیر منوياتهم دون رصمة. فمنعويات الشعوب كلما ارتفعت زادت احتمالات تطهيرها ونفثها عندما تُسقط.

التي تُكثّم جُلُجَتَها، قبل أن نجد فينا من يُحْمِل رؤيانا فنصمّله ونصعّد. فمن «يفاءض» القفلة أثناء تمثيلهم بجثثنا... مَنْ يبيع لأجثينا مقابل بانتوسانات المافيا الفاسدة... مَنْ يُعْتُ مقاومتنا بالإرهاب ويقتل مناخيلينا لإرضاء أسياده الذين لا يُشعّون... مَنْ يُعَب بأحلامنا والأمان من أجل بضع وكالات تجارية لشركات إسرائيلية وأمريكية... مَنْ يسجل فيديو مرثية للمرحومة ليتا رابين ولا يُدَف بمعة - وإن عن طريق الخطأ - على ضحايا جبالها وطولكرم... مَنْ يُفقد الرؤية ويحيط نفسه بالمرتزقة ويقطع الصلة

بشعبه وتطلّعاته... مَنْ يُنْعو إلى سلام الشجعان ولكنه يحقّق سلام الخذلان، سلام القبور...

من يُفعل ذلك كلّ لا يمكن أن يقودنا إلى نصر وحرية.

أحييتنا، يا ابنِ أبناء الأئمة، لا نَسْمُحو للحلم الزائف أن يرفعكم في الهواء. لا نَسْبُحو في السماء. لا نَدْعُوا أحداً يُسرق أحلامكم الأصيلة. إنكم تستحقّون قيادة أفضل تساعدكم على تحقيق أحلامكم، لا تكسيرها.

القدس

موادّ الأعداد القادمة من الآراب

- مصادرات العقل العربي في القرن العشرين (ملف)
- من يموّل الثقافة العربية؟ (ملف)
- الأميركيون العرب: تجارب وإبداعات (ملف)
- الحركات الإسلامية المغربية وقضايا الحداثة (ندوة)
- مقابلات: محمد السرفيني، الطاهر لبّيب، لطيفة الدليمي

الدكتور سماح إدريس المحترم،

الإخوة في هيئة تحرير مجلة الآداب المحترمون،

تحية فلسطين، تحية العروبة،

بمناسبة مرور خمسين عاماً على صدور مجلة الآداب اللبنانية، اسمحوا لي أن أتقدم إليكم بكلمات التهنئة في يوميلها الذهبي، وبالتقدير العالي لكل هذه المشابة والاستمرارية بهذا النبر الكبير الذي قدّم أدباء عرباً كباراً، وأسّس للمشهد الثقافي العربي المعاصر، وواكب مظاهر الصداقة وتطوّر الفكر العربي والنقد الأدبي. واستطاعت مجلة الآداب عبر مسيرتها الطويلة أن تحتلّ مركز الصدارة، وأن تقدّم صورةً مضيئةً للفكر التنويري والأدب الإنساني.

لقد كانت الآداب، ومازالت، في قلب المشهد الثقافي الذي يواكب فعل الانتفاضة الفلسطينية والمقاومة إلى جانب المناضلين الشرفاء. وهي منبر عربيّ قوميّ وعالميّ يمتاز بالدفاع عن قضايا الإنسان المعاصر، وبالجرأة في طرح القضايا الفكرية والأدبية النقدية. أضفّ أنّها تُنْشِز بتقديم الصواريث المشبعة بالأفكار والأطروحات الجديدة. ولقد بلغت مجلة الآداب نموذجها المعاصر في متابعة النقاشات والجدل الثقافي. وهي لهذا كلّ ذات مكانة عالية في قلب كلّ مثقّف عربيّ وعقله، لما تمثّله من حالة نهوض في المشهد الثقافي العربيّ.

ورغم كل الصعوبات التي يواجهها القائمون على إصدار مجلة الآداب، ورغم نضوب الإمكانيّات، فإنّ ثقتنا كبيرة بالمجلة والقائمين على استمرارها في الصدور. ولأني أقرأ إرادة أسرة تحرير المجلة وتصميمها على الاستمرار والتطوير وبلوغ الغاية المنشودة في تفعيل المشهد الثقافي العربيّ.

إنّني أحيي جهودكم الطيبة، وأقدّم التقدير والتهنئة للدكتور سماح إدريس والدكتور سهيل إدريس وهيئة التحرير. كلّ المحبة لكم جميعاً من أجل ثقافة عربية تنويرية تواكب قضايا امتنا العربية، وتقدّم صورةً مشرقةً للبنان العربيّ وفلسطين والعرب جميعاً. وتقبّلوا فائق المودّة والاحترام.

أخوكم د. جورج حبش

مؤسّس حركة القوميين العرب

والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

لويس سبولفيدا

مذكرات قاتل عاطفي

ترجمة اسكندر حبش

رواية



دار الآداب



عتیق رحیمی

أَرْضُ وِرماد

ترجمة إسکندر حبش

رواية

دار الآداب